بل لا يشعرون

الكتاب: بل لا يشعرون
المؤلف: إسلام وهيب
تصميم الغلاف: كريم وهيب
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/27182
الترقيم الدولي: 978-977-778-196-1

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

إسلام وهيب

بل لا يشعرون

رواية

نون للنشر والتوزيع

عندما لا تملك شيئًا فأنت تمتلكني كصديق، أنت جزء من هذه المدينة الفاضلة، أنت مالك لجزء من مدينة الأب جونز، أنا أعطي لك الفرصة للعيش في جنة عدن، هنا لن نهتم ما هو لونك،لن نهتم بأصلك، لن نهتم ماذا كنت في الماضي، أنت هنا إنسان يولد من جديد، أنت مرحب بك في جنتنا مهما كنت..

الأب جيم جونز

- 1 -

ترتعد فرائصه وترتجف مفاصله ارتجافًا قاسيًا أليمًا، تسري في جسدِه تلك القشعريرة المميتة التي رافقها اصطكاك الأسنان الذي يُسمع بوضح كلما زادت موجات التوتر التي تضرب الجسد بلا رحمة، يده لا تتوقف عن الاهتزاز وهو يجاهد ليضعها من حين إلى آخر على الجروح المتفرقة في جسدِه، والتي ازداد ألمها وصراخها بازدياد تيارات الهواء التي تتزايد مع هبوط الليل بسبب طبيعة الولاية وموقعها الجغرافي، الدماء الحمراء الواضحة التي صبغت ملابسه الخفيفة التي تمزق معظمها في مواضع كثيرة ومختلفة فبرز من أسفلها الجلد الأسخم اللامع في مواقع، وجروح وانتفاخات في مواضع أخرى، يجاهد ليلتقط أنفاسه وهو يركض على قدمٍ واحدة بسبب تلك الإصابة التي تضخمت على فخدِه والتي صنعها زميل العمل المتعصب وأعوانه وعززت الشرطة موقفها، وإضافة عليها ألم آخر خلال الأيام السابقة فتظهر بوضوح تلك العرجة وهو يجاهد ليزيد من سرعته لتصل إلى السرعة القصوى المسموح بها في ظل ذلك الألم، يركض دون توقف كالمشتاق الذي على شفى اللقاء، يلتقط أنفاسه كالغريق الذي تملأ السوائل رئتيه وجسده الهزيل يقتحم نسمات الهواء الباردة، هناك مزارع وأراضي سيطر عليها اللون الأخضر وهناك أراضي لا تجد فيها سوى أشجارا كبيرة تساقطت أوراقها على الأرض وجفت بسبب قلة الاهتمام، كتلك الأرض التي يجاهد جورج ليتخطاها فيستمع إلى صوت تكسير أوراق الشجر الجافة تحت أقدامه، اللهاث وصل إلى أقصاه فصار لا يستطيع التقاط أنفاسه مع ذلك الجهد العضلي الكبير،انحنى لا إراديًا وراح يستند بيده على تلك الشجرة الكبيرة قبل أن

يجثو على ركبتيه، وحشرجة صدره واضحة وهو يبذل ما في وسعه ليُدخل أكبر قدر من الأكسجين في صدرِه، ألم سخيف بدأ يتحد مع ذلك الألم الذي يعتصره ليزيد من الطين بله ويضاعف الإجهاد الذي يشعر به، لكن عليه أن يتناسى كل هذا وأن يستقيم ليُكمل مسيرته، هو يعرف جيدًا أن الحياة لا تأتيه إلا بالصوادم التي اعتاد عليها منذُ الصغر، على الدوام هي لم تمنحه سوى ما يوازي أحلامه أو القليل جدًا مما يريد، هو يعرف جيدًا أنه في ولاية تفرد فيها العنصرية جناحيها عن آخرهما لتسيطر على كل شبر فيها، الأمان هنا في هذه المدينة ليس للحق بل لمن يرضى عنه الساسة بحسب المصالح المشتركة والأهواء التي تميز الزنوج في هذه البلدة، استقام قدر المستطاع وراح يعدو ببطء يتزايد تدريجيًا وسط هذه البقعة المظلمة بين الأشجار الكثيفة حتى بدأت تظهر على مرمى البصر مجموعة من المنازل التي تقبع بلا هيبة أو حضور، يسيطر عليها الفقر من الوهلة الأولى وتعود كلها للزنوج الأقلية في تلك الولاية التي وصلت بها العنصرية عنان السماء، يعمل الزنوج في هذه المقاطعة في أعمال مختلفة، كلها برواتب شحيحة بالكاد تكفي قوت يومهم،يسيطر على هذه المنازل الفقر من كل جانب تراه، فلا تتردد لحظة واحدة في أن تحكم علي أصحابها بالشقاء والخصاصة، تقع جميعها بالقرب من مزرعة أحد رجال الأنجلوسكسونيين المتشددين ذوي الأصول الأوروبية والذين يكرهون الزنوج أشد الكره، ويدعى السيد نيكولاس.

لم يتوقف جورج عن الركض، وظل يجاهد حتى اقترب من مجموعة المنازل التي تسيطر عليها حالة من الهدوء التام فلا يوجد سوى الهواء والظلم في كل مكان بالخارج، منزل جورج يقع على طرف هذه المنازل، أي على الواجهة لكن من الجهة الأقرب إلى الطريق السريع، بهدوء بدأ جورج يسلك تلك الطرق الملتوية حتى وصل إلى باب منزله، تلفت حوله بتوتر شديد كأنه يتأكد أن لا أحد يراقبه أو يتبعه ثم أخذ ينقر الباب بوجل نقرًا خفيفًا متتابعا وهو يتلفت في كل جانب حتى بدأ يستمع إلى وقع أقدام زوجته وهي تتقدم تجاه الباب، يسمع دقات قلبها المتتابعة وهي تسأل نفسها من الذي سيطرق الباب في تلك الساعة المتأخرة وهي تعلم أن زوجها تم

القبض عليه منذُ ثلاثة أيام !!، فُتح الباب فأدهشها وجوده، موضعه الغريب أمامها وهو يجلس القرفصاء جعل جسدها ينتفض وتشعر أن هناك مصيبة كبيرة هي على وشك سماعها، أطالت النظر إليه وعيناها لا تصدقان ما تراه أمامها، هي قد علمت بما حدث معه من زميل العمل المتربص، وتعلم أيضًا مدى الفاجعة التي اقترفها هو والتي ستكلفه الكثير لكنها كانت لم تشاهده منذُ أن تم القبض عليه، لم تتوقع هذه الدماء التي تكسو ملابسه في مواضع عدة، ولا وجهه الذي يعاني من انتفاخات غريبة ناتجة عما تعرض له أثناء الذهاب إلى عمله، وعن رحى العذاب الذي كان يُصب عليه في القسم، الضباط كانوا يتناوبون عليه بالضرب، هي كانت تدرك جيدًا أنه سيُعاني في قسم الشرطة بسبب ما دفعته إليه دوامات العنصرية القاتلة التي تضرب كل أرجاء الولاية بلا هوادة، لكنها لم تدرك أن القسوة التي انقسمت بين زميل العمل ورجال الشرطة ستصل إلى هذا الحد من التنكيل!!وجهه كان يصور العذاب ببلاغة قد تفوق بلاغة بيكاسو في تجسده بلوحتِه الأشهر التراجيديا، ظلت تنظر إليه متصلبة الملامح، تتسع عيناها الواسعة اللامعة وسط سواد جلدها القاتم، انسابت الدموع من عين جورج رغمًا عنه وراحت تأخذ طريقها المتعرج على تلك الفقاعات المتورمة داكنة اللون فاقتربت منه زوجته وراحت بهدوء تُدخله إلى المنزل ثم أغلقت الباب وبكاؤه يتصاعد تدريجيًا، من دون مقدمات احتضنته لتحطم ذلك الضغط الشديد الذي يحول بينها وبين زوجها المسكين فغاص فيها وأخذ يزيد من بكائه، لم يقترف ما يسيء إلى وقاره أمامها، فقط انهار بكل جوانحه، هو لا يملك سواها ليخرج أمامها ضعفه، أراح رأسه بين كتفيها وراحت هي تحرك يدها على شعره الخشن وتتحسس مكانا في رأسه خالٍ من الإصابات لتقبله وهي تشاركه البكاء والدموع، تعلم جيدًا أنه يحمل ما لا طاقة له به، جسده ينتفض وهي تحرك كفها على منابت شعره، رفع كفه ببطء واحتضن خصرها بقوة، كان يتشبث بها كطفل يمسك بأمه خوفًا من زحمة السوق، بدأ يشعر بجنته الصغيرة التي ابتعد عنها لأيام ظلمًا وقهرًا، شعر أنه الحجر الذي خُلع من المبنى وقد عاد إليه فراح يهدأ تدريجيًا ويتناسى الألم في الوقت نفسه،

بدأت الزوجة تزيحه عنها شيئًا فشيء، تريد أن تعرف منه كيف وصل إلى هنا وهو رهن الاعتقال!!

سألته بطريقة واضحة لا مجال فيها للمراوغة، فشعر جورج بقلق عميق مخيف يتضاءل بجانبه كل شيء، القلق يأكل منها وهي ترى ملامح الخوف الشديد تفرد جناحيها على ملامحه، أعادت سؤالها مرة أخرى ولكن بصرامة أشد هذه المرة ثم انتظرت برهة من الزمن والقلق يأكلها كما تأكل البكتريا لحم مريض التهاب اللفافة.

- لا وقت لهذا الكلام فقد فات أوانه، أريد منكِ أن توقظي أطفالنا وبسرعة البرق نأخذ كل ما نستطيع حمله، علينا أن نغادر المنزل حالاً، بل الولاية كلها إن استطعنا.

انتصب الشعر على مؤخرة عنقها وهذه الكلمات تعانق أذنها، انسابت دموعها أكثر وتضخم الحزن ليتحول إلى نوبة من نوبات الانهيار التام، كانت تحاول أن تخادع ذلك الإحساس الذي يعتريها حتى برز الأمر أمامها رويدًا رويدًا، تأكدت بثقة لا ريب فيها أن هناك كارثة أخرى قد حطت بعائلتها الصغيرة، حاول جورج المراوغة بفكرة سرعة الهروب لكن أصرت الزوجة أن تعرف ماذا حدث بالضبط واحتد صوتها فتسلل إلى أذن الأطفال فانتبها واستيقظا مصفري الوجه يركضان تجاه أبيهما لكن استوقفهما مظهره في البداية، فملامحه لم تعد هي التي اعتادا عليها لكن قلبه كان كما هو يجذبهما إليه سريعًا، عزم على احتضانهما ليبدد فكرة الخوف منهما، احتضنهما في نوبة من نوبات الحنان الذي حُرِما منه لأيام، فاضت سعادته وجلده يلامس جلدهما الناعم لكن سرعان ما تذكر ما حدث فعاد الخوف يسكن كل خلية من خلاياه، تماسكت الزوجة وحبست دموعها عن الانسياب، مسحت آثار كل ما سبق وهي تتأفف بسبب الضغط الشديد الذي تقع هي تحت تأثيره، بنبرة حادة أمرت طفليها بالعودة إلى غرفتهما، فاستمعا للأمر من المرة الأولى خوفًا من هيئتها الحادة قبل أن تعيد سؤالها على زوجها بطريقة لن تفلح معها المراوغة، فما كان منه إلا أنه طأطأ رأسه في انكسار وأخبرها من بين أسنانه أنه قتل ضابط شرطة وهرب من القسم!!

جلست صاغرة كالمغشي عليها من الموت مفتوحة الأعين بشكلٍ كنا نحسبه لا يجوز فيزيائيًا، تنظر إلى جورج وقد أنهكها ما ألقاه عليها، نال منها الفزع فخارت قواها وبدأ القلق يساورها وتمتلكها الهواجس والوساوس وهي تفكر فيما سيحل به بعد ما حدث، لم يقطع ما هي فيه سوى صوت جورج الذي كان محملا بالبكاء يخبرها بأن ما حدث كان ليس مخططًا له، لكن الحياة في هذا المجتمع المتعصب الظالم بكل ما تحمل الكلمة من معنى لا يساوي شيئا بجانب قضاء ليلة واحدة مع هؤلاء القوم الجبارين، أخبرها أن كل حين كان يتردد عليه ضابط مستفز يهين كرامته قبل أن يسحبوه ليتناوبوا عليه الضرب ويلقوا عليه اللعنات، أخبرها أن هذه كلها أشياء فظيعة قد تدفع الإنسان إلى اقتراف أي فعل لا يبدو منطقيًا في ظروفٍ أخرى، الزوجة لا تفعل شيئا سوى النظر إليه بعينيها الجامدتين اللتين لا تتوقفان معها الدموع، كان الخوف يفترس وجهها افتراسًا في الوقت الذي شعر فيه جورج أن قدمه باتت غير قادرة على حمله، نزل الإرهاق والتعب عليه كقذيفة مباغتة هزت مخيماته الواهنة، شعر بأن هناك جيش من العقارب يسري تحت ملابسه ثم اجتياح خمود بدأ بمقدمة رأسِه ثم غاص في بدنه كله تباعًا فانزوى في ذلك الركن الصغير وجلس على الأرض، أسند رأسه بكفيه كأنه يخشى هروبها بعيدًا، انفطر قلب الزوجة وسألته عما أصابه فأخبرها باقتضاب أنه دوار سيء قد اكتنف رأسه ثم أضاف بنبرة هادئة أنه لم يأكل منذُ اعتقاله، هرعت الزوجة إلى المطبخ الشحيح لترى ما لديهم، عادت وهي تحمل معها شيئا أشبه بالخبز وبعض الحليب فوجدته قد افترش الأرض بصحبة الصرخات المنبعثة من عظامِه التي تفككت على أثر ما حدث، انشق قلبها وراحت تجاهد لتمنع تزايد الدموع، هرعت إليه وراحت تسقيه الحليب، فشرب حتى يستعيد قواه ويستطيع مقاومة الفاجعة التي اقترفها، هو يعرف جيدًا أن الفاجعة لم تبدأ بعد وأن جهاز الشرطة بأكمله سيأتي إلى هنا الآن، طلبت منه الزوجة أن يأكل فأزاح ما يشبه الخبز عنه ورفض الأكل فقط اكتفى برشفات بسيطة من الحليب لتعيد له توازنه وتمده بالطاقة اللازمة، نظرت له زوجته ومئات الأسئلة تنضح على وجهها.

- أعلم أن هناك العديد والعديد من الأسئلة التي تودين طرحها وتبحثين لها عن إجابة لكن ما حدث قد حدث، ليس هناك قوة على الأرض يمكنها أن تغير شيء.

- ماذا تنوي تحديدًا؟؟

- سنترك المنزل والمدينة كلها.

- هل لديك خطة للهروب؟؟

- نحن بالفعل كان لدينا خطة للهروب إلى واشنطن حيث الجمعيات المدنية الخاصة بحقوق الزنوج، وأنتِ تأكدتِ من صلاح جوازات السفر الخاصة بنا.

- ولكنك تسهو عن المُحرك الأساسي لهذا الهروب، ألم تتذكر أننا كنا قد اتفقنا على بيع المنزل من أجل ذلك، من أين ستأتي بالمال وكيف سنبيع المنزل في هذه الظروف؟؟!!

نظر لها جورج وأخبرها أنهم لم يعودوا يحتاجون بيع المنزل، علاوة على أن الآن الوقت لن يسمح بذلك، نظرت له وعلى وجهها علامة استفهام كبيرة للغاية، رفع جورج ملابسه فوجدت أنه يضع عددا كبيرا من الدولارات حول خصره والبنطال، كان عددها كبيرا يغطي نصف واجهة بطنه، اتسعت عيناها وكاد قلبها أن يتوقف، سألته في عُجالة عن ذلك فأخبرها بأنه اقتحم تلك الغرفة التي تحتفظ فيها الشرطة بالأحراز وأخذ هذه الأموال، لم يكن الأمر سوى صدمة أخرى قد أُضيفت إليها، نظرت إلى السماء وعيناها عادتا تبكيان بغزارة شديدة.

- اهدأي يا حبيبتي فأنا أخبرتك في البداية أنني قتلت رجل شرطة ولا يوجد ما هو أسوأ من ذلك.

أجابته زوجته والبكاء يسيطر عليها كليًا بأنه الآن أصبح أخطر رجل في الولاية ولن يرحمه أحد، أخبرته بأن الشرِيف "الشرِيف هو المأمور في الولايات المتحدة

الأمريكية" معروف عنه بأنه رجل عنصري ولن يسمح بأمور كهذه تحدث في القسم المسئول عنه.

- أنا كنت أظن ذلك مثلك حتى أثبته هو ورجاله على جسدي.

أغمضت الزوجة عينيها وتنهدت.

- أنت على حق، ما حدث قد حدث ولا توجد قوة على الأرض يمكنها أن تعيده لكن أحب أن أخبرك بأنني معك حتى النهاية، مهما كان مصيري فأنا أحب أن يكون وأنا بالقرب منك، انهض وبدل ملابسك، سننطلق سويًا إلى حيث تريد.

بهذه الكلمات البسيطة استطاعت الزوجة أن تحرك كيان جورج وتضع فيه الأمل مرة أخرى فهب واقفًا وراح ينزع تلك الملابس عنه فرأت الزوجة تلك الأيام الصعبة التي عاشها في القسم محفورة على جسده، دلف إلى الحمام وبدأ يسكب الماء البارد على جسده فيزيح عنه الدماء التي كادت أن تلتحم مع جلده، يسكب الماء على الجروح فينظفها قدر المستطاع، كان جسده يحتاج إلى الماء، كان يتجرعه كأنه يشعر بالظمأ، استبدل ملابسه وخرج من الحمام ليجد زوجته تضع بعض الملابس في حقيبة يتضح عليها البؤس الشديد، هرع جورج إلى الصندوق الخشبي الموجود في خزانة الملابس، أخبرها بأن هذه الحقيبة كبيرة، فجأة وبدون سابق إنذار هم جورج يركض تجاه غرفة أولاده، فتح الباب ودلف إلى الداخل فوجدهم يجلسون على الأرض والخوف يملؤهم،خاصةً ابنته ماري وهي الأبنة الكبرى ذات العشرة أعوام، فكانت قادرة على تفسير بعض الأمور والجمل التي تسربت إلى أذنها من نقاش والديها، علاوة على أنها تدرك جيدًا أنهم لا يحيون حياة سوية فهي تدرك ذلك جيدًا، هي لم ترى أبويها يضحكون وتتضح السعادة في وجوههم سوى يوم الأحد الماضي حينما ابتاع لها الفستان، ولكن لم تدرك أن هذه اللحظات ستكلفهم كل هذا الكم من الشقاء، لو علمت ذلك لما طلبت منه فستانًا جديدا، أمَّا الابن الأصغر فهو يقترب

من عامه الخامس، فلم يُعِنه وعيه الذي لم يفطم بعد على فهم ما يحدث لكنه كان يشعر بخوفٍ رهيب، ماري ترمق والدها والدهشة العارمة تنسج خيوطها على قلبها وملامحها وهو يُجد داخل الغرفة يبحث عن أي شيء حتى وجد تلك الحقيبة الصغيرة التي تُعلق على الكتف، وجد جورج أنها مناسبة لهم ولن تعيق حركتهم، أخذها ثم وقعت عيناه على حصالة النقود المصنوعة من الصاج والتي تدخر بها تلك الأموال الزهيدة التي تحصل عليها أسبوعيًا مع بعض المكافآت الطفيفة التي تجود بها الكنيسة بسبب التفوق في فرق الترنيم، تأملته وهو يتنازل بالكامل عن كل ما يملك من تكبر وعزة نفس ويهم بها، هذه هي المرة الأولى التي تتجمع فيها فِلقات شجاعته فيمد يده إلى حصالتها، الزوجة كانت تراوده كثيرًا عن ذلك فكان يرفض رفضًا قاطعًا، ابنته نفسها راودته عن ذلك لتساهم في ثمن الفستان لكنه أبى ورفض، الآن هو من يهم بفعل ذلك، عاندته الحصالة وكانت تأبى أن تنفتح فانهال عليها بالضرب حتى تهشمت تحت وابل من اللكمات ليأخذ النقود الشحيحة التي كانت في أحشائها، وضعها بداخل الحقيبة ثم أخذ الأموال التي وضعها في كيس بلاستيكي قبل أن يستحم ووضعها في الحقيبة ثم طلب من زوجته أن تأتي بجوازات السفر التي كانت قد أخبرته بوجودها سلفًا .

حمل جورج الطفل الصغير وأمر ابنته أن تتشبث بيد والدتها، حمل تلك الحقيبة الصغيرة على كتفه وهموا جميعًا بالرحيل، لكن قبل أن يخرجوا ألقي جورج نظرة على المنزل كأنه يودعه ثم بهدوء فتح الباب، أخرج رأسه وراح يتلفت بعينيه في كل مكان، الجميع في حالة نوم وسكون، بهدوء بدأ يخرج وهو يشير إلى جميع أفراد أسرته بعدم إصدار صوت، يتحسس خطواته بهدوء حتى لا يصدر صوتًا ملفتًا، كان أمامه طريقين عليه أن يسلك أحدهما، منزله يقع على الطرف وأمامه مساحة خالية، من ثم منطقة بها أشجار قبل الخروج إلى الشارع الرئيسي، نبذ جورج تلك الفكرة وذلك الطريق لأنه بكل تأكيد ستأتي عن طريقه سيارات الشرطة فهو يؤدي إلى القسم، عليه أن يلجأ

إلى الطريق الآخر، سيجتاز أولاً كافة المنازل ومن ثم يحاول الوصول إلى المطار قبل أن يصل إليه منشور بما حدث ويتم القبض عليه هناك، منازل الزنوج بالكامل تقع موازية لسور المزرعة التي يمتلكها السيد نيكولاس المُتعصب، سلك جورج الطريق الثاني فظل يمر بين تلك الطرق المتعرجة بين الممرات حتى وصل إلى ظهر منزل يعود لجيرانه الذين يعانون أشد العناء، عائلة صغيرة يعولها رجل متهالك قد سلبه المرض كل شيء حتى عمله، وجد جورج أن هذا الرجل يجلس في شرفة منزله الخلفية، يسند ذراعه على السور الخشبي المتهالك ويدخن لفافة تبغ يقضي بها على ما تبقى له من صحة، يهيم في الأفلاك ويفكر في حل لهذه المشكلة التي تتفاقم يومًا بعد يوم، يخشى الجميع ردة فعله ويتمنوا ألا يختار ذلك المصير الذي اختاره مايكل من قبل!!اشتم جورج رائحة التبغ وهو يقف بجوار تلك الشرفة التي عليه اجتيازها هو وأسرته من دون أن يراهم أحد، عليه المرور فالطريق البديل سيعرضه للحركة أمام المنازل مما يكون عرضة للرؤية، لا بديل سوى ذلك الطريق الخلفي، جثا جورج على ركبته ونظر إلى زوجته وابنته ثم همس لهم بصوتٍ بالكاد يُسمع.

- علينا أن نعبر الطريق دون أن يرانا.

- لماذا لا ننتظر حتى يعود للداخل.

- هو لا يخلد للنوم منذُ أن تفاقمت الأمور، لن يدخل إلا مع سطوع ضوء النهار.

- ماذا إن رآنا، هو جارنا وبيننا ود ومحبة، لن يشي بك.

- كلها دقائق وسيصل الشريف إلى هنا بصحبة قوة من الشرطة، لن يستطيع أحد الصمود أمام ظلمهم وعدوانهم، الوشاية بنا ستكون بمثابة طوق نجاة بالنسبة لهم.

- على أي حال سنفعل ما تراه صالحًا.

أنهت الزوجة كلماتها فهم جورج بالعبور من أسفل السور الخشبي على أربع كالماشية، يعبر أسفل جاره الذي إذا مد بصره قليلاً رآه، جورج جعل ابنه أمامه يتحرك

في تلك الكيفية بعدما أخبره أنه سيتسابق معه للعبور ومن يصل أولاً سيحصل على الحلوى بشرط ألا يصدر صوتًا نهائيًا وإلا اعتبر خاسرًا، عبر جورج وابنه بسلام وجاء الدور على ماري التي لم تحتج إلى توصية، فقط بدأت بالعبور بهدوء حتى اجتاحت تلك المسافة الصغيرة في دقائق، الآن الدور على الزوجة التي ما لبثت أن تحركت حتى دوت إنذارات الشرطة وبدأت تعوي في كل مكان، تتضاعف سريعًا وتقترب بعجالة تُسلب الجميع السلام النفسي والتفكير الرشيد، كرات الإنارة الحمراء تتحرك على أعلى السيارات لتكسر الظلام، على الزوجة أن تتحرك بسرعة أكبر، احتضن جورج ابنه وأخذ يشير إلى زوجته كي تسرع فراحت تركض بسرعة بتلك الوضعية التي تتحرك فيها على أربع حتى وصلت إلى نصف المسافة فهب الرجل الذي يدخن لفافة التبغ من مكانه مع اقتراب أصوات سرينة الشرطة، انحنى بنصف جسده خارج السور ليرمق ما يحدث، شعرت الزوجة بذلك فتوقفت عن متابعة السير وأسندت ظهرها إلى الحائط وراحت تنكمش على بعضها وتضم ساقيها قدر المستطاع حتى لا يرمقها ذلك الرجل الذي راح يميل أكثر، تلتقط الزوجة أنفاسها بصعوبة وهو يجاهد ليرى ذلك حتى أن تلك القطرات التي سقطت من لعابه عانقت كتفها ولكنها لم تتحرك برغم اشمئزازها، ظلت متجمدة على تلك الوضعية الصعبة وعربات الشرطة تقترب، بهذه الطريقة سيصل الجميع وهي لن تغادر مكانها، عليها التحرك لكن قبل ذلك لابد من فكرة، عدلت من وضعها وراحت تفترش الأرض على بطنها وشرعت في الزحف من دون أن تصدر صوتا نهائيًا حتى لا تلفت الأنظار، أعصاب جورج تحترق وهو يوزع نظراته عليها وعلى ذلك الجار المُدخن مع اقتراب صوت سرينة الشرطة، ظل يصرف في الظنون حتى عبرت زوجته تلك المسافة القصيرة فكان عليهم الركض السريع والتخفي، في الوقت ذاته بدأت الإضاءة تظهر داخل المنازل على استحياء، قلبه ينقبض وتشمله حالة من فوضى الحواس وهو يجاهد للركض والتخفي هو وأسرته، يتلفتون على كل جانب ويواصلون الركض، يتناسى الإصابات التي تملأ جسده وصِراخ عظامه

التي تفككت تحت وابل الضربات، يجاهدون جميعًا للوصول إلى أقصى سرعة وهم يراوغون الأماكن التي قد يظهر منها شخص أو اثنان حتى وصلوا إلى سور ذلك الحقل الذي تقع منازل هؤلاء الزنوج على الحافة الأخرى منه، جورج وعائلته أمام سور من السلك الشائك يرتفع طوله مترونصف المتر، إنه سور مزرعة السيد نيكولاس، جورج وللمرة الثانية كان أمام خيارين، إمَّا أن يذهب ويختبئ داخل حقل القمح الذي يمتلكه المتعصب نيكولاس، وإمَّا أن يسلك الطريق بشكل طولي حيث تلك المزرعة التي يمتلكها أُناس آخرون أقل تعصبًا ولكن مزرعتهم تعتبر مكشوفة إلى حد ما، فضل جورج اللجوء إلى حقل القمح للاختباء بسبب اتساعه وطول الزرع الذي سيغطي عليه ويكون إيجاده فكرة مستحيلة، فَهمَ إلى السور الشائك تمهيدًا لتنفيذ الاختيار الأول وسط نظرات مبهمة من زوجته التي أطالت النظر ثم سألته عن السبب.

- لا نملك سوى ذلك الحل، سنختبئ وسط القمح الكثيف والطويل حتى يمضي أفراد الشرطة.

- لماذا لا نذهب إلى تلك المزرعة ونختبئ في مبنى من تلك المباني التي يخزن بها القش والذرة.

- بالتأكيد سيبحثون بها علاوة على أنها منطقة تعتبر مكشوفة أمَّا القمح سيغطينا بالكامل.

- صاحب ذلك الحقل يكره الزنوج أشد الكره ولو انكشف أمرنا فلن يرحمنا، سيقتلنا قبل أن يسلمنا للشرطة وستقفل القضية على أننا حاولنا سرقته وقتله.

- لن يرانا، مساحة الحقل شاسعة ومساكن العاملين بالأرض تبعد عن السور.

- أنا غير مطمئنة.

- لا وقت لذلك فقط ثقي بي.

بدأ جورج يتفقد السور الشائك الذي يعزل به صاحب الحقل ملكه عن عائلات

الزنوج فاكتشف أنه مكون من عدة أسلاك شائكة تحت بعضها البعض، المسافة بين الواحد والآخر بالكاد تسمح بمرور ذراع لشخص رفيع ليس أزيد من ذلك، الأسلاك حادة وشائكة جدًا بالدرجة التي ستمزق أي شيء يحاول الاقتراب منها، فكر جورج سريعًا فقرر أن يبدأ بابنه الذي هو أخفهم وزنًا لكنه يخشى بكاءِه وهو طفل لن يُدرك احتواء الموقف، جثا على ركبتيه أمامه وبدأ يتحدث إليه.

- أنت تعشق لعبة الغميضة أليس كذلك!!

أومأ الطفل برأسِه.

- الآن نحن نلعبها بشكل أكثر واقعية، عليك أن تبقى هادئًا عندما أُلقي بك إلى الجهة الأخرى من السلك، يجب أن تبدو هادئًا حتى تأتي إليك ماري من دون أن تصدر صوتا حتى لا ينكشف أمرنا ونخسر اللعبة.

أومأ له الطفل بحركة طفولية بحتة ليجد نفسه في الهواء ثم يسقط على الأرض، السقوط كان حادا لكنه وضع يده على فمه في حركة طفولية كأنه يخبر والده بأنه لا يصدر صوت في الوقت الذي أصبح فيه السور يفصل بينه وبين عائلته، سيارات الشرطة على شفا الوصول إلى مساكن الزنوج، تحديدًا أمام تلك الساحة الواسعة الموجودة أمام منزل جورج، نظر جورج إلى ابنته ماري والتي كانت ملامحها صلبة، أخذ جورج يفكر طويلاً يبحث عن تلك الزاوية التي سيُقحم منها ماري ليلقيها هي الأخرى، كان يريد أن يراودها عن تلك الفكرة ولا يدري أن ماري قد شاخ وعيها بسبب تلك الصراعات التي يعيشون فيها منذُ نعومة أظافرها، فَطِن إدراكها بسبب الأمواج العاصفة التي كانت تضرب أسرتها وجيرانها كل فترة قصيرة، بادرت وطلبت من والدها أن يسرع فأصوات الصافرة تُخبرهم بأن رجال الشرطة قد وصلوا، أسرع جورج وحملها لكن ألم فخذيه كان يعوقه بالرغم من وزنها القليل فاستعان بزوجتِه كي تحملها معه وألقوا بها لتصبح بجوار أخيها، يشعر جورج بأجزاء من نفسه وجسده

تتمزق وتتحول إلى هباء يضيع بسبب دخان العذاب الذي يستنشقه طيلة الفترة السابقة، وصلت سيارات الشرطة إلى تلك الساحة والتي يصعب من مكانها رؤية عائلة جورج لأن المنازل تحول بينهم، خيم الخوف على جورج وهرع يحمل زوجته ليلقِ بها فصرخ فخذه وسرعان ما أسقطها أرضًا، التوتر يرتفع بشكل جنوني فأضاءت فكرة في رأس جورج وسط ذلك الضباب الذي يتخلله، طلب من زوجته أن تتحرك خطوات بسيطة إلى الأمام حيث ذلك العمود الخشبي الذي يتواجد كل أمتار قليلة ليلتف عليه السلك ليشده ويعطي له التماسك والثبات الذي يجعله صلبا وحادا، طلب منها أن تصعد على الأسلاك كأنها تصعد درجات سلم وهي تمسك في ذلك العمود الخشبي ليضمن توازنها، الأمر كان مرعبا بالنسبة لها لكن رافقتها بعض خطفات الوَسَنِ المليئة بالرؤى السيئة لما سيحدث لهم إن انكشف أمرهم وقُبض عليهم فهمت تصعد سريعًا ويد جورج تسندها من الخلف حتى وصلت إلى أعلى نقطة فوق الأسلاك التي بدأت ترتعش تحت أقدامها فصلابته المبالغ فيها جعلته عُرضة للقطع، بهدوء بدأت الزوجة تخطو بقدمها اليمنى من فوق الأسلاك بوضعية قد تنازلت عن جزء كبير من الاتزان فتحدثت إلى جورج من خلف حجاب الخوف الذي بدأ يحول بينها وبين إصرارها، تطلب منه أن يثبتها قدر المستطاع وما إن عادت بظهرها قليلاً إلى الخلف ولبثت تتحرك قدمها الأخرى فوق الأسلاك فانقطعت من فرط الحركة والحمل لتسقط الزوجة على السلك الذي يليه فرشقت أطرافه في لحم فخذها الطري، كتمت صِراخها ووضعت يدها على فمها، في الوقت نفسه قصت عيناها كل ذرة ألم تشعر بها، بات الموقف في غاية الصعوبة، يضرب التوتر كل أرجاء المكان من حولهم، شرع الطفل في البكاء فاحتضنته ماري حتى لا يصدر صوتا ويدها ترتجف كأنها مصابة بحمى، ضمت أخاها إلى صدرها حتى لا يرمق ذلك المنظر المؤلم، تضمه بقوة وثغرها مفتوح عن آخره وكذلك عيناها من دون أن تبكي فالمنظر كان صادما أكثر منه مُبكيا، تنظر إلى أمها وهي تضع يدها على فمها عروق رقبتها نفرت بالحد الذي جعل الفزع يتجسد على وجه كل من ينظر إليها، جورج يجاهد

لينتزعها من فوق الأسلاك التي اخترقت لحم فخذها الطري، قدم الزوجة ترتعش وقد اصطبغ بنطالها ببقع دماء داكنة خرجت سارحة من تلك الجروح التي حفرتها بوقاحة أشواك الأسلاك الشائكة، جسدها كان يميل بقوة ناحية جورج الذي مد يده أسفل إبطها واحتضنها قدر المستطاع في الوقت الذي بدأ فيه وقع أقدام رجال الشرطة يتزايد ويقترب منهم وهم في حالة استنفار أمني وتطويق للمكان، تسرع جورج متجاهلاً ألم قدمه ونزع زوجته من فوق الأسلاك والدماء تتجسد على بنطالها الأزرق، انتزعها تجاهه فوضعيتها كانت تميل إلى ذلك، سقطت على الأرض ولا تزال تأبى أن تصدر صوتا في الوقت الذي شعر فيه جورج باقتراب أحد رجال الشرطة، استرق النظر فوجد اثنين منهم قد وصلا إلى نهاية المساكن ضمن عملية الاستنفار الأمني قبل اقتحام المنزل، طلب من زوجته أن تركض لكن أخبرته أن جروح فخذيها تعيقها حتى عن المشي.

- 2 -

قبل ذلك بأيام.
ولاية نيو مكسيكو.

أول ما تلاحظه في ولاية نيو مكسيكو الأمريكية هي أراضيها الواسعة وسماءها العظيمة المفتوحة، بعد ذلك تلحظ الهدوء في كل شيء بسبب عدد سكانها القليل فتضع هذه الأشياء الولاية ضمن أكثر الولايات الأمريكية من حيث العزلة وبرغم ذلك فإن ما يحدث فيها قد يفوق ما تراه العين وتسمعه الأذن، هناك يمتزج الماضي الذي شهد صراعات ومعارك ضارية منذُ أن وضع رجال الأنجلوسكسونيون الأوروبيون أقدامهم على القارة وبحثوا عن جميع الوسائل لاستغلال كل ما فيها وحاولوا أن يطوعوا الكون من حولهم، فسعوا إلى ترقيق السكان الأصليين "الهنود الحمر" لكنهم فشلوا بسبب قوتهم وصلابتهم في البداية فاشتعلت الحروب بينهم وبين هذه القبائل لتحسم في النهاية لصالحهم بسبب التقدم التكنولوجي الفارق بينهم وبسبب دعم دول أوروبا وخاصة إسبانيا له، يمتزج هذا الماضي بالحاضر الذي يشهد الولاية في موجة حديثة قوية من الاسترقاق، فقد استعاض الرجل الأبيض عن الهنود الحمر بالزنوج الأفارقة وتحولت الولايات المتحدة الأمريكية إلى طبقات تُقوم على التفرقة العنصرية التي تفصل بين السادة والعبيد، ومرت السنين على تلك الشاكلة الظالمة، لم يخل الماضي المتوحش من تمرد بعض هؤلاء الزنوج الرافضين لحياة العبودية ولتلك الفلسفة البغيضة التي تقوم على أساس عنصري لا ريب فيه، فينتهي الأمر بهم

معاقبون بقطع الأطراف أو التعذيب أو القتل البشع ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه فعل ذلك.

هذه الموجة العنصرية لم تضرب الولاية وحدها بل كانت متفشية في جميع أنحاء البلاد، فكانت الأمور تُدار على تلك الشاكلة حتى الثورة الصناعية التي جعلت الزنوج يهربون إلى الجنوب ليتكتلوا فيه وليصبح لهم كيان قوي لكن سرعان ما منعهم الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن من هذا الشيء وحرمهم من كل الحقوق المدنية فبرزت الصراعات القوية بين الزنوج والبيض حتى جاء مارتن لوثر كينج وحاول جاهدًا الفصل في هذه المسألة، وبعد عناء طويل ومحاولات عديدة للاغتيال استطاع الحصول على بعض الحقوق للزنوج في الدولة لكنها كانت غير كافية، حتى تم اغتياله على يد أحد المتعصبين في أواخر الستينيات، وقد يعتقد البعض أن السود قد تغير حالهم بعد تلك الحقوق التي حصلوا عليها في عهد الزعيم مارتن لوثر كينج، لكن لم يتغير من وضعهم الكثير بل إن المستفيدين من الأساس هم السود الذين ينتمون للطبقة المتوسطة، لكن الفقراء ظلوا يعانون من العنصرية والفقر والبطالة!!وكلما ابتعد المكان عن العاصمة وعن الأماكن التي تتكتل فيها وتواجدت جمعياتهم الحقوقية كلما قل الاهتمام وزادت العنصرية.

مرت سنوات قليلة على اغتيال "مارتن لوثر كينج" في مدينة ممفيس ولا تزال تعيش الولايات المتحدة الأمريكية حالة من حالات الشغب التي تشتعل وتهدأ بين الحين والآخر بين أصحاب البشرة السمراء والبيضاء في جميع أنحاء البلاد رغم إقرار الرئيس الأمريكي ليندون جونسون قانون الحقوق المدنية والذي يضمن العدل والمساواة بين الأعراق والألوان والجنسين لكن هذا القانون كان بمثابة فتيل تم إشعاله ليعم الحقد والغل نفوس أصحاب البشرة البيضاء المتعصبين لجنسهم والذين يمقتون الزنوج ويتحاشونهم كأنهم الطاعون، انغلقوا على أنفسهم ونبذوا أصحاب البشرة السمراء معاندةً لهذا القانون فبات أصحاب المشاريع والمتاجر يرفضون العمالة من أصحاب البشرة السمراء، علاوة على أن بعض المقاطعات والولايات لم تلتزم بتنفيذ

القانون باعتباره قانونًا سيئا ولا يفيد الصالح العام لتتحول معظم شوارع الدولة إلى احتقان وحرب ضروس متبادلة بين الزنوج والبيض، هنا في بلد تمثال الحرية لا توجد أي حرية، فقط عنصرية واضحة كالشمس في كبد السماء، كل معالم الحياة تبرز هذا الجزء السيئ الذي يجري في دماء شريحة كبيرة حتى النخاع، فنرى مدارس خاصة بالزنوج وشوارع وأحياء كاملة، حتى دور العبادة التي هي في الأساس مكانًا يجتمع فيه كل أطياف وأعراق المجتمع أصبحت تبرز هذا الجانب السيئ فهناك كنائس للزنوج وكنائس خاصة بأصحاب البشرة البيضاء، الوضع يزداد سوءًا والتعصب يتزايد يومًا بعد يوم.

نعود إلى نيو مكسيكو، تلك الولاية التي تقع على الحدود الجنوبية للولايات المتحدة الأمريكية استوطنها على مر التاريخ التبشيريون والغزاة فامتزجت بها الثقافات، إنها الولاية الخادعة التي تبدو في ظاهرها هادئة وفي باطنها تشتعل العنصرية والصراعات، اليوم هو السبت نهاية أسبوع العمل، منتصف شهر يوليو حيث درجة حرارة الصيف الملتهبة التي تعم جو الولاية التي تقع في الجنوب، درجة الحرارة اليوم مرتفعة بشكل كبير مما جعل الأجواء مناسبة لتبرز قطرات العرق بكثافة على جسد ووجه جورج الذي يقف بثبات أمام حموة الفرن وسخونته التي تنبعث من داخِله لتتحد مع حرارة الجو فتذيب هذا المسكين الذي يرتدي ملابس خفيفة مُهلهلة تتكون عليها بقع كبيرة من العرق تتسع مع مرور الوقت لتكشف عن جسد هزيل ضعيف تستطيع أن تحصر ضلوعه من نظرة واحدة، تنكمش ملامحه وتضيق إحدى عينيه وهو يسعى لرؤية العجين داخل الفرن ليتأكد هل نضج أم لا يزال على شاكلته اللدنة التي تحتاج إلى دقائق إضافية ليصبح مخبوزًا صالحا للأكل، يقضي جورج ساعات طويلة هنا في ذلك المكان الحار أمام صهد الفرن ليتقاضى في نهاية الأسبوع مبلغا بخسا دولارات معدودة لا تكفي حاجته وحاجة أسرته، نقود لا تساوي حجم تلك الأشياء السيئة التي يجمعها رباط مقدس واحد لا يقوى أحد على قطعه، رباط مفتول يجمع بين الجهد والألم المبرح والحرارة العالية والإهانة في

معظم الأوقات، جورج ينفق من كرامته كثيرًا، فقط من أجل ألا يرى أسرته في عناء أو حاجة، يعمل جورج في إحدى المقاهي التي تقدم وجبات سريعة مع القهوة المغلية في الصباح وكذلك في المساء ويلجأ إليها بعض الزبائن في منتصف النهار ليتناولوا طعام الغذاء، موقع المقهى على إحدى الطرق الرئيسية داخل الولاية جعل الناس تحج إليه بشكل يومي وجعل منه مكانًا شاغرًا طوال الوقت، جورج هو الزنجي الوحيد الذي يعمل في هذا المقهى الآن لكن قبل ذلك بفترة ليست بكبيرة كان يقاسمه العمل صديق عمره ديفيد الذي كان يرافقه في كافة مراحل تعليمه وكان يسكن بالقرب منه، كان يعمل هنا في المقهى معه ولكنه لم يتحمل معاملة صاحب المقهى فبحث عن عمل آخر وترك المكان بعد عشرة طويلة تجمعه مع جورج الذي أضطر مالك المقهى المتعصب الذي يكره الزنوج ويصفهم بأنهم سيئو المنظر والطباع بالإبقاء عليه كونه الزنجي الوحيد القادر على تلك الأعمال التي يقوم بها، لأن الرجل الأبيض لا يقف أمام الفرن ليعد الخبز والشطائر ولا يقف ليطهُ الطعام أمام النيران، هذه الأعمال ومعها تنظيف المكان تخص الزنوج، يتعامل معه صاحب المقهى بسادية مفرطة حتى أنه يمنعه من الذهاب إلى دورة المياه إلا في الأوقات المخصصة لذلك وإلا انتقص من أجره، هو يشعر من داخله بأنه يمن عليه بالعمل على الرغم من الدولارات المعدودة التي يدفعها له في نهاية الأسبوع والتي تقل كثيرًا عن المبالغ التي يتقاضاها زملائه أصحاب البشرة البيضاء على الرغم من أن مهنتهم أقل خطورة ومجهودا، جورج على علم بذلك ويعلم أيضًا أنه يعمل لساعات طويلة تجعل حياته تتجرد بالكامل من كل متع الحياة، علاوة على النقود الشحيحة التي بالكاد تكفي حياته، لكنه غير قادر على الاعتراض حتى لا تصبح حياته كالحنظل إذا خسرها فإيجاد عمل لشخص زنجي ذي أصول أفريقية في غاية الصعوبة.

وصل جورج إلى منتصف عقده الثالث منذُ أسابيع قليلة جدًا، وتعتبر هذه مناسبة جيدة بالنسبة لأسرة صغيرة شحيحة السعادة والفرح، أعدت الزوجة العُدة وقرروا الاحتفال بهذا اليوم المختلف الذي لا يمتلكون أعظم منه لينشروا الفرح، لكن بمجرد

أن علم صاحب المقهى هذه المناسبة قرر إفساد اليوم عليهم بأفاعيله الخبيثة، انتظر حتى تبقى نصف ساعة فقط على موعد الانصراف ثم أعلن للجميع أن السيارة التي تنقل لهم الغذاء والمواد التي يحتاجونها قد تعطلت وعليهم الذهاب إلى هناك لنقلها، نزل القرار على جورج كالصاعقة وأخذ يُفكر كثيرًا فيما عليه فعله، أطفاله وزوجته في انتظاره من أجل الاحتفال الذي نادرًا ما يحدث، حاول جورج المراوغة وإيجاد حجة مناسبة ليُخبر بها صاحب المقهى وهو لا يعلم أن زملاء العمل قد أفشوا سره وأبلغوا به صاحب المقهى المتعصب الذي يكره الزنوج وينبذهم، بمجرد أن استمع إلى حجج جورج الفارغة بالنسبة له احتد بصره وأمتعض وجهه وماج لسانه وانبرى يتحدث مع جورج بنبرة صوت خشنة تجمع بين العجرفة والزهو أن في حالة اعتذاره عن الذهاب عليه البحث عن عمل آخر فما كان من جورج إلا أنه طأطأ رأسه في حسرة وذهب مع زملائه لإنجاز المهمة وسط وابل من كلمات السخرية التي ظلوا يرشقونها طوال ساعات العمل ليعود في منتصف الليل إلى منزله بقلبٍ مكسور حاملاً عددا قليلا من الدولارات التي سمحت بها نفس رب العمل والتي في الوقت ذاته تعزف لحنها الحزين بداخِله، حينما دخل إلى المنزل وجد زوجته قد تكومت على الأريكة الوحيدة التي تتوسط الصالة وعلى أكتافها نام أطفاله الصغار، شعر جورج بالخزي حينما وقعت عيناه على المنضدة ووجد عليها كعكة عيد الميلاد التي ظلت الزوجة تدخر ثمنها لوقت طويل.

نعود إلى جورج الذي يقف أمام الفرن يعمل بكامل طاقته وعيناه تتأرجحان بين العجين الموجود داخل الفرن ويده مشغولة في تقطيع بعض الخضروات لتصبح جاهزة، قدمه اليسرى تهتز بعشوائية لا يستطيع الإقلاع عنها وهو يشعر بذلك الشعور و يستمع إلى صِراخ مثانته وهي تطالبه بأن تفرغ ما بها من حِمل في المرحاض منذُ أكثر من نصف ساعة لكنه فضل التحمل وعدم الاستماع إليها حتى يحين وقت الراحة، حرك عينيه تجاه تلك الساعة العتيقة المُعلقة فأدرك أن هناك ساعة كاملة متبقية على موعد راحته الأولى، كم تحتاج عقارب الساعة من القوة لتتغلب على جاذبية

الوقت الثقيل وهل سيصمد جهازه البولي على هذه الساعة!؟المكان لا يدخله الزبائن الزنوج ودورة المياه ممنوعة على جورج فحينما يحتاج إلى قضاء حاجته في أوقات الراحة عليه الذهاب إلى حيث الأراضي الشاسعة التي تملأها الأشجار والحشائش ويقضي حاجته كأي حيوان في البرية، هكذا أخبره مالك المكان الذي تغلفه العنصرية من رأسه إلى أخمص قدميه، حاول جورج أن يتناسى هذه الأحاسيس التي تعتريه وأن يشتت نفسه عن ذلك الأمر المُلح الذي يتعاظم مع مرور الدقائق التي هي أثقل من الجبال عليه، تتحرك أقدامه بصورة أسرع وأقوى مع تزايد ذلك الإحساس السمج بداخله حتى بات لا يتحمل فإما أن يذهب لقضاء حاجته وإمَّا أن يضع نفسه في ناتج ذلك الموقف المُحرج الذي سيلتصق به وبذاكرته ما دام حيًا، سيتبول على نفسه في الوقت الذي أقلع فيه ابنه الأصغر على فعل ذلك، لن ينسى تلك الفاجعة ولن تخرج أبدًا من ذاكرته العميقة، لكن ماذا عليه أن يفعل، لو ترك هذا الكم من الشطائر في الفرن حتى يخرج ليتبول خارج المقهى لاحترقت، الشعور بالانزعاج أسفل البطن بدأ يتزايد ويرافقه شعور بانتفاخ المثانة، لم يعد يتحمل هذا الوضع مع مرور الوقت، رمق بعينيه المكان من حوله ونصفه السفلي بالكامل يتراقص بشكلٍ لا إرادي، تحرك بصعوبة ومد يده وهدأ نيران الفرن بعدما ألقى نظرة سريعة على ما في باطنه ثم ألقى نظرة أخرى على المكان ثم هرع إلى خارج المطبخ حيث رواق طويل في نهايته على اليمين دورة المياه الخاصة بالعاملين، تجاهل تلك اللافتة الموجودة على الباب والتي تحذر الزنوج القردة من الدخول، كتبها مالك المكان المتعصب، وقف جورج في الداخل يفرغ ذلك الحمل الزائد في الوقت الذي دلف فيه أحد زملائه إلى المطبخ وهو شخص سمج، مثالاً للسماجة، يضحك بسماجة، يأكل بسماجة، يتكلم بسماجة، دلف إلى المطبخ فلم يجده ارتفع حاجبه عجبًا وظل واقفًا في مكانه كالتمثال يبحث عنه قبل أن ترتطم برأسِه فكرة أنه قد ذهب لقضاء حاجته وترك العمل في وقت غير وقت راحته، انطلق كالقذيفة في الرواق ليبلغ مالك المكان بذلك لكن بمجرد أن اقترب من نهايته وجد جورج يخرج من دورة المياه!!اتسعت عيناه وظل ينظر إلى جورج وهو

يخرج من المكان حتى تقابلت أعينهما فتوقع جورج أنه مُقبل على ما لا يمكن تخيله، كل شيء صار يوحي بالتوتر وهذا السمج المتعصب لن يفوت فرصة كهذه يشعر فيها بالقوة فصرخ في وجهه وتعمد أن يرتفع صوته بالحد الذي يجلب الانتباه.

- ألم تعلم أن هذا المكان محرم على أمثالك من القردة!!؟

الكلام وقعه أليم وقاسٍ لكن جورج فضل السكوت وعدم الرد كونه على علم بأنه أخطأ، طأطأ رأسه وانسحب بهدوء تجاه المطبخ ليتابع عمله فسارع ذلك السمج وأمسكه من ملابسه وسحبه تجاهه.

- كيف تجرؤ على تركي وأنا أتحدث إليك أيها القرد الناطق.

قال جملته وهو يضربه على رأسه.

- من فضلك اتركني أذهب إلى عملي حتى لا تحترق الشطائر في الفرن.

- وأين كانت هذه الحيوية والاهتمام بالعمل وأنت تتركها في الفرن تحترق وتذهب لتقضى حاجتك، ومن الذي سمح لك باستخدام دورة المياه الآدمية.

- كنت مضطرا لذلك حتى لا أضيع الكثير من الوقت، أنا أعتذر.

قالها جورج وهم بالانصراف فأمسك به السمج مرة أخرى ومنعه من ذلك.

- إياك أن تنصرف وأنا أتحدث إليك ثانيةً.

- بهذه الطريقة ستحترق الشطائر!!

- لا يعنيني هذا!!أنت أخطأت خطأً شنيعا أيها القرد الناطق، أنت دلفت إلى دورة المياه الآدمية وهذا غير مصرح به لأمثالك.

- أنا أعتذر لذلك.

هم جورج بالانصراف فأمسك به للمرة الثالثة.

- أخبرتك ألا تنصرف وأنا أتحدث إليك ألا تفهم حديثي.

- ماذا تريد؟؟

- سوف أذهب إلى مالك المكان وسأخبره بفعلتك التي فعلتها.

- افعل ما شئت.

- يبدو أنك لا تهابه ولا تحترمه أيضًا.

لم يجبه جورج وهم بالانصراف فدفعه ذلك السمج بالقوة هذه المرة، لم يكن لجورج أي رد فعل وهم يتحرك إلى مكان عمله فضربه ذلك السمج على مؤخرة رأسه بقوة كبيرة ثم أمسك ملابسه ومنعه من الحركة، بدأ يتوتر وشعر أن الشطائر ستحترق وربما يخسر عمله، لم يتمالك نفسه إلا و هو يضربه بقبضة يده في أنفه فانفجرت منها الدماء ثم ركض حتى وصل إلى المطبخ خاصةً حينما بدأت تلتقط أنفه رائحة الحريق، وجد أدخنة تخرج من الفرن فأدرك أن الشطائر تحترق، من دون تفكير ركض تجاهها وبدأ يخرجها من الفرن لكنها أبت أن تخرج قبل أن تترك آثارًا لها على يد جورج مما أضطره لغسلها سريعًا تحت الماء البارد حتى لا تنتفخ على أثر تلك الحرارة العالية، عُبئ المكان بدخان ثقيل ذو رائحة نفاذة منبعثة نتيجة احتراق أسفل الشطائر، جورج بات في موقفٍ صعب ولا يدرك ماذا عليه أن يفعل، فقد أعصابه وكذلك تركيزه حتى أن بعض الأشياء بدأت تتساقط منه وهو يحملها، آثار تلك الصدمات تتجسد على وجهه حتى هبط عليه مالك المكان ومعه اثنين من العاملين بصحبة الشاب السمج الذي لكمه جورج في أنفه، طافوا بعيونهم داخل المكان فرأوا الشطائر التي احترقت والتقطت أُنوفهم الدخان، هناك أشياء قد سقطت على الأرض، نظر مالك المكان إلى جورج تلك النظرة القوية التي تسبب الخوف والغثيان معًا.

- هل استخدمت دورة المياه الخاصة بالعاملين؟؟

طأطأ رأسه ونظر إلى ما بين حذاءه مترهل الأطراف، كان مالك المكان مشحونا بالكراهية حتى أنه يحتاج إلى طاقة كبيرة حتى يخرج الكلمة إلى جورج.

- أنا لم أستمع إلى إجابة على سؤالي السابق.

نظر جورج إليه وإلى ذلك العامل الذي لكمه في أنفه فانفجرت الدماء وسقطت

على ملابسه فصبغتها والذي ينظر إليه بعينين مفتوحتين تنضحان انتقاما وشراسة، كان كأنه يتوعده ويقذف في قلبه الرعب من دون أن يتحدث إليه، لم يكن جورج يملك خيارًا سوى أن يعترف.

- نعم، لقد دلفت إلى دورة المياه.

أشار ذلك الذي لكمه جورج بيده تجاهه ناظرًا إلى مالك المكان كأنه يُخبره ويؤكد له أن كلامه كان صحيحا.

- ألم أخبرك بأن هذا المكان ممنوع على أمثالك، ألم أضع لافتة على الباب تمنع أمثالك من الدخول.

- أعلم ولكني كنت أريد أن أدرك الشطائر قبل أن تحترق.

- تقصد تلك الشطائر التي تفحمت حتى اسود لونها.

أشار جورج تجاه صاحب الأنف المُصاب وأخبره بأنه هو من حاول تعطيله ولولا ذلك لحقق ما أراد.

- هذه كلها أمور طفوليه لا شأن لي بها، ستحاسب اليوم على نصف الأجر فقط نظير عمل الأسبوع الماضي، أمَّا النصف الآخر فهو مخصوم منك بسبب سوء تصرفك وسلوكك.

نصف الأجر!!الأجر كاملاً لا يكفي حاجة أسرتي فما حال نصف الأجر!!في الوقت نفسه ابنته تنتظر في البيت عودة أبيها الذي وعدها بذلك الفستان الجديد الذي ستذهب به غدًا احتفال الكنيسة، هي ضمن فريق الكورال الذي يغني وكل ما تريده هو فستان جديد لتقف به على المسرح، كافة هذه الأشياء تكالبت على رأسِه وهو لا يدرك ماذا عليه أن يفعل، نظر إلى مالك المكان وكان على وجهه علامات الرجاء اليائسة يحاول أن يستعطفه ليحيد عن هذا القرار الذي كان بمثابة قاصمة ظهر له لكن هيهات لمالك المكان أن يفعل، لن يتبدل قلبه ولا مكان للرحمة أو الإنسانية فيه، سدد له نظرة أخيرة ثم طلب منه أن يستكمل عمله على أكمل وجه حتى لا يتم

خصم النصف الآخر، ولى له ظهره وخرج هو ومن معه لكن ظل ذلك الشخص صاحب الأنف المُصاب ينظر إليه متوعدًا إياه ثم تبع الباقين، خرجوا جميعًا وتركوا جورج يسقط وحيدًا في تلك الأحاسيس والمشاعر التي لا توصف، ليس من تعريف لخيبة الأمل أكثر مما هو فيه، كان يحاول أن يبتلع الصدمة لكنها كانت جامدة وجارحة بالشكل الذي جعله كاليتيم الذي أُعيد إلى ميتمه بأسمالٍ بالية، كاد طنين المستقبل المظلم يتصاعد في أذنه وهو قادم من غور سحيق يخبره بأنه سيقضي أسبوعًا كاملاً بنصف الأجر الذي بكل تأكيد لن يكفي حاجة أسرته، ألقى عليه المستقبل المظلم أعباءً إضافية وأخبره بأن ابنته ستذهب غدًا إلى حفلة الكنيسة مكسورة الخاطر، لن ترتدي الفستان الجديد الذي وعدها به والدها، جلس جورج على ركبتيه بصحبة حزنه وأمله الكبير الذي تخطى ألم حوت أزرق وحيد في باطن المحيط الأطلسي، أسند رأسه على الحائط وأراح رأسه وراح يبكي في صمت، فالدموع قد تحجرت في عينيه من كثرة الظلم الذي يعيش فيه لمجرد أنه زنجي داكن البشرة، في السابق كان إنسانا صبورا لا يرى منه الجميع سوى قلبًا ثابتًا ووجهًا باسمًا، لكن كثرة الظلم واستفحاله جعل منه شخصًا باهتًا أكل منه الاستبداد حتى شبع وهو يركض في حياته ورافقه ظل الحزن الشديد وعلى جانبيه وديان مظلمة غامقة كئيبة، يجاهد هو ومن على شاكلته للخروج من شرنقة الظلم لكن كلما أشرفوا على الخروج قابلهم الرجل الأبيض بظلمِه فيجبرهم على التبرعم في روضة الأسى التي يحيون بداخلها، نهض جورج حاملاً تلك الأحاسيس والمشاعر السيئة عائدًا إلى عمله حتى لا يفقد ما تبقى له من نقود إذا عاد مالك المكان، عاد إلى عمله مكسور الخاطر، مهيض الجناح، مشغولا بالهموم والأتراح، كان يتحمل وصفه بالقرد والقذر، كان يتحمل وزملاءه يتحاشونه، هو كان يستمع إلى قصة الكونغولي الزنجي otabenga الذي وضعوه في حديقة حيوان بجوار القرد ليشاهده الزوار، كان جورج يستمع إلى تلك القصة وإلى قصص كثيرة لزنوج آخرين عاشوا منبوذين وانتهت بهم الحياة في حديقة للحيوان داخل أقفاص لكنه لم يشعر

بإحساسهم، لم يشعر بإحساسهم، لم يعرف كيف كانت تشعر قلوبهم، الآن هو أدرك كم أن العبودية شيء قاسٍ، لم يتوقف مالك المكان عند هذا الحد بل طالبه بتنظيف الحمام جيدًا عقابًا له على استخدامه وفي نهاية اليوم أعطى له نصف أجره فأخذه منه وعلى وجهه أمارات اليأس لكن في الوقت نفسه كان مالك المكان يتلذذ بذلك.

خرج جورج بعدما أنهى عمله وقد اتخذ قرارا بأن يذهب إلى المدينة حيث السوق لعله يستطيع أن يبتاع فستانا لطفلته بمبلغ زهيد يتناسب مع ما تبقى من راتبه، عليه أن يستقل حافلة ليذهب بها إلى هناك، مصاريف إضافية سوف تضاف إليه، لم يتجه إلى البيت واتجه إلى موقف الحافلات وهناك صعد إلى الحافلة لكنه سرعان ما نزل منها، هو يعاني من الإجهاد والتعب الجسدي ولن يتحمل الوقوف حتى تصل الحافلة إلى المدينة ليبدأ رحلة شاقة أخرى من البحث عن فستان يتناسب مع ما تبقى من راتبه، غادر الحافلة بالرغم من أن بها أماكن فارغة لكنها ليست للزنوج، ففي هذه الفترة الزمنية كانت هناك أماكن مخصصة للزنوج داخل الحافلات بالولايات المتحدة الأمريكية بلد تمثال الحرية!!ترك تلك الحافلة وصعد إلى تلك التي تليها، سيكلفه ذلك نصف ساعة إضافية لكنه كان يحتاج إلى الراحة أكثر مما يحتاج إلى الوقت، كان يريد الوقت أن يمر دون أن يشعر به فأخذ يقلب في شريط ذكرياته الماضية التي كان يشاطره معظمها صديقه ديفيد الذي قضى معه سنين الطفولة والمراهقة حتى أنهما كان بينهما أسرار لم تعرفها أسرة كل منهما، كان يجمعهما حب وود وتفاهم، حتى أنهما كانا إذا أرادا أن يتركا لبعض رسالة نصية ولا يريدا أن يوقعا عليه يقومان بعمل رسمة معينة إذا رآها أحدهما يدرك بشكل أوتوماتيكي أن الآخر هو من تركها، ظل يتذكر جورج كل ما جمعه بديفيد حتى مرت الدقائق الثقيلة وامتلأت الشاحنة عن آخرها، كان معظم من استقلوا الشاحنة يتحاشون جورج وأمثاله، تزدريهم أعينهم بتلك النظرات التي تنضح بالاشمئزاز، لكن قد اعتاد جورج على ذلك فحاول أن يشغل انتباهه بشيء آخر حتى ارتفع صوت سيدة قبل

أن تغادر الحافلة المحطة بثوانٍ، إنها سيدة وجدت امرأة كبيرة ومسنة من داكني البشرة قد جلست في الأماكن المخصصة لأصحاب البشرة البيضاء، لم تتفاهم معها ولم تعط لها فرصةً للنقاش فقط وبختها ونهرتها بأقذر الألفاظ وحينما حاولت أن تشرح لها ما حدث صفعتها على وجهها بقوة، لم تأخذ في الاعتبار عمرها الذي بلغ أقصاه ولا ظهرها الذي انحنى وتقوس وقدمها التي لم تعد تتحمل الوقوف، في ثوانٍ جاء مسئول الحافلة وطلب من السيدة سرعة النزول، أخبرها بعجرفة عالية بأنه سيبلغ الشرطة إذا لم تستمع للأمر، الجميع يعرف أن الشِريف الموجود في هذه المقاطعة يكره الزنوج ويمقتهم، وقفت السيدة التي صفعت من دون كلام وبدأت بالاتجاه إلى باب النزول الخلفي حيث مقاعد الزنوج في نهاية الحافلة وما أن وصلت حتى نهض جورج وطلب منها أن تأتي وتجلس مكانه على الرغم من أنه لا يمتلك الطاقة التي تعينه على ذلك، رأى في عيون تلك العجوز الدموع قد تجمدت، سُلبت منها كرامتها ولم تقدر على استردادها، طلب منها جورج أن تجلس فشكرته بملامحها الحزينة فقد توقفت الكلمات في فمها وشعرت بالعجز، أيام الأسبوع كاملة على الكرسي، تكومت بالشكل الذي أوحى لجورج أنه كان أسبوعًا علقمًا على هذه السيدة الزنجية التي لم تعد عظامها تتحمل الوقوف، أسندت رأسها على زجاج النافذة فبدت كما لو أن ألف سنة من الهموم قد شكلت تجاعيد وجهها في تلك اللحظة وراحت تلك الهموم تتزايد كلما تذكرت أنها صُفعت ولم تستطع أن ترد جزءً من كرامتها، ولو ذهبت للقسم فلن ينصفها أحد، كانت سارحة يبدو عليها أنها لا ترى ولا تسمع سوى تلك الصفعة التي راحت تعاد مرارًا وتكرارًا عليها، لكن لم يدرك أحد أنها تشعر بحسرة تنخر في قلبها المريض وجسدها الذي لم يعد يتحمل أكثر من ذلك، قطعت الحافلة مسافة طويلة، إشارات مرور، صعود وهبوط، إسراع وإبطاء، توقف أحيانًا، ترافقهم الأشجار على يمينهم وعلى يسارهم الحياة كما هي هادئة ولا أحد يشعر بتلك المسكينة التي رأى جورج دموعها بعينيه في بداية الرحلة لكنها لم تتحرك حتى وصلت الحافلة إلى

الموقف حيث نزول الركاب، بدأ الجميع بالتحرك وهموا بالنزول، أصحاب البشرة البيضاء ينزلون من مقدمة الحافلة أمَّا الزنوج فمن الباب الخلفي، وجد جورج أن جميع الركاب قد تركوا أماكنهم عدا تلك السيدة التي صُفعت لم تتحرك، ظن جورج بأنها قد نامت بسبب ما تحمله من أعباء جسدية ونفسية، ذهب إليها يهز كتفها لكنه اكتشف أنها فارقت الحياة!!لم يتحمل قلبها الإهانة المفرطة فماتت قهرًا وغلبًا.

- 3 -

نعود إلى جورج الذي استمع إلى وقع أقدام رجال الشرطة وهم يتقدمون تجاههم في حالة الاستنفار الأمني، شملت جورج حالة من الارتباك وأخذ يفكر سريعًا فيما ينبغي عليه فعله، أخذ يتلفت حوله حتى اهتدى إلى تلك الفكرة التي لم يجد بديلاً سواها، سوف يركض باتجاه تلك المباني التي يُخزن بها القش والذرة، سوف يختبئ في أحد تلك المباني حتى تمر العاصفة فرجال الشرطة على شفا الظهور، التقت عينه بعين ماري ابنته فأخبرها من دون كلام أن تلتزم الهدوء حتى يعود إليها، أومأت له وأخوها في أحضانها يبكي على ما أصاب أمه، وضع جورج كتفيه أسفل إبط الزوجة ولف ذراعه جيدًا حول خصرها وهم يركض في ذلك الطريق الموازي للسور الشائك، جورج يعاني من ألم شديد في ساقِه بسبب فخذه المتورم لكن عليه أن يتحامل ويركض بصحبة ذلك الألم وتلك العرجة الواضحة وضوح الشمس في كبد السماء، أخذت ماري أخاها وغاصت قليلاً داخل الحقل حتى أخفتهما سنابل القمح الطويلة، جورج كان يتجاهل صراخ عظامه ويتحامل على نفسه ليصل إلى أقصى سرعة قد تمده بها طاقته ليختبئ قبل ظهور رجال الشرطة الذين باتوا ينتشرون في كل مكان في الوقت الذي وصلت فيه السيارة التي تحمل بداخلها الشرِيف الذي يمقت الزنوج ويكرههم أشد الكره، فُتح الباب وراح يدب الأرض بحذائِه المرعب الذي لا يختلف كثيرًا عن هيئته التي يميزها ذلك الجرح القديم الظاهر بقوة أعلى رقبته من الجانب الأيمن، هبط من السيارة وهو يحمل في يديه عصا غليظة، يرتدي تلك القبعة التي تشبه قبعات رعاة

البقر في الأفلام السينمائية، يوزع النظرات الصارمة على المنازل التي أنارت جميعها واستيقظ أهلها على تلك الضوضاء التي صنعتها صفارات سياراتهم، رجاله ينطلقون كالذئاب الجائعة يتجمعون أمام منزل جورج وسط مشاهدة جماعية من جيرانه والخوف يسكن كل ركن في كيانهم، لا يدري أيًا منهم ماذا حدث، هم على علم بأن جورج رهن الاعتقال بسبب ما صدر منه تجاه المكان الذي يعمل فيه ولكن ظل الجميع يتسأل لماذا أتت الشرطة كلها إلى هنا؟؟!! ضاقت عين الشرِيف في خبثٍ مُبين وهو يفكر بماذا عليه أن يبدأ.

جورج لا يزال يركض وهو يحمل زوجته المصابة التي تهتك لحم فخذيها، يقطعون الطريق متخفيين خلف الأشجار حتى وصلوا إلى سور خشبي صغير يمكن اجتيازه بسهولة شديدة، حكم جورج ذراعه حول خصرها ثم شحن طاقته وهيأ نفسه قبل أن يهم برفعها، ساعدته الزوجة وتشبثت بالسور بقدميها وعبرته بسهولة شديدة، لحق بها جورج ليجدوا أنفسهم داخل إحدى المزارع القريبة من منزلهما لكن المزرعة كانت خاوية فقد حصد أصحابها محصول الذرة وباتت الأرض فارغة بلا زرع، لم يهتم جورج لهذه الأمور، فقط بدأ يعدو تلك المسافة القصيرة التي تفصله عن ذلك المبنى الذي يتكون من طابقين ويستخدم لتخزين المحصول بعد حصاده، هو ليس المبنى الوحيد، هناك مبنى آخر يبعد عنه مسافة صغيرة يربط بينهما سير من الكاوتش لنقل حبات الذرة بعد فرطها تمهيدًا لتغليفها، تجول جورج بعينيه بين المبنيين فاختار أكثرهما وقارا وهيبة، اختار المبنى الذي يتم فيه التغليف والذي ينتهي عنده السير، ركض بتلك الوضعية الفاضحة لما يعانيه من إصابات هو وزوجته حتى إذا وصلا إلى الباب اكتشفا أنه محكم الغلق، دفعه جورج وحاول أن يعالجه لكن أصر الباب على موقفه في عندٍ وثبات، حاول جورج البحث عن وسيلة أخرى للدخول فلم يجد، كل النوافذ والباب محكمي الغلق إلا تلك الفتحة الصغيرة التي يدخل منها السير المائل والتي تقع على ارتفاع كبير يصعب الوصول إليه، لا حل سوى الذهاب إلى المبنى

الثاني بأسرع وقت، هرع إلى هناك حتى وصل إلى البوابة فوجدها مكونة من عدد من السيقان الحديدية المرصوصة بجوار بعضها البعض، يرتفع عن الأرض مسافة تسمح بمرور شخص نحيف من أسفلها إذا زحف، جثا على ركبتيه وراح يفكر ثم أمر زوجته بالعبور من أسفل الباب سريعًا فاستمعت لأمرِه وافترشت الأرض وهي تشعر بذلك الألم الشاق الذي ينشر في فخذيها كما تنشر الآلة المُسننة في الخشب، افترشت الأرض ثم شرعت تزحف ببطء لتعبر بجسدها من خلال تلك الفتحة التي بين البوابة والأرض، حاولت ضغط نفسها بصعوبة شديدة والجرح لا يزال يُخرج الدماء، أعاقتها مؤخرتها اللحيمة وحجم فخذيها الكبير الذي يميز جسم النساء الزنوج مما دفع جورج ليزج بها حتى استطاعت العبور، استعادت توازنها ليأت دور جورج الذي ينظر إليها والبوابة تَحول بينهما.

- أريد منكِ أن تختبئي في مكانٍ آمن ولا تُصدري أي صوت حتى أعود.

نظرت له الزوجة وأدركت أنه سيعود إلى أطفالهما حتى لا يتركهم فرادا، أومأت له برأسها ثم سألته لماذا لم يلجئوا إلى ذلك المكان من البداية، لماذا خاطروا وعرضوا أنفسهم للأخطار فأجابها جورج باقتضاب.

- هذا مكان سهل الوصول إليه لأن صاحب هذه المزرعة معروف بحلمه أمَّا الأخرى فصاحبها متشدد للغاية فلن نجرؤعلى اقتحام مزرعته هكذا سيفكر رجال الشرطة.

أومأت له مرة أخرى والتعب الشديد يتجسد على ملامحها فأخبرها جورج سريعًا بأنه يتوقع وصول رجال الشرطة إلى هنا فعليها أن تختار مكانا مناسبا للاختباء حتى يعود إليها أو تتضح لهم زاوية أخرى يمكن من خلالها الهروب، نظرت إليه وأجابته بعينيها ثم رسمت بيدها على جسدها الصليب كأنها تدعو له أن يحفظه الرب، هز جورج رأسه ثم انطلق عائدًا إلى أطفاله.

نظرت الزوجة حولها مُحاولة استكشاف المكان المظلم فوجدت ماكينة كبيرة تستخدم لفرم سيلاج الذرة، أكوام كبيرة من ركام السيلاج المفروم والذي لم يتم فرمه تغطي مساحات كبيرة جدًا في المكان، التفتت الزوجة حولها تبحث عن أكثر الأماكن التي يتواجد بها إضاءة فلم تجد سوى بالقرب من البوابة حيث الضوء الخارجي، بهدوء بدأت تفك أزرار البنطال والقلق يغزو قلبها رغمًا عنها، تسحب البنطال بهدوء وهي تشعر بذلك الألم الشنيع، هناك بقع من الدماء تكسو جلدها لكن لن تستطيع رؤية أي شيء بتلك الوضعية الصعبة فجلست وبدأت تزيل الدماء ببنطالها، تجففه من على جلدها لتتعرف على الجروح المطمورة أسفلها، أنها جروح صنعها السلك الشائك في مناطق متفرقة من الفخذين، الإضاءة شحيحة لا تساعد على الروية لكن ما تمكنت من رؤيته كان مريعًا، الجلد تمزق في مواضع متفرقة وحُفر للداخل بالقدر الذي يسبب ألما كافيا، مدت يدها مترددة وراحت تتحسسه بخوف فأصابها ألم فظيع بمجرد أن داعبته، علاوة على أن قطرات جديدة من الدماء قد برزت لكنها تجاهلت ذلك وأخذت تزيل قطرات الدماء قدر المستطاع باستخدام بنطالها وهي تتلفت حولها وتفكر ماذا عليها أن تفعل، انتظرت حتى انتهت تمامًا من تنظيف الدماء ثم ارتدت بنطالها بصحبة الألم الشنيع الذي كان يفتك بها وقماش الملابس ينكأ جروحها أثناء مروره عليها، كان صعبا للغاية لكن لا بديل عن ذلك، حكمت الزر وانتصب جسدها بصعوبة وبدأت تتحرك في المكان لتدرك كل شيء فيه حتى إذا جاء أحدهما تدرك كيف تختبئ،اقتربت من ماكينة فرم السيلاج لتستكشف المكان حولها لكن تأتي دائمًا الرياح بما لا تشتهي السفن، اصطدم تقدمها الضريرة بزر تشغيل الماكينة فارتفع صوتها المزعج وأخذ أزيز الماكينة واهتزازها الشديد يسري كالرعد في أذنها فهمت تضغط على الزر لكن لم يستجب لها، توترت أعصابها وشعرت بذلك الهياج العام الذي أحاط بها، أخذت تبحث كالمجنونة في كل ركن من أركان المكان عن زر الكهرباء، عثرت الزوجة على لوحة مفتاح الكهرباء التي كانت قريبة من الباب فضغطت على

الأزرار كلها كالمخبولة ولسوء حظها ضغطت على الأزرار المخصصة للإضاءة فأنارت المكان بأكمله، الضوء والضوضاء الصادرة من الماكينة تشي بمكانها فما كان منها إلا أنها خلعت الحذاء وراحت تضرب بنعله اللوحة حتى انقطع التيار الكهربائي عن المكان وتوقفت الماكينة، لسوء حظ زوجته وصل الصوت والضوء إلى ضابط كان يقف بالقرب من هناك قدرًا، تحديدًا عند نهاية منازل الزنوج فتمكن من رؤية الضوء وسماع الأزيز فظهر على وجهه شبح ابتسامة مخيفه وتأكد أن العائلة تختبئ في ذلك المكان، نظر حوله فلم يجد أحدا من زملائه فقرر الذهاب وحيدًا للقبض عليهم طمعًا في تكريم يليق به منفردًا بعد القبض عليهم، هذا الضابط يعاني من السخرية الدائمة من زملائه الذين يعتبرونه فاشلا ويصفونه دائمًا بذلك، أراد أن يتميز بشيء ليبدد عن أذهانهم تلك الفكرة!!

رجال الشرطة يخرجون من منزل جورج شبه الخالي تقريبًا إلا من بعض الأثاث المتهالك الذي لم يصمد طويلاً أمام بحث رجال الشرطة فانهار بالكامل أمام العنف المبالغ فيه الذي تعمد معظمهم التعامل به، في الوقت الذي كان جورج قد اقترب فيه من منازل الزنوج أثناء رحلة العودة إلى أبنائه، اقترب قدر المستطاع من الحدث ليُدرك ما يحدث وما يخطط له هؤلاء، بوضع القرفصاء ظل يقترب وهو يتلفت برأسِه يمينًا ويسارًا ليتأكد أن لا أحد يتابعه، أبصر جورج عن جُنبٍ هؤلاء وهم يخرجون من منزله بكفي حنين ثم اتجه واحدٌ منهم إلى الشريف الذي كان يقف متحفزًا ينتظر نتيجة البحث، وقف بجوارِه وراح يسكب النتائج في أذنه فامتعض وجهه وانكمشت ملامحه تكرهًا عندما علم أن عائلة جورج ليست هناك بأكملها، برهن ذلك الثعلب أنه أتى إلى هنا وأخذهم وهرب، هو كان واثقًا بأنه لم يبتعد، الجيران بدأوا يخرجون من منازلهم فور وصول رجال الشرطة بصحبة صافرات سياراتهم المزعجة، وقفوا جميعًا بصحبة خوفهم يشاهدون ما يحدث ولا يدرك أي منهم ما حدث، هم يعلمون أن جورج قيد الاعتقال لكن لا يدرك أيًا منهم ما قد جد، الشريف يتجول بعينيه في

كل الحاضرين من الزنوج المنبوذين منه ومن معظم طبقات المجتمع، يشعر الشرِيف بالإهانة الشديدة بسبب ذلك الموقف المحرج الذي وضعه فيه جورج أمام كل طاقم الشرطة فتضخم بداخلِه ذلك الشعور بالسيطرة وأراد أن يؤكد في ذوات الجميع أنه على أي شيء قدير وأن سلطانه لا حدود له ولا غاية لمنتهاه مهما حدث، أراد أن يثبت لرجاله بأنه لا يزال كما هو، حركته تلك الأحاسيس ودفعته ليكون انتقامه انتقاما شديدا فأخذ مكبر الصوت الذي كان في سيارته وبدأ يتحدث بنبرة صوت حادة تنُمُ عن أن القادم سيكون أسوأ بكثير.

- أنتم لا تحتاجون لأن أخبركم من أنا وما أستطيع أن أفعله، كل شخص يستمع إلي الآن رأي مني أو سمع عني على أقل تقدير ما يجعل الشعر يشيب، لذلك أريدكم أن تتعاونوا مع رجالي حتى لا أحول هذا الحي الأسود إلى فوهة من فوهات الجحيم، جاركم الزنجي جورج قتل أحد رجالي أثناء محاولة هروبه من قسم الشرطة ولم يكتف بذلك بل سرق واقتحم غرفة الأحراز، والآن هرب بصحبة عائلته لكني على يقين بأنه لم يبتعد عن هنا وأنه يختبئ في منزل من منازلكم لذلك أريد ممن يتستر على هذا المجرم أن يقلع عن ذلك حتى لا يصيبه من الجام الذي سوف يصب على هذا الحقير قبل أن أقيده بنفسي على الكرسي الكهربي ليُعدم.

وصل الكلام إلى أذن جورج فارتعد جسده الهش خوفًا على إثره، هو يدرك جيدًا الاحتقان الذي يشعر به هذا الشريف الظالم الكاره للزنوج أشد الكره، لكن لا شيء بيده من الممكن أن يقدمه لنفسِه، لا يملك سوى الهرب، استجمع قواه وشرع بالذهاب إلى أطفاله المختبئين في مزرعة السيد نيكولاس، ظل الشرِيف ينتظر ردة فعل على تلك التهديدات التي ألقاها على الجميع فلم يجد منهم شيئا يذكر، فقط استمر الجميع في تسمره يحدقون فيه بعيونهم البيضاء الواسعة الظاهرة بقوة على وجوههم السوداء اللامعة، أخرج الشرِيف لفافة تبغ عملاقة، أشعلها ثم زفر دخانها

الكثيف بقوة وعقله يفكر فيما عليه فعله، تحدث إلى الجميع بصوتٍ أشد قسوة من سابقه.

- أرى أن جميعكم تصرون على موقفكم الخاطئ مما يستدعى رد فعل عنيف من رجالي.

خرج أحد الواقفين عن صمته وقرر أن يُخرج ذلك الاحتباس الذي يعاني منه منذُ وقت طويل.

- أنا جار جورج منذُ سنوات وأعلم أنه شخص طيب لا يؤذي أحدا ومن المستحيل أن يقتل، وإن حدث ذلك فستكون أنت ورجالك السبب، بالتأكيد أنتم وضعتم على كاهله ذلك الحمل الذي دفعه لقتل أحدكم، كما وضع عليه صاحب المقهى ما جعله يفعل ذلك، كلنا نعلم أن جورج يملك قلبا طيبا ولا يمكن أن يفعل ذلك إلا وهو تحت ضغط.

لا يعلم الشرِيف من أين أتى بهذه الجرأة ليتحدث معه بتلك الكلمات وبهذه الطريقة التي إذا فكر قليلاً قبل الحديث لأعرض عنها وعن فكرة الكلام من الأساس، إنه تعدى على كرامة الشرِيف الجليلة التي لا يقبل أن يمسها شخص عادي فما الحال لو كان زنجيا!!أدرك أن ما فعله جورج قد فتح الباب لهؤلاء الحثالة بالتجرؤ على ذلك، أدرك أن عليه أن يردع ذلك الشخص حتى لا يتجرأ آخر عليه وحتى لايفقد هيبته وسط طاقم عمله، امتعض وجهه وظهرت عليه آثار ذلك الكلام، أراد تبديد ذلك فرسم ابتسامة صفراء خبيثة على وجهه، ابتسامة مرعبة أكثر من أي شيء آخر، سحب كمية من الدخان ملأ بها صدره قبل أن يترجل بهدوء تجاه ذلك المتحدث، وقف أمامه وظل ينظر له بعينيه القويتان وبملامحه المرعبة وذلك الأسمر يجاهد حتى لا يظهر الخوف على ملامحه لكن الموقف كان أكبر بكثير من ذلك، زفر الشريف الدخان في وجهه بقوة، أشاح الرجل الأسود عينيه بعيدًا عن وجه الشريف الجامد فابتسم بسادية ثم طلب منه أن ينظر إليه، كان ذلك الأسود يرتعد وهو يدفع ثمن تلك الدفعة المعنوية التي جعلته بين فكي الشرِيف.

- أخبرتك أن تنظر في وجهي وأنا انظر إليك.

رفع ذلك الزنجي رأسه قليلاً ونظر في وجه الشريف قاسي الملامح فوجد تلك الابتسامة المخيفة والخبيثة قبل أن يسأله ما عمله فأجابه الزنجي بنبرة صوت هادئة بأنه مزارع يعمل في مزرعة قريبة من هنا.

- هل يختبئ جورج في منزلك؟؟

- بالتأكيد لا، أنا لم أر جورج منذُ أن كان في الكنيسة يوم الأحد وكان تبدو عليه السعادة.

- هذا جيد ولكن علي أن أتأكد من ذلك بنفسي.

أمر رجاله أن يفتشوا المنزل جيدًا وألا يتركوا شبرًا واحدًا إلا وبحثوا فيه من أجل زميلهم الذي قتل فتقدم رجال الشرطة وبدأوا يدخلون إلى المنزل وهم يتعمدون أن يصدموا أكتافهم بقوة في جسد ذلك المسكين الذي يقف على الباب بصحبة الخوف وأسرته تتكوم على بعضها البعض بجواره، استمعوا فجأة إلى صوت تكسير فأدرك أنهم لا يبحثون عن جورج بل إنهم يتعمدون تخريب المنزل وتكسير الأثاث الشحيح فما كان من ذلك الزنجي إلا أنه ركض إلى الداخل وحاول منعهم من ذلك، لم يتحرك الشريف بل ظل يُدخن لفافة التبغ ويبتسم تلك الابتسامات التي يبدد بها فكرة الضيق والتوتر الذي يستحوذ عليه، هو يشعر من داخله ببركان يغلي لكن أراد أن يحتفظ بهيبته قدر المستطاع، أدرك أن هذا الفقير قد دخل إلى الفخ الذي نصبه له، ولى للمنزل ظهره واتجه إلى تلك المنطقة الواسعة التي تتوسط المنازل، وقف وقدمه تصنع زاوية حادة ويده اليسرى موضوعة في خصره أمَّا الأخرى فيدخن بها لفافة التبغ، هو لايريد القبض على جورج بقدر ما يريد أن يظل هؤلاء يرتعدون منه ويهابونه، ازداد بكاء أطفاله وعويلهم حينما استمعوا إلى صراخ أبيهم وهو يُضرب ضربًا مبرحًا من رجال الشرطة وهو يمنعهم من تخريب المنزل، انهالوا على عظامه الضعيفة بالضربات

المتتالية فلم يتحمل المقاومة وسقط على الأرض متكوم على نفسه في وضع الجنين وترك عظامه تتلقى الضربات المتتالية دون شفقه أو رحمة، أدرك ذلك المسكين أن النظرة التي كان يخشاها من الشريف هي أهون شيء قد يحدث له، لم يتحمل جسده الضرب فبدأ يصرخ من شدة الألم، يصرخ، خرج صوته من المنزل وتسلل إلى أذن عائلته فبدأ أطفاله بالبكاء الشديد وكذلك زوجته ثم تسلل الخوف إلى أذن جيرانه وبدأوا يرتجفون خوفًا على عكس الشريف الذي كان يستمتع بتلك الصرخات بل إنه يُحرك أصابعه انسجامًا مع صوت صراخه مظهرا القوة والسلطان الذيِّن يمتلكهما.

منزل ذلك الزنجي كان قريبا من المكان الذي سيعبر جورج منه إلى مزرعة القمح فخشي أن يتقدم ويصل إليه فيدركه أحد رجال الشرطة ففضل العبور إلى المزرعة من مكان بعيد والترجل داخل المزرعة بدلاً من خارجها، بهدوء بدأ يفكر كيف سيعبر ذلك السلك الشائك الذي يحول بينه وبين المزرعة، وضع يده على الساق الخشبية وبدأ يصعد على السلك كأنه يصعد درجات سلم، لا يعلم من أين استمد هذه الرشاقة والخفة ليجد نفسه يصعد بسرعة كبيرة وهو يمسك بالساق الخشبية كما فعلت زوجته سلفًا لكنه لم يخطئ مثلها فقد قفز من أعلى ولم يعط مجالاً للأسلاك لتنقطع ليجد نفسه داخل الحقل يشعر بألم شيد بسبب ارتطامه بالأرض، حاول أن يتفادى السقوط على فخذِه المتورم ولكن مع الحرص شعر بألم شديد لكنه كتم صراخه ومنعه من الظهور، جز على أسنانه بقوة وتحامل على نفسِه، الغيظ يملأ قلبه تجاه ذلك الشريف الظالم لكن لا يستطيع فعل أي شيء الآن، بدأ يتحرك داخل الحقل الذي ابتلعه بمجرد أن دلف إلى الداخل، لا يمكن أن يتحرك من الخارج حتى لا يرمقه أحد لكن المنظر من الداخل كان مهيبا لدرجة كبيرة، الظلام يفرد ذراعيه ويسيطر بالكامل على المكان، تحولت المزرعة بالكامل داخل رأسه إلى ما يشبه الخريطة المجسمة وتحول هو إلى نقطة مضيئة تتحرك بداخلها، رسم المزرعة في خياله قدر المستطاع وبدأ يتحرك على ذلك معتمدًا في المقام الأول على إحساسه وتوقعه، حاول أن يركز سمعه على التقاط

أي صوت ليتأكد من أنه يتحرك في الاتجاه الصحيح، لكن الأطفال كانوا يحافظون على هدوئهم بالدرجة التي تجني لهم المتاعب والشقاء، جورج يتلفت حوله يحاول أن يجد الطريق الذي يسلكه، بداخل المزرعة كل شيء متشابه، القمح في كل مكان والظلام حالك، شعر للحظة أنه أصبح لا يعرف أين هو تحديدًا الآن!!

انتهى الضباط من ضرب ذلك الجار وجعله يتأرجح بين الوعي وفيما يشبه الغيبوبة، زادوه خدرًا على خدر ثم حمل اثنان منهم مقدمة جسده وسحبوه على تلك الكيفية التي تُجر فيها قدميه على الأرض بمجرد أن خرجوا به من المنزل تعالى بكاء أفراد أسرته حتى أن ابنه الأصغر راح يبكي ويصرخ حينما رأى والده يسحب كالأضحية، استمروا في سحله حتى وصلوا به إلى الشريف ثم ألقوه أسفل قدميه بإهمال شديد كأنهم يتخلصون من سجادة قديمة بلاها الزمن، جلس الشريف وضع القرفصاء وراح ينظر إلى وجهه الذي نكسوه الدماء ومن العسير أن تميز مكان النزيف، برزت عليه آثار الضرب بالشكل الذي يُشعرك بأنه ليس هو نفس الشخص الذي كان يُضرب، ابتسم بسادية مبالغ فيها قبل أن يتحدث إلى باقي الجيران أن هذا ليس عقاب من يتستر على هذا المجرم الهارب جورج،إنما هو عقاب من تسول له نفسه بمنع الضباط من ممارسة عملهم، كان يريد أن يعود الخوف إليهم كما كان، أراد أن يجعلهم لا يزالوا يخشون التحدث إليه ركله بقدمه في صدره بقوة ثم أمر الضباط أن يحملوه إلى السيارة فهو رهن الاعتقال، حملوه وألقوه في السيارة كأنهم يلقون أبخس الأشياء وأرخصها على الإطلاق، توهجت في نفس الشريف تلك الجذوة الشيطانية المدمرة وراحت تنفخ سمومها في صدره تحثه على ألا يترك هؤلاء يتلاعبون به كما تتلاعب القطة بالكرة الفرو، عليه أن يقذف الرعب في قلوب هؤلاء أكثر حتى يذب فكرة التستر على ذلك المجرم عنهم، أمسك بمكبر الصوت مرة أخرى وراح يتحدث إلى الجميع بنبرة مخيفة تجمع بين الوعيد والتفزيع.

- الآن سوف أمد يد المساعدة إليكم مرة أخرى، سأعطيكم فرصة لتُخرجوا أنفسكم من الظلمات إلى النور وتخبروني أين يختبئ جورج وعائلتُه حتى لا يصيبكم ما أصاب جاركم، سوف أمهلكم دقائق معدودة لتفكروا في الأمر ولتشاهدوا مصيركم الذي ينتظركم إن لم تكشفوا عن الأمر لأنني لن أترك ذلك المكان حتى يصبح جورج بحوزتي.

تبادل الجميع النظرات المريبة التي يملأها الشك بين بعضهم البعض، كل فرد يعتقد أن جاره يتستر على جورج حتى أن بعضهم وصل الشك إلى قلوبهم بأن جورج قد يختبئ عندهم فهم بعضهم إلى داخل المنزل يبحث هل جورج متواجد أم لا من شدة هول ما يقع عليهم وهذا ما أراده الشرِيف أكثر من فكرة إيجاد جورج، أشار الشريف إلى رجاله فبدأوا بإشعال زجاجات المولوتوف وألقوها على منزل جورج لتسرح النيران فيه وتتعاظم شيئًا فشيء، تلتهم أي شيء أمامها فيتضاعف حجمها سريعًا حتى بات منزل جورج يتوهج كقطعة فحم مشتعلة في ذلك السواد الحالك، يحترق المنزل بكل ما يضم من ذكريات سعيدة أو سيئة، يشتعل بأثاثه الشحيح أمام أعين الجميع فتساقطت الدموع من عيون بعضهم رغمًا عنهم، ضوء النيران تسلل إلى جورج ليمحو ذلك الظلام أمامه وليكن له طوق نجاة قد ألقاه الشريف دون أن يقصد في طريقه ليُدرك الاتجاهات في ذلك المكان الذي تشابه فيه كل شيء واختلطت فيه الاتجاهات فأدرك جورج طريق المنزل من خلال الضوء وأصبح قادرا على تحديد باقي الاتجاهات وأدرك أي طريق عليه أن يتجه ليصل إلى أطفاله.

الشريف ظل ينظر إلى النيران حتى أكلت المنزل وبدأت تهدأ وتخمد تدريجيًا فأمسك بمكبر الصوت مرة أخرى وراح يوزع التهديدات على الجيران ويأمرهم للمرة الأخيرة أن لا يتستروا على هذا الزنجي المجرم وعائلته، ظل ينتظر فلم يجد أي ردة فعل تذكر فتأجج الحقد في نفسِه وشعر بانهزام داخلي مما دفعه للثأر من هؤلاء

الزنوج الذين يظنون أنهم قادرون على خداعِه، صرخ في رجاله بنبرة صوت مخيفة تحمل كمًا هائلاً من البغضاء والكراهية، أمرهم أن يقتحموا كافة المنازل الموجودة ليبحثوا عن هذا المذنب، ومن يعترض طريقهم سيكون مثله كمثل ذلك الجار الذي تفككت عظامه أمامهم، أمرهم أن يبدأوا المهرجان ولا يعودوا إلا وهو بحوزتهم، أخذ يحمسهم ويشحن طاقتهم ويخبرهم بأن أيًا منهم كان من الممكن أن يكون مقتولاً بدلاً من ذلك الشرطي الذي لقي حتفه على يد هذا الزنجي البشع فتحركوا جميعًا كالذئاب الجائعة تجاه المنازل وبدأوا يقتحمونها بحجة التفتيش والسكون يخيم على الجميع، اكتفوا فقط بتلك النظرات التي يملأها القلق والشك والخوف المبين، بعضهم كان يملأه الغضب بسبب ما يقترفه رجال الشرطة لكنه فضل السلم ولم يبد أي اعتراض وهم يعبثون في كل شيء داخل منزله المتواضع الشحيح، شبه الخالي من الأثاث.

التقطت أذن الزوجة وقع أقدام الشرطي وهو يقترب من المبنى الذي تختبئ فيه بعدما رأى الضوء الذي سرعان ما اختفى ووصل إلى أذنه شظايا من صوت أزيز الماكينة، استمعت الزوجة إليه وهو يقترب من المبنى فهمت تركض لتختبئ حتى لا يراها فيفضح أمرها، نظرت حولها فلم تجد سوى ركام السيلاج المفروم والذي يتكوم بأحجام هائلة وكبيرة للغاية تمهيدًا للتخلص منه، هرعت الزوجة ودفنت نفسها في قلب الركام وغاصت بداخله حتى لا يظهر أي جزء من جسدها ويقع عليه عين ذلك الشرطي الذي وصل عند بوابة المبنى وبدأ يداعب الظلام الذي يسيطر على الأجواء داخل المبنى ببطاريته الضوئية فيضرب بطاقتها المضيئة كل ركن فيه فلم يجد أي أثر يدل على وجود شخص بالداخل، فقط ماكينتين عملاقتين وركام كبير جدًا من السيلاج المفروم، تحرك ببقعة الضوء إلى السلم الذي يقود إلى الدور العلوي فلم يجد شيئا يدل على مرور أحد من هنا، ظل يتجول ببقعة الضوء فلم يجد أي شيء ينُمُ عن وجود أحد بالداخل، أمسك بالبوابة الحديدية وبدأ يهزها بقوة لعلها تستجيب فوجد أنها محكمة الغلق عن طريق قفل كبير وسلسلة ملفوفة بإحكام، ومن المستحيل أن

يعبر أحد من خلال القضبان التي تملأها فأعرض عن الفكرة لكن ظل بداخله ذلك الهاجس الذي يذكره بأنه رأى الضوء يأتي من هنا مما دفعه ليحرك الكشافة ناحية لوحة الكهرباء الخشبية فوجدها مهشمة، اتسعت عيناه ولمعت وهو يقترب من إيجاد حل اللغز فوقعت عيناه على أسفل البوابة فوجد قطرات من الدماء توجد أسفلها، جلس القرفصاء وبدأ يحدق بها، ضغط عليها فوجدها لم تجف بعد، نظر إلى الداخل وهو يبتسم ابتسامة صفراء قاتلة توحي بأنه تأكد من وجود العائلة بالداخل، وصل إلى ذهنه شيئًا بديهيًا بأنهم بالتأكيد يختبئون داخل ذلك الركام الكثيف!!

- 4 -

نعود إلى جورج الذي دبت الدهشة فيه وسكن الذهول عينيه، كاد أن يسقط لما هاله من منظر تلك المسنة الضعيفة التي فارقت الحياة على أثر صفعة أخذتها على وجهها ولم تستطع ردها أو حتى الاعتراض، هو كان يرتاب في أمر موتها، ظن أنها فقدت وعيها أو أصابتها غيبوبة ما لكن حينما وضع يده على رقبتها لم يكن هناك نبض، توقف قلبها عن ضخ الدماء، خمدت أنفاسها ولم تستطع أن تخرجها من صدرها، انطفأت شعلة الحياة ونهش الموت جسدها بلا رحمة، بات جورج يرتجف من الخوف والتوتر، لا يُدرك ماذا عليه أن يفعل، قلبه ينفطر على تلك المسكينة التي فارقت الحياة ذلاً وخنوعًا في الوقت نفسه يخشى أن يقترب منها حتى لا يتهمه أحد بقتلها حتى ولو كانت الأعراض نوبة قلبية!!هو لا يضمن ردة فعل هؤلاء المستبدين الذين جاءوا من الجحيم، لن تأخذهم بأحد شفقة أو رحمة ولن يتبادلوا معه الحديث، لن يجني منهم سوى ظلم وبغي، وجد جورج نفسه يبتعد عنها ويرجع إلى الخلف رويدًا رويدًا وعيناه عالقة عليها، قلبه كان ينشق حزنًا لكن عقله يخبره بأنه الصواب، بهدوء نزل من الشاحنة وهو ينظر تجاهها ولا يملك لها ضرًا ولا نفعًا، كانت هذه الحادثة بالنسبة له الجحيم المستعر بعدما خرج من السعير الملتهب الذي كان يأكل منه في العمل، كان غارقًا في الحزن وهو يبتعد عن الحافلة لكن لا يزال عقله يصر على رأيه، يأخذه قلبه ليلقي عليها نظرة كل حين وآخر، يتساءل هل شعر أحد بوجودها أم أنها ستظل وحيدة كما فارقت الحياة!!ابتعد عن الحافلة حتى صارت أمام عينيه في حجم علبة الكبريت، تابع خطواته قاصدًا المحلات التجارية لعله

يجد فيها ما يبحث عنه حاملاً كتلاً من الجراح النفسية الثقيلة، كان عقله لا يزال هناك في الشاحنة يفكر في مصير هذه السيدة التي ربما سيكون مصيره في يومٍ من الأيام مثلها!!ربما لن يتحمل قلبه إهانة أو نوبة ظلم من نوبات مالك المكان ليترك الدنيا غريبًا كما يحيا بها غريبًا، هو يخشى على أولاده نفس المصير المظلم فلا يريد أن ينكسر لهم خاطر بسبب العنصرية المفرطة التي تفرد جناحيها على المدينة، هو لن يسمح للعنصرية بأن تأكل قلب أحد أطفاله. سيصارع من أجل الحفاظ عليهم مهما كلفه الأمر، الفستان!!الفستان الذي تبتغيه ابنته لتحضر به حفل الكنيسة غدًا، سيبتاعه مهما كلفه الأمر، لن يترك مجالا يتسلل منه اليأس إليها، لن يترك قلبها عرضة للتعاسة، ظل جورج بصحبة هذه الهواجس حتى وصل إلى المكان المكتظ بالمحلات التجارية، هو المكان الأشهر في المدينة، البشر هنا في كل مكان، يصنعون ضجيجا هائلا وهم يترجلون في الشوارع العمومية والجانبية، أصوات تعلو وتهبط، إنها ليلة الأحد حيث يخرج الناس إلى الأماكن العامة والمخصصة للسهر فغدًا يومٌ بلا عمل، جورج يترجل وسط المارة بهدوء وسلام، ورغم ذلك لم تسلم أذناه من النعت والسب في بعض الأحيان من أُناس تملؤهم العنصرية والتعصب، مكان مكتظ كهذا لن يخلو من هؤلاء التابعين لمذهب التفرقة حسب اللون والأصل، وما أكثرهم في هذه الفترة العصيبة التي تمر بها الولايات المتحدة الأمريكية، فضل جورج السكوت وعدم الرد وكان هدفه الوحيد هو البحث عن الفستان بالسعر المناسب والعودة إلى المنزل، حتى حينما اصطدم به أحد المارة عمدًا ثم تبعها أصدقاؤه بضحكات هستيرية ساخرة وتبرع أحدهم وأخذ يقفز مكانه مثل القرد مُصدرًا صوته المعروف، لم يلتفت إليهم ولم يعط لهم المجال، حاول أن يهرب بعيدًا عن الكلمات القاسية التي ظلوا يلقونها عليه حتى لا تنخر كرامته أكثر، ظل مستمرا في الطريق حتى وصل إلى أحد المتاجر التي وجدها تعرض فستانا جميلا يليق بمكانة ابنته وبقداسة المكان الذي هم ذاهبون إليه، وقف أمام الواجهة الزجاجية للمتجر والمعروض بداخلها الفستان الأنيق، نظر إليه طويلاً فخُيل إليه أن ابنته تقف مكان ذلك التمثال الذي يرتدي الفستان، شعر

بأنه فُصِل خصيصًا من أجلها، نظر إلى تلك الورقة الصغيرة التي كُتب عليها السعر، إنه مناسب إلى حد ما إذا قورن بالأجر كاملاً دون خصم، فكر جورج قليلاً ثم قرر أن يبتاعه مهما كان، فهو جميل ومناسب بالحد الذي يتخطى حاجز الإقناع، دلف إلى الداخل، بداخله شخص أبيض ممتلئ، سمج كأفراس النهر، يرتدي عوينات تدلت حتى مقدمة أنفه، يمسك في يديه كتابا يتطلع فيه بملامح وجه تعطي لك شعور بالاستفزاز دون أن يتكلم، ألقى عليه جورج التحية ثم أخبره من دون أن يستمع منه إلى رد السلام أنه يريد أن يبتاع هذا الفستان الموجود في العرض الزجاجي بالخارج، نظر إليه البائع باحتقار من فوق عويناته من أسفل قدميه حتى رأسه ثم تباطأ بشدة في الرد عيه، أخبره بكلمات قليلة أنهم لا يبيعون البضاعة إلى الزنوج، وإن أرادوا سيكون المبلغ ضعف ذلك المعلق على الفستان، أنهى كلماته القليلة ثم عاود النظر إلى الكتاب الذي يقرأ فيه، لم يعر لجورج اهتماما، طأطأ المسكين رأسه وخرج إلى الشارع يعاود البحث عن ما يريد، استمر البحث لأكثر من ساعة حتى وجد ضالته، متجر يمتلكه رجل يؤمن بالإنسانية وينبذ التعصب بل إنه رفقًا بحال جورج البادي بشكل كبير على مظهره خفض له ثمن الفستان تخفيضا بسيطا كان بالنسبة إلى جورج الدنيا وما فيها، فما أجمل أن تجد من يحترم إنسانيتك ويحترم كيانك الإنساني، لم يجد جورج ما يفعله لهذا الإنسان إلا أنه احتضنه، احتضنه بكامل قوته على الرغم من أن هذا التصرف منبوذ إلى حد ما في المجتمع الأمريكي لكنه كان الشيء الوحيد الذي يمتلكه وقتها، أخذ جورج الفستان وهم بالعودة إلى محطة الحافلات ليذهب إلى بيته، كان يمشي على الأرض مرحًا وكاد أن يطير فرحًا، انقشع عنه الشعور بالهزيمة وأصبح يشعر بالانتصار، فاضت نفسه غبطة وحبورًا وكاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه فرحًا، كان يترجل بسرعة وسرور كعصفور غادر قفصه، ملأ كيانه الفرح الفريد الذي لم يعرفه من قبل حتى إذا قابله أحد المتعصبين واكفهر وجهه وعبس شاتمًا إياه ابتسم له جورج، هو لا يريد أن يتبدل حاله، حتى إذا وصل إلى محطة الحافلات تذكر السيدة المُسنة

وما حدث لها، كانت هناك ملقاة على الأرض بإهمال شديد وهناك رجال من الشرطة في كل مكان، يحققون في الوفاة، ها هي وحيدة مُلقاة على أحد الأرصفة بإهمال شديد تمهيدًا لحملها ونقلها إلى الطب الجنائي لمعرفة سبب الوفاة، هل يستطيع الطب الشرعي إثبات الإهانة!!؟ هل يستطيع إثبات الانهيار النفسي الذي كانت تشعر به؟، يبدو الأمر هبوطا حاد في الدورة الدموية أدى إلى الوفاة، صعد جورج إلى الحافلة وقد انخفضت سعادته إلى النصف بعدما تذكر ما حدث للسيدة المُسنة، عاد شبح القلق يستفحل أمامه ويتضخم، جلس على مقعده في استسلام حتى وصل إلى المحطة.

كان جسد جورج قد استراح بعد يوم شاق لم يذق فيه طعمًا للراحة، نهض ببطء حملاً الفستان الذي ابتاعه، نزل من الحافلة وبدأ يترجل حتى المنزل، هو في الأوقات العادية يأخذ مواصلة أخرى حتى تصل به إلى قريته، لكن ثمن هذا الفستان سيدفعه إلى الترجل حتى القرية ومنها إلى المنزل، هو يشعر بالإرهاق الشديد لكن في الوقت نفسه لا يريد إهدار أي أموال أخرى مما تبقى من راتبه، هو مضطر إلى التكيف، يقنع نفسه بأن الإنسان معجزة إذا أراد شيئا بإرادة استجاب له، عليه أن يستخدم تلك النظرية حتى وإن كانت غير صحيحة، التذرع بالأعذار ضعف والتفكير دوامة طاحنة، مواجهة الإعصار حل، بهذه الكلمات البسيطة حاول جورج شحن طاقته، يصبر نفسه ويطمئنها بأن القادم أفضل، في الوقت نفسه يضيع الوقت حتى لا يشعر بطول الطريق ووحشته، جورج لا يدرك أن ما حدث له اليوم أنجاه من مؤامرة دنيئة دبرها له ذلك المتعصب الذي لكمه في أنفه، جمع أُناسا على شاكلته بل إنهم أكثرًا تعصبًا وإجرامًا ووقف ينتظر جورج وهو عائد إلى منزله ليلقنه درسًا قاسيًا لكن من حسن حظه أنه ذهب إلى السوق التجاري ليبتاع الفستان وتأخر هناك علاوة على ترجله من المحطة إلى القرية ثم المنزل فأضاع الكثير من الوقت وجعل اليأس يدب في قلب المتعصب وأعوانه فانصرفوا، تابع جورج طريقه حتى وصل إلى المنزل، وقف على الباب وأخذ نفسا عميقا ثم طرق الباب راسمًا ابتسامة على وجهه ليبدد أي شعور بالإرهاق أو الضيق، انتظر حتى فتحت ابنته الباب ووجدت في يده الفستان، انقلب

هدوء المنزل سريعًا إلى أصوات فرح، انطلقت أساريره ولاح السرور على الوجوه، أُزيل الخوف وتضاعفت البهجة، لمعت عينا ابنة جورج حينما وجدت البشير يحمل لها الفستان ويقف على باب المنزل، هي كانت ترتاب قليلاً في كلامه كونها تُدرك حالة الفقر الذي يعانون منها، كانت تضع بداخلها توقعا بأنها ستذهب غدًا بفستان قديم فجهزته ووضعته تحت الاستعداد ليكون الخطة البديلة حال تعسر والدها، لكن تبدل الحال وشعرت بفرحة وسرور جعل قلبها يرقص فرحًا بين ضلوعها، أعطى لها الفستان فأخذته ووضعته على الطاولة القريبة منهم ثم همت تحتضنه كما لم تحتضنه من قبل فرفعها عن الأرض وأخذ يدور بها ويدور فكانا كفراشة واحدة تدور حول الضياء البهيج، فاضت عيناها بالدموع ووضعت رأسها على كتفِه، توقف عن الدوران ووضعها على الأرض، نظرت إليه نظرة عاشقة ووجدت نفسها تطبع على خدِه قبلة لم يذق مثل حلاوتها من قبل.

- لم أر فرحة كهذه في عينك من قبل.

- وأنا لم أتذوق فرحة كهذه منذُ ولادتي.

- لهذه الدرجة كنتِ تنتظرين الفستان.

- لا يعنيني الفستان بقدر ما يعنيني التضحية من أجلي، أنا أعلم أن راتبك صغير وكنت أُخبر نفسي وأمهد لها بأنك لن تستطيع أن تبتاعه لي لكنك فاجأتني وابتعته رغم راتبك الصغير، هذا ما يسعدني يا أبي.

ابتسم جورج برضا ثم شرع يتحدث إليها.

- هناك قواعد للحديث بين رب الأسرة وأبنائه، ورب الأسرة وزوجته، لكن يبدو أننا سنخل بهذه القواعد ولن نلتفت لها.

- أنا لا أفهم!!

- سأشرح لكِ، هناك أمور لا يريد رب الأسرة أن يفصح عنها لأبنائه حتى لا يشعروا بالضيق لما حدث له وفي الوقت ذاته هو لا يريد أن يرى في عيونهم نظرة

الحزن لكن لكل قاعدة شواذ، في هذه الحالة يجب أن أخبرك بما حدث حتى تدركين مكانتك الغالية.

- ماذا حدث!؟؟

- اليوم تعرضت لموجة شديدة من الظلم، تصيد لي زملاء العمل وكذلك مالك المكان ثم قام بخصم نصف راتبي الأسبوعي ورغم ما حدث لم أغفل أو أتجاهل فكرة شراء الفستان.

هذه الكلمات البسيطة دفعتها إلى أن تفتح فمها من شدة الذهول،اتحد قلبها وعقلها معًا من أجل استيعاب ما ألقى عليها والدها، كل توقعاتها التي بنتها سلفًا والتي كانت تتلخص في عدم قدرته على شراء مبتغاها كانت وهو يمتلك راتبه كاملاً، الآن هي تمتلك الفستان وراتبه قد خصم منه النصف، نزل عليها الخبر كالصاعقة فلم تجد ما تفعله سوى أن تسأله عن ذلك، لماذا فعل ذلك؟؟ ابتسم جورج ابتسامة غريبة يمتزج بها الحزن مع السعادة في تناغم شاذ وغريب.

- كنت أتمنى أن يحدث شيئًا واحدًا يسعدني، معجزة واحدة تعوضني عن انطفاء قلبي كل هذه المدة، وها قلبي قد أُضيء بابتسامتك وسعادة قلبك، وفي ظروف صعبة للغاية ومن دون آخذ الأموال التي في حصالتك المعدنية.

انهمرت في هذه اللحظات دموعها وألقت بنفسها في أحضانه، بكت في صدرِه ثم هرعت تقبل كل موضع في وجهه ورأسه، لم تتمالك زوجته نفسها وبدأت تبكي هي الأخرى، صنع ذلك الموقف سعادة غامرة داخل المنزل، سعادة لم تزره منذُ أيام طويلة، جلست الأسرة في حالة من السعادة المؤقتة، تناول جورج طعامه، كان مذاقه مختلفا تمامًا على الرغم من أنه اعتاد على تناوله، لكن هذه المرة كان مذاقه مختلفا، الفرحة تستطيع أن تضيف إلى الحياة ألوانا مختلفة ربما لم تكن موجودة من قبل، خلدت الأسرة بأكملها إلى النوم فغدٌ يومٌ حافلٌ في الكنيسة، ابنته ستقف ضمن فريق الكنيسة لترنم وسط الحضور، خلد جورج إلى سريره وتمدد وبدأ النوم يغالبه، نظرت

إليه زوجته وأطالت النظر، لاحظ ذلك فسألها عن السبب، أخبرته بأنها فخورة به وأنه بالنسبة لها الدنيا وما بها وأنها في الوقت نفسه لا تدرك كيف ستكمل الأسبوع بهذا المبلغ الزهيد، ابتسما سويًا ثم أخبرها جورج مستغلاً هذه الأجواء اللطيفة بأنه يود أن يترك الولاية!!لم تتفاجأ الزوجة كثيرًا فهذه الفكرة قد راودتهم منذُ فترة قصيرة وبدأوا في الاستعداد لذلك لكن في النهاية توقف كل شيء بسبب قلة المال، سألته عن انبعاث هذه الفكرة مرةً ثانية.

- لقد استفحلت العنصرية هنا وأصبحت شيئا لا يُطاق، اليوم حدث أمامي شيء جعل حواسي تستيقظ كلها دفعة واحدة وجعلت عقلي يفكر فيما هو آت.

- ماذا حدث!!؟

قص عليها جورج قصة المرأة المُسنة التي رآها اليوم بعينيه ففاضت عيناها بالدموع وشعرت بالألم الذي تحدث عنه جورج يأكل قلبها، أخبرها جورج بأن هذا الحدث من الممكن أن يحدث له أو لأحد من أسرتهم، أخبرها بأن عليهم ترك هذه الولاية في أسرع وقت.

- الولايات المتحدة كلها تعاني من العنصرية.

- هذا صحيح ولكن العاصمة بدأت تنتفض فيها جمعيات حقوقية للزنوج، ظهرت قوتها وتماسكها وتحاول أن تعزز نفسها، خاصةً بعد اغتيال مارتن لوثر كينج ومالكوم أكس، سنذهب إليهم ونطلب منهم عملا ومسكنا، أنا متأكد بأنهم لن يخذلونا.

نظرت إليه زوجته ولم تجد ما تقوله خاصةً حينما قص عليها ما حدث معه اليوم كاملاً في العمل وما أدى إلى خصم راتبه بهذا الشكل، وقتها لم تجد ما تقول، صمتت وظلت تنظر إليه طويلاً دون كلام.

- كيف سنسافر للعاصمة، سيظل المال هو عقدتنا كما حدث قبل ذلك.

- سوف أعرض المنزل للبيع وسنجد من يشتريه، إن موقع منزلنا مميز رغم فقره الشديد.

- لكنه في حي خاص بالزنوج، ومعظم الزنوج لا يمتلكون المال.

- أعلم ولكننا قريبون جدًا من مزرعة السيد نيكولاس وهو رجل متعصب يمقت الزنوج ويكرههم، إذا عرض عليه مكتب العقارات ذلك فلن يتردد في شرائه.

- ولكننا بهذا نعرض جيراننا للأذى.

- سأعرض عليهم غدًا هذا العرض وليشتري نيكولاس المكان بأكمله.

- هذا شيء صعب لكنه أكثر الحلول منطقية.

- هل جواز السفر الخاص بنا وبأبنائنا يحتاج إلى تجديد؟؟

- على ما أعتقد لا، فلم يمر وقت طويل على تجهيز سفرنا في المرة السابقة.

- هذا جيد.

لم ينته جورج من حديثه حتى وجد ابنه الأصغر يدخل إلى غرفتهم مذعورًا، يخبر أبويه أنه يستمع إلى صوت حركة حول المنزل، وقع أقدام لأشخاص يطوفون حول المنزل، اتسعت عينا الزوجة ونظرت إلى جورج الذي يحاول أن ينتبه لذلك وهو يتلفت حوله، أخبرته أنه بالتأكيد هو زميل العمل السمج الذي ضربه جورج اليوم جاء ليثأر منه، نهض جورج سريعًا وركض إلى الخارج، بصوتٍ عالٍ استدعى ابنته وكان الخوف حليفها يأكل منها بشراهة، أمرها أن تجلس هنا بصحبة أخيها وأمها، أمَّا هو فقد ذهب وأخذ ماسورة من الحديد ليدافع بها عن نفسه وليصد هجمات هؤلاء البيض المتعصبين، نظر إلى عائلته وهم بالخروج من المنزل من أجل القتال!!

- 5 -

يُحرك الضابط بقعة الضوء المنبعثة من بطاريته داخل المبنى المعتم قبل أن يقرر اقتحامه فقد عززت الدماء التي وجدها أسفل البوابة واللوحة التي تهشمت ظنه بأن هذه العائلة الهاربة تختبئ داخل ركام السيلاج الضخمة، ظل يتلفت حوله يبحث عن شيء يقضي به على تماسك هذا القفل الذي يحافظ على تماسك البوابة، ظل يتجول ببقعة الضوء إلى أن سقطت على حجر كان يقبع في هدوء بالقرب من قدمِه، تهلل وجه الضابط كأنه وجد خبيئة نادرة، أخذها سريعًا وراح يضرب بها على القفل بقوة مُصدرًا ذلك الصوت المزعج التي تسلل إلى أذن الزوجة فدفعها للانكماش أكثر على نفسها داخل كومة السيلاج الكبيرة، الضابط يضرب القفل بحماس شديد فانقسم إلى نصفين بعد ثلاث ضربات متتالية، ألقى به على الأرض وسحب السلسلة بقوة وفتحت البوابة أمامه، صفع صريرها العالي الزوجة وتأكدت أن صاحب وقع الأقدام أصبح داخل المبنى، صاح الضابط بصوتٍ جهوري يخبر الجميع بأنه على يقين بأن جورج وعائلته هنا، يختبئون كالجرذان في ذلك السيلاج الكثيف، يطلب منهم أن يظهروا أمامه قبل أن يصيبهم بمكروه، نزلت هذه الكلمات على أذن الزوجة كالصاعقة، أحست أن كيانها يرتج وينذر بأن أمرها قد انكشف، انكمشت على نفسها أكثر متدثرة بالسيلاج سيء الطعم والرائحة، تدور رأسها في فلك تلك الأحداث السيئة التي قد تحدث لها إذا انكشف أمرها، بدأ الضابط يترجل داخل المبنى فيصنع كعب حذائه ذلك الصوت الرتيب الذي يجعلها تنسحب إلى أقصى مناطق الخوف والهلع، يتحرك بحذر خشية أن يهاجمه جورج أو يضربه على رأسه بشيء يسقطه قتيلاً كما

فعل مع زميله في القسم، ذهب بصحبة يقظته إلى لوحة الكهرباء المهشمة والقريبة جدًا من البوابة، بهدوء بدأ يداعب ما تبقى منها لعلها تستجيب له وتضيء المكان، حرك مفاتيحها وأحشائها التي خرجت من مستقرها بالقدر الذي يفهمه لعله يُوقظ الكهرباء بداخلها لكن لم تسفر أيًا من محاولاته عن شيء، اختارت العتمة عمدًا كأنها تريد حماية الزوجة وإبقائها بعيدًا عن عينه قدر المستطاع، نعتها الشرطي بصوتٍ خفيض لم يخرج عن دائرته الصغيرة ثم ضرب عليها بيده ليقضي على ما تبقى منها كونها لم تقضي حاجته لكن في الوقت نفسه تضخم ذلك الظن بداخله وتحول إلى يقين ثابت لا ريب فيه بأن عائلة جورج تختبئ هنا، بدأ الشرطي يفكر في شيء يضغط به على أعصاب تلك العائلة التي لا يعلم مكانها تحديدًا وسيكون من العسير البحث عنها داخل كميات السيلاج الكبيرة، تقافزت في رأسِه الأفكار تباعًا حتى اهتدى إلى تلك الفكرة الأنسب، شعر أنه يمكن لجورج الاستسلام إذا تحول الأمر إلى إيذاء أحدٍ من أبنائه، يجب عليه أن يشعره بالقلق والخوف فيحرق له ما تبقى من أعصاب، طاقت برأسِه فكرة، سيلقي على مسامعه بكلماتٍ قاسية تعقد ذراعيها القوية فيكبس بها صدره قدر المستطاع، يريد أن يقطع عليه أي رفيف أمل فلا يتبقى له سوى الاستسلام، يريد أن يكسب هذه الحرب من أجل مكانة يلهث وراء بريقها معظم زملائه، يبتاعون أي شيء مقابل هذا البريق الخلاب، هو قادر على الوصول إلى المكانة ذات البريق بمجرد أن يستخرج أفراد العائلة من هنا ليقدمها على طبقٍ من ذهب إلى الشريف.

- انقطاع الكهرباء لن ينفعك في الاختباء يا جورج هذا في صالحي، على أقل تقدير لن تكون هناك مسائلة قانونية إذا قتلت أحد أفراد أسرتك في عتمة الظلام، إذا اعتبرنا أن هناك مسائلة قانونية من الأساس لقتل زنجي هارب من العدالة، اخرج يا جورج حتى لا أُصيب عائلتك بمكروه.

طاحونة هذه الكلمات القليلة شرعت في هرس أعصاب الزوجة بلا رحمة، نزلت على مسامعها كالصاعقة فجعلتها تتقلب مع الظنون والافتراضات التي تنتهي كلها

بنهايات مأساوية، هي لا تخشى على نفسها كونها غير مذنبة أو لا يوجد دليل إدانة ضدها، هي تخشى على زوجها، لا تريد أن تكون ورقة ضغط يستغلها هؤلاء ضده ليسلم نفسه لهم، انكمشت على نفسها أكثر من شدة الخوف وتلك الكلمات البسيطة تنخر في أحشائها، تغرقها في مستنقع الاضطرابات والافتراضات التي لا تنتهي، جعلت من ساعدها الأيمن وسادة وضعتها بهدوء أسفل رأسها لتهدئ من صِراخ رقبتها التي تعاني من ألم فظيع بسبب تلك الوضعية التي تكومت بها، أرادت أن تعدل من وضعها قبل أن يشرع هذا الشرطي في البحث عنها حتى لا تصدر أي صوت أو حركة حينما يقترب بعد انقضاء هنيهة من الغفوة التقطت أذنها صوتا عجيبا يشبه النقر بآلة حادة، إنه الشرطي قد عثر في ذلك الظلام على مستأصل النباتات أوالمذراة، وهي أداة ذات مخالب خادشة (شوكة) تستأصل النباتات من جذورها، وقعت عين الضابط عليها فأنارت رأسه بتلك الفكرة، أخذها وظل يضرب بأسنان الشوكة على الأرض فيصدر ذلك الصوت المرعب.

- أسنان هذه الشوكة حادة للغاية أيها القرد، لن يمر الأمر بسلام إذا اخترقت جلد أحدكم خاصةً لحم الأطفال الطري، ربما تأتي أسنانها الحادة على رأس أحدكم فتقتله، أنا لا أريد هذه النهاية المأساوية لذلك سأعطي لكم دقيقتين على أكثر تقدير لتفكروا في الأمر.

أخبرهم بتلك الكلمات القاسية وهو لا يزال يضرب بالأسنان الحادة على الأرض ليزيد من توتر أعصابهم ولا يترك لهم مجالا للتفكير، فقط الاستسلام والرضوخ للأمر، استمعت الزوجة لهذا التحذير المخيف وتخيلت لوهلة أن أسنان هذه الشوكة ربما تخترق رقبتها أو عينيها أو ترشق في بطنها لكن لا مجال للظهور أو الاستلام، لن تنجو بنفسها وتضحي بزوجها خوفًا من أسنان الشوكة، مرت الدقيقتان ساكنة بطيئة لتهضم كل محاولات الشرطي فتذهب عبثًا، لم يفلح أمر التهديد معهم، لم يهتدي

بصوت الشوكة المزعج إلى الشاطئ الذي يبحث عنه، ظل كما هو يواجه اللاشيء، يباغته إحساس مقيت بالفشل جعله يتقلب على سنابك الخيبة فدفع ذلك الإحساس العنف ليستيقظ بداخله.

- أرى أنكم قد اخترتم الشق الأصعب بالنسبة لكم، على أية حال لا تلوموا سوى أنفسكم إن قتلت منكم فردا أو اثنين، هذا قراركم وعليكم أن تتحملوا مسئوليته.

رفع الشرطي الشوكة ثم شرع في التقدم تجاه كومة السيلاج من ناحية الباب، على بصيص بسيط من الضوء بدأ يضرب الشوكة بكل قوة وحزم في كومة السيلاج فيتطاير جزءٌ منه على أثر تلك الضربة التي لم تسفر عن شيء مما يبحث عنه فيعاود رفع الشوكة لينهال بها بعدما يحركها سنتيمترات قليلة إلى الجهة الأخرى ليضمن تغطية أكبر مساحة ممكنة ولا يترك لهم أي مليمترات صغيرة للهروب، ظل الشرطي على تلك الشاكلة المرعبة والمزعجة التي دفعت دون قصد منه بعض الفئران التي تختبئ داخل السيلاج فهرعت وابتعدت هربًا من الشوكة حتى إذا وصل أحدها من دون نهج إلى قدم الزوجة فشعرت بملمسه المُشعر وبشاربه الطويل الذي يداعب به النهايات العصبية المختبئة تحت جلدها لتصل إشاراتها للمخ سريعًا فيقشعر جسدها وتتقلص عضلاتها على أثر ذلك الملمس المشعر الذي يعززه صوت صرير بعضهم على الرغم من أن الملابس كانت تحول بينهما إلا أنها كانت تشعر بها وهي تحاول المراوغة داخل السيلاج هربًا من ضوضاء الشرطي وشوكته، الزوجة تعرف هذا الصرير جيدًا بل إنها قادرة على تمييزه بسهولة شديدة كونها تكره الفئران أشد الكره كونها مريضة بالماوسوفوبيا أي الهلع المرضي الشديد من الفئران، بدأت يدها ترتعش بلا إرادة منها، ضربات قلبها تتزايد بالحد الذي بدأ يعيق التنفس، قطرات العرق تغزو وجهها وجسد الفأر يداعب قدمها ويقف عليها، بصعوبة بالغة وضعت يدها على فمها حتى لا تصدر أي صرخة رغمًا عنها إذا تطور الأمر وتصاعد عن ذلك، أغمضت عينيها وملامح وجهها تجسد كل رهبة وخوف تسري في شرايينها، تشعر بأقدامه الصغيرة وهي تصعد

عليها وتتحرك برغم أنها ترتدي بنطالا لكن خوفها الشديد صور لها أنها عارية وقدمه الصغيرة تخطو سريعًا عليها فتبدو بالنسبة لها كنصل سكين حاد يشق جلدها دون رحمة، جسدها يرتعش كأنها مصابة بحمى وهذا الصغير يصعد عليها، الشرطي لا يزال يضرب بشوكتِه بكل قوة وحزم دون تردد أو نَصَب، فقط الأدرينالين يتضخم في جسدِه بالصورة التي جعلت صوته يرتفع أكثر وهو يضرب بالشوكة من بداية كومة السيلاج القريبة من البوابة وبشكل منظم ودوري حتى لا يفلت جزءً، خوف الزوجة يتصاعد وينقسم على نفسه، نصف يحاول التركيز مع الشرطي الذي يقترب منها والنصف الآخر مع الفأر الذي يصعد على جسدها ببطء حتى وصل إلى كتفها فتدثرها الخوف واحتضنها بقوة وهي ثابتة مكانها كالصنم لا تستطيع أن تتحرك، فقط اهتزاز بسيط هو إلى الرعشة أقرب حرصت فيه على ألا تلفت انتباه الشرطي الذي يتقدم تجاهها، هبط الفأر من على أكتافها وراح يدهس بأقدامِه الصغيرة وجهها الذي تكسوه قطرات العرق فتنتفض كأن هناك كبل كهرباء قد وضع عليها، ضغطت بيدها أكثر على فمها حتى لا يصدر أي صوت منها رغمًا عنها، غيومٌ من التوتر تسود كيانها منذُ أن حل عليها ذلك الفأر ضيفًا ثقيلاً غير متوقعًا، تحرك ببطء حتى اختبأ خلف رقبتها وشعرها الخشن المُسَبَّل، أغمضت عينيها وشعرت أنها غير قادرة على التقاط أنفاسها والكرة المشعرة تقبع خلفها مباشرة، تزيل عنها كل ذرة ثبات أو تركيز، الضابط مستمر في ضرب أكوام السيلاج دون توقف وهي قابعة مكانها بعدما نُزع منها التركيز، لابد أن تتخلص من هذا الفأر وإلا كُشف أمرها، استجمعت قواها ومدت يدها الضريرة خلف رقبتها لتزيح كرة المتاعب التي تتلاعب بأعصابها كالقط الذي يتلاعب بالكرة، أخذت تحثُّ نفسها على فعل ذلك وتدفعه بيدها حتى لامست فروته، شرعت في دفعه لكنه لم يتزحزح عنها بسبب المكان الجغرافي الضيق الواقع بين شعرها ورقبتها، خرج صريره خائفًا يلطم أذنها بلا هوادة فيفجر طاقة من الخوف في كل خلية من خلاياها، استجمعت قواها وقبضت على جسده بيدها بصحبة خوفها من انكشاف أمرها ونزعته من مكانه وألقت به بعيدًا عنها فتُتيح له فرصة جيدة للهروب، ابتعد

عنها هربًا وتلك القشعريرة تستوطن كيانها الضعيف، يضرب التنميل حواسها وكادت أن تتقيأ لولا أنها منعت نفسها عن ذلك بصعوبة حتى لا يتجرد منها الستار وتصير من المكشوفين، ابتعد عنها الفأر لكن لم تبتعد عنها توابع الفوبيا في الوقت نفسه، الموقف أكبر بكثير من ذلك، عليها ألا تُطيع نفسها إن أرادت النجاة، زادها الموقف خدرًا لكن سرعان ما استفاقت من غيبوبتها المؤقتة على صوت الضابط يقترب منها بل إنه بات بينها وبين أسنان شوكته الحادة خطوات معدودة، لا تحتاج سوى لبضع دقائق قليلة لتُدركها، عليها أن تتخلص من كل الأحاسيس التي ترهقها، خشيت أن تتحرك فيشعر بها خاصةً أنه بات قريبا منها، استمعت إلى أسنان الشوكة وهي تصطدم بالأرض على مسافة أقرب يليها صوت الضابط وصياحه وهو يرفع الشوكة ويضرب بها ثلاث مرات متتالية حتى إذا جاءت المرة الأخيرة شعرت الزوجة بآخر أسنان الشوكة وهي تحتك بطرف حذائها فأحست أن كيانها كله يرتج وينذر بانهيار مروع، سوف يكشف أمرها ليس ذلك فقط بل ستصاب في جسدها وربما ستموت على أثر ضربة الشوكة القادمة، إذا تحركت كُشف أمرها وإذا انتظرت ربما هناك نسبة ضئيلة جدًا قد تجعل الشوكة تضل طريقها، رفع الشرطي شوكته وهم يضرب بها السيلاج فوق ركبتها مباشرةً.

نعود إلى الضباط الذين تلقوا الفرمانات من الشريف وراحوا يهجمون على المنازل بقواتهم وكلابهم التي دربوها على كره الزنوج، يهجمون على منازلهم التي أكلها الفقر كالذئاب الجائعة، لف المكان سكون ثقيل، ضاغط، عاقد ذراعيه كأنه يعتصر صدورهم جميعًا فيعيق تنفسهم والأفكار السيئة كلها تتماوج في رؤوسهم وتتردد نغمات رثائها بصحبة إيقاع حزين، ممل، بطيء وهؤلاء الضباط يمارسون هوايتهم بنبش كل شيء داخل منازل هؤلاء الزنوج المعدومين، لم يصمد أثاثهم الشحيح والمتهالك أمام عنفهم المتعمد في قلب كيان كل شيء أمامهم وهم ينهشون حتى في البقاع الضامرة، لم يتركوا سنتيمتر واحد إلا وراحوا يصبون فيه عنفهم المفرط، تابعوا تنقيبهم الدقيق الذي لم يسفر عن شيء لمدة تخطت النصف ساعة بأكمله، عادوا جميعًا فارغي الأيدي إلى الشريف الذي زم شفتيه في ضجر، هو كان يظن بأن

التنقيب سيكشف النقاب عنهم كونه على يقين بأنهم يختبئون في أحد تلك المنازل لكن قفز الفشل في عبه كالفأر وراح يأكل حتى شبع، راح ذلك الطفل المشاكس يقفز بداخله ويعبث فيحثه على الانتقام من هؤلاء الملاعين الذين يريدون أن يطيحوا بهيبته التي بناها في سنوات طويلة، نظر إلى الزنوج الذين تساورهم الظنون بأنهم قد انتصروا، أوهامهم تصور لهم أن الجد سينصرف بصحبة الشريف وقوته لكن تلك أمانيهم، هو من هؤلاء الذين يشعرون بالفشل إذا ضل سعيهم في العثور على مبتغاهم، هؤلاء الذين يضربون الأعناق حتى يحصلوا على ما يريدون، هذا ما كان يدور في رأس الشرِيف قبل أن يشعل لفافة تبغ وعقله يبحث عن الخطوة التالية التي هو على وشك تنفيذها، زعق في الجميع وطلب منهم أن يتركوا منازلهم جميعًا وأن يتجمعوا في تلك الساحة الشاسعة التي يقف بها، عدد المنازل ليس بالعدد الكبير فمن الممكن أن تجوبها جميعًا في دقائق، بدأوا يتحركون في تردد تجاه المكان الذي أمرهم الشريف بالتجمعبه، ينظر إليهم وقد تجسد الشر في عينيه بالشكل الذي يضخم الشعور بالخيفة والتوجس، بدأوا يتراصون بطريقة عشوائية داخل الساحة بصحبة أبنائهم، يجاهدون ليزيلوا هذا التوتر عنهم، يحثونهم على توقف ينابيع الوجع التي تنهار من أعينهم وأعين بعض الزوجات اللاتي يشعرن لوهلة بأن الموقف بدأ يتضخم ويصير أكبر من قدراتهن على التحمل، الهواجس تنخر في نفوسهن وتتلاعب بأعصابهن المحترقة من الأساس والتي بليت في غياهب الظلم والعنصرية التي تعيش فيها الولاية بل الدولة بأكملها، طلب منهم الشريف أن ينتظموا أمامه في هدوء حتى لا يعرضوا أنفسهم للعقاب كما فعل جارهم سلفًا، مظهر الكلاب مهيب، أنيابهم الحادة التي تخرج من أفواههم التي بالكاد يرونها من خلف تلك الكمامات المعدنية تجعل الأدرينالين يتعاظم تلقائيًا، تتدلى ألسنتهم فيسقط اللعاب منها ليعطي لها إحساسا شنيعا بالخوف والرهبة، تقف الكلاب متحفزة تتمنى لو ترك حارسها ذلك الرباط السمج الذي يحول بينها وبين هؤلاء الزنوج الذين رضعوا كرههم وتدربوا على التهامهم تلقائيًا بمجرد رؤيتهم في مراكز وأكاديميات الشرطة، تعافر بقوة

للتخلص من تلك القيود فتحرك الرمال أسفل أقدامها في مشهد مهيب، الجميع رهن قرار الشريف الذي بدأ يتجول حولهم في هدوء مميت ينذر بكارثة حقيقية على شفا الحدوث، يترجل بهدوء فيستمع الجميع إلى وقع أقدامه الرتيب وأفراد الشرطة يتمركزون على كل جانب حولهم تحسبًا منهم لأي تفكير من جهة أحدهم بالهروب أو المراوغة، وقف الشريف في استعلاء وتكبر وزهو، تلك الوضعية التي ترضيه نفسيًا، يُكمل من خلالها تلك الأحاسيس الناقصة في كيانه المليء بالذكريات السيئة، يصنع بأقدامه زاوية حادة ويعقد يديه خلف ظهره، يشد جسده ويتجول بعينيه اللتين يملأهما الشر في الجميع وأنفه تشتم رائحة الخوف المتصاعد منهم، نفخ الشيطان في روحِه فطالب الجميع بالصمت التام خاصةً الأطفال الذين يزعجه بكاؤهم، أعطى إلى آبائهم تحذيره الأخير قبل أن يقبض أرواحهم بطشًا، كلماته القاسية دفعت بعضهم لكتم أنفاس أطفالهم خشية أن يصيبهم مكروه أو يلحق بهم أذى، يحاول كل أب أن يُخرس بكاء طفله بالترهيب والترغيب وبالعنف إذا لزم الأمر حتى لا يفقده، بدأ يتحدث إلى الجميع بنبرة صوت تنُمُ عن تلك العظمة التي يشعر بها، يشعر الجميع من خلالها أنه يستطيع أن يزهق روح أي شخص منهم أو أي زنجي عامةً متى شاء.

- لن أترك الصحفيين وكاتبي التاريخ يبنون مجدهم على حساب إخفاقي، لن أبرح حتى أجد ذلك القاتل المجرم، سأنهش لحمكم جميعًا قبل أن ينهش الجميع لحمي في سطورهم السمجة واصفين للأجيال القادمة من بعدي فشلي في الحفاظ على رجالي وفشلي في الحفاظ على القسم وفشلي في القبض على القاتل وفشلي أمام مجموعة من السود الحثالة العبيد، أنتم وعائلاتكم وأبنائكم مهددون مادام جورج حرا طليقا، لا تسول لكم أنفسكم أن الأمر من الممكن أن يمر دون قصاص، سأترك لكم فرصة أخيرة قبل أن أُوقظ الشيطان الذي بداخلي لأنه إذا استيقظ فلن يكون هناك أي سيطرة عليه، سيفعل ما يحلو له بكم وبأبنائكم لأنني أدرك تمامًا أنكم تعلمون أين هو على أقل تقدير.

نظر في ساعة يده ثم أردف.

- أمامكم دقيقتان قبل أن أُطلق صفارة الاستيقاظ لهذا الملعون الذي بداخلي.

لم يشعر الجميع برهبة كتلك التي يشعرون بها في هذه الليلة البهماء التي تبدو لهم كالعماء الأول، لم يدرك أيًا منهم هل هي ليلة دامسة من البداية أم حل عليهم السواد الحالك بوصول هذا الشِريف الجائر الذي مرت عليه الدقيقتان كأنهما دهرٌ، الضجر والرتابة تأكل فيه حيًا ولم تبق منه سوى ذلك الشيطان الذي بدأ يستيقظ بعد انقضاء المدة التي أقرها من دون إجابة مُرضية، أحس أن كيانه بأكمله يستشيط غضبًا فخرج عن صمته وبدأ يتحدث إليهم بنبرة صوت جامدة تنذر بالشر.

- يبدو أنكم تصرون على مواجهة المتاعب، رفضتم أن تكشفوا تلك القشرة عن الثمرة الشهية وفضلتم الجوع والصراع من أجل البقاء، سأحقق لكم أمنياتكم.

أنهى كلامه وقد اقترب من بعض الكلاب البوليسية التي تقف في تحفز شديد، جلس القرفصاء بجوار أحدهم وراح يُحرك يديه على ظهره ورأسه فراح صدر الكلب يعلو ويهبط والأدرينالين يتضخم في جسدِه فتتضخم معه عضلاته، يُزمجر ويدفع الأرض بقدمِه الخلفية تأهبًا للانقضاض، ينظر إلى الزنوج وعقله يُخيل له أن لحمهم بين أسنانه فيزمجر بتلك الطريقة التي تعكس طباعه الشرسة المتفردة لتتصاعد أجواء الخشونة والخوف التي تربض على قلوب الجميع.

- هذا الكلب قد رضع كرهكم في أكاديمية الشرطة، والآن هو يمني النفس بأن يتذوق لحومكم، كنت سأنجيكم لكن يبدو أنكم لا تريدون ذلك، على أية حال كنا نناقش فيما بيننا أن تكلفة إطعام الكلاب باتت باهظة، الآن أصبح لدينا مخزون.

ظهرت على وجهه تلك الابتسامة الصفراء الخبيثة التي لا تنذر بأي خير، ابتسامة رجل سادي يتلذذ بآهات أحدٍ ما تحت وطأة العذاب المهين، تجول بعينيه اللامعة فيهم حتى اصطدمت عيناه برجل هادئ الطباع يبدو خوفه الزائد على أطفاله من تلك الطريقة التي كان يحتضنهم بها، نظر إليه الشِريف بنظرة نارية ثابتة، ولسببٍ ما لا يعلمه أحد ولا حتى هو وجد نفسه يشير إليه ببنانه ويطلب من زبانيته

أن يحضروه أمامه، شملته حالة من الارتباك وشعر بتلك الحيرة التي تتأرجح به بين الهروب والمكوث من أجل أطفاله اللذين شرعوا في الصراخ بمجرد أن جاء أفراد الشرطة وبدئوا ينزعونه من فوقهم، أحتضنهم أكثر ليطمئنهم في الوقت الذي يتلقى فيه ظهره كما هائلا من الضربات القاسية ليتركهم ويأتي معهم إلى الشِريف، أطفاله لازالوا يصرخون ويتمسكون به كما لو كانوا يعلمون أنهم لن يروه ثانيةً، أزاحوه عنهم ثم انتزعوه بالقوة من أطرافِه الأربعة بحيث أصبح لا يلمس الأرض أي جزء من جسدِه، تحركوا به حتى اقتربوا من الشريف وهمهمات بعض الجيران تتعالى، ابتهالات وصلوات خفية يقرأها البعض ليحفظه الرب اختلطت ببكاء وصِراخ أطفاله المتتالي، تركوه يسقط على الأرض لكن لم يتخل عنه هؤلاء القابضين على ذراعيه، ظلوا متمسكين بها خشيةً هروبِه، اقتربت ابنته ذات التسعة أعوام من إخوتها الصِغار لتهدئ من روعهِم فشرعوا في الشكوى لها من أفراد الشرطة الغِلاظ، يخبرونها بلغتهم التي لم تكتمل حروفها وبكلماتٍ غير متساوية النطق بأنهم يكرهونهم ويكرهون رجال الشرطة بوجهٍ عام لما اقترفوه من ظلمٍ لوالدهم المسكين، أخبروها كل شيء بمشاعر صادقة، ألا يعلم هذا الشِريف الأعجم حجم القنبلة الموقوتة التي يحشوها هو ببارود أفعاله الشنيعة وأنها ستنفجر فيه وفي وطنه حينما تستوي وتصل لسن تكون فيه تهمة إنكار الوطنية والإرهاب مناسبة، لا يعلم أنه هو وأمثاله من يصنعون الإرهاب والمجرمين في بلادهمِ، تجول الشِريف حوله يشم رائحة الخوف المتصاعدة منه ثم شرع بالنظر إلى جيرانه مرة أخرى.

- أنا لا أريد أن أقدم جاركم عشاءً للكلب، لكن الأمر في النهاية يعود إليكم، إذا كنتم لا ترغبون في ذلك فليتقدم أحدكم ويخبرني أين يختبئ جورج.

نظر الشِريف إلى الجميع منتظرًا الإجابة، شعور غريب يزاور هذا الزنجي كلما مرت الثواني من دون أن يتكلم أحد، هو يعلم جيدًا أن لا أحد يعلم مكان جورج، وحتى وإن علم أحدهم بمكانه فلن يبلغوا عنه ليسلموه يدا بيد إلى ذلك الملعون، هم يعلمون جورج جيدًا ويعلمون أنه لن يفعل ذلك إلا إذا وضع في ضغوط رهيبة،

هذا هو الحل الأقرب بالنسبة لهم كونهم يعرفون الشِريف وأفعاله الشيطانية وكرهه الشديد لكل ما هو أسود، مرَّ الوقت كاملاً وهذا المسكين يجلس فوق أرض الألم ينتظر ما ستكشف عنه الدقائق القادمة، ابتسم الشِريف تلك الابتسامة الواهنة التي تظهرها دائمًا في وجه خصمك عندما تنهزم، هي لا تنُمُ عن السعادة بقدر ما توحي بها إليه بأنك غير مكترث، نظر الشريف إلى الزنجي ثم شرع في التحدث معه بتلك النبرة المستفزة.

- أرأيت، لا أحد يبالي بأمرك، جميعهم أصبحوا بأذن صماء، سنكتشف الآن هل يمتلكون إبصارا أم فقدوا تلك الحاسة أيضًا.

قال جملته الأخيرة ثم برزت الخطورة في مشهد حركي مفاجئ تجاه الكلب، جلس القرفصاء بجواره ثم هم يتحدث إليه بجوار أذنه، الكلب يفهم كلماته جيدًا كأنهم ينتمون إلى جنسٍ واحد، وينظر إلى ذلك الزنجي ويزمجر، يتحدث معه بصوتٍ خفيض لا يخرج عن الدائرة الصغيرة التي تحيط بهم، يحرك يديه على ظهره كأنه يشحنه، غيوم من التوتر والترقب سادت المكان قبل أن يشير الشِريف إلى الجندي فأطلق سراح الكلب تجاه ذلك المسكين الذي تركه من كانوا يمسكون بيديه، انطلق ناحيته الكلب الثائر ولسانه يتدلى من فمِه ويتساقط اللعاب في مظهرٍ مهيب، حاول الرجل النهوض والركض دون تفكير لكن لم يعطه الكلب زاوية أو فرصة للهروب، انقض عليه وراح ينشب أظفاره الحادة في ظهرِه فيمزق جلده بعدما أسقطه على الأرض، مزق ما كان يرتدي من ملابس ليظهر على ظهره الأسود خطوطٌ حمراء متداخلة صنعها بأظفاره، انقض عليه بأنيابه وزمجر بشراسة، بدأ الرجل بسباب الكلب ثم سُباب الشريف ثم صار السُباب صراخًا ثم تحول الصراخ إلى استغاثة صريحة عالية بعدما تمكن الكلب منه وراح يعقر مناطق متفرقة من جسدِه فصاحت ابنته بصوتٍ جهوري عالٍ بأنها تعرف مكان جورج وعائلته كما يعرف معظم الموجودين مكانه، حط الصمت على الجميع في الوقت الذي كان فيه الشرِيف غير مقتنع كونها ابنته وبالتالي تريد أن ترفع عنه البلاء، الكلب لا يزال ينهش في الرجل الذي لم يتوقف صراخه، أشار الشِريف إلى

الجندي فسحب الكلب من مقوده لكن أبى الكلب أن يترك الرجل وراح يقبض على ذراعِه بفكِه القوي والرجل يصرخ ويستغيث، يُخبر الجميع بأن عظامه سوف تنكسر بين فكي ذلك الشرس الأعجم، أمر الشِريف الشرطي أن يُنهي هذا سريعًا فاضطر أكثر من شخص للتدخل حتى نزعوا ذراعه عن فكِه، تركوه متكوما على نفسه يغط في آنينه وجراحه، اقترب الشِريف بهدوء من ابنة الرجل التي كانت ينابيع الحزن تتساقط من عينيها، انحنى حتى أصبح وجهه مقابلٌ لوجهها.

- ماذا قلتِ للتو.

أجابته الفتاة من بين أسنانها والدموع تنهال منها.

- أعرف مكان جورج وعائلته.

امتزجت ملامح الخبث والشكوك في وجهِه فسألها.

- ولماذا علي أن أقتنع، أنتِ ابنته وبالتأكيد تكذبين لترفعي العذاب عنه؟؟

طأطأت الفتاة رأسها خوفًا، هي في الحقيقة لا تعرف مكانهم، فقط هي أرادت أن ترفع عن والدها العذاب والألم، فزعت حينما انقض عليها الشِريف بذراعيه فجأة وهو يصرخ في وجهها.

- أنتِ تكذبين.

خرج أحد الموجودين مؤكدًا أنه رأي جورج يخرج خارج منزله ويركض في نفس الوقت الذي شاهدته هذه الفتاة، أخبر الشِريف بأنه شاهدها وهي تنظر إليه، ابتسم الشِريف ابتسامة هادئة ثم سأله لماذا لم يخبره بهذه الإجابة منذُ أن طرح السؤال، قبل أن يخبره بالإجابة قطع عليه حديثه وأخبره بأنه لا يريد أن يسمعها،إنه يريد شيئا آخر، سوف يأخذ الفتاة لتدله على الطريق، وإذا لم يجد جورج أو آثارا لمروره فسيقتلها وسيكون هو السبب في ذلك، أراد الشِريف أن يستزيد في إرهاب الجميع!!

***

أحس جورج أن كيانه كله قد سُلبت منه طاقته وهو يتحرك داخل ذلك الحقل الكبير باحثًا عن أطفاله، النيران قد أهدت له الطريق سلفًا لكن لم يجد أطفاله، هو كان على يقين بأنه سيجدهم في تلك البقعة التي خلت من توقعِه، وجدها فارغة لا تحتوي سوى سنابل القمح الطويلة، تماوجت في رأسِه الأفكار السيئة وترددت رناتها المزعجة تخبره بعدد كبير من السيناريوهات المتوقعة التي تنتهي بنهاية مأساوية درامية تضغط على أعصابه أكثر فتجعله ملومًا محسورًا على خطته التي أضاعت عائلته في متاهة الحياة، شعر أنه جعل منهم صيدًا سهلا لبنادق هؤلاء اللذين يلهثون وراءهم انتقامًا لزميلهم الذي قتله، هو لا يدري ما الذي دفعه لفعل مثل هذا الأمر لكن بم يفيد التفكير بعدما انطلقت الرصاصة واستقرت في رأس القتيل!!، الدموع تزيده لوعة، تتساقط بغزارة وهو يبحث عن أطفاله في كل زاوية من زوايا الحقل المتشابه في كل شيء، فقط هي صورة واحدة لسنابل طويلة يداعبها الهواء تملأ كل شيء حول جورج وقد غرقت في ظلامٍ دامس، غرق جورج في لجة الهذيان وعيونه غائرة، جفونه ترتجف كعصفور خائف وهو يقف داخل حقل الألم، يرتفع وجيب قلبه ويلهج لسانه بالدعاء إلى الرب، يناجيه ليساعده في إيجاد ضالته داخل ذلك المكان الذي تتشابه معالمه تمامًا فلا ترى أنت إلى أي طريق تتجه، تحول جورج إلى وتر وترك العاصفة تعزف عليه أحزانها، تحول إلى قارب صغير ترك شراعه للرياح تسري به إلى ما قد قُدر له، ربما تكون معجزة ويلتقي بأطفاله وربما هو الضلال الذي لن يصل به إلى أي ضفة أو شاطئ، جورج كان دائمًا يطرح على نفسِه سؤالا حينما يذهب إلى الكنيسة ويستمع إلى قصة سيدنا يونس، كيف كان إحساسه وهو في مكانٍ مظلم كالح، كيف كان شعوره وهو يستقبل خيبة الأمل تدريجيًا، كيف كان يقضي ساعاته داخل بطن الحوت لا يدرك ليلاً من نهار، هو الآن يقترب من نفس ذلك الإحساس الذي كان يتساءل عنه يومًا، أدرك جيدًا كيف كان شعوره في تلك اللحظات القاسية وهو يتخبط في كل الاتجاهات مُحاولاً أن يجد ضالته لكن لمتأت الرحلة بثمارها حتى الآن، قواسم مؤلمة عديدة تجمع بين القصتين، وإحدى هذه القواسم هي جهل ما هو

قادم وما ستحمله الدقائق القادمة، فما كان منه إلا أن جلس على ركبتِه في خشوعٍ، قرر أن يفعل ما فعله يونس، سيصلي إلى الرب تضرعًا ليجد ضالته، جلس في إجلال وجميع جوارحه تتذلل إلى الرب، صفى قلبه قدر المستطاع وبدأ يطلب العون منه.

- يا رب أنت الراعي الصالح الذي ترك 99 خروف وذهب يبحث عن الضال، أولادي في حمايتك وأنت قادر على أن تردهم لي كما رددت الخروف الضال، ربي، يا من تحملت لأجلي الجلد الرهيب، يا من رُفعت ذبيحًا على عود الصليب، بحق دموع العذراء ونحيبها أسألك أن أجد أولادي في ذلك الحقل المظلم الكبير.

ظل يدعو الرب أن يجد أطفاله وأن يُنجيهم من هؤلاء الظالمين، يدعو ودموعه تنساب من عينيه حتى استمع بأذنيه إلى صوت ابنه الأصغر لكنه كان صوتا ليس كالصوت، هو صراخ عالٍ وتحول إلى صراخ مكتوم، شخص ما قد كتم صوته، للحظة ما ظن جورج أن ابنه قد خُطف!!

- 6 -

خرج جورج من المنزل حاملاً معه الساق الحديدية المستديرة التي سيدافع بها عن نفسه وعن أسرته ومنزله، سيصد بها الهجوم الذي صوره له خياله وأخبره بأنه بسيط، تشكلت صورهم في عقلِه من خلال هيئة زميله السمج الذي بالتأكيد حضر بصحبة أناس لن يقلوا عنه سماجة وفظاظة، خرج بحرص وبدأ يتحسس الأجواء من حوله، يتحرك ببطء وحذر كجندي أوشك على اقتحام وكرًا للصوص، يرفع تلك الساق التي يحملها في وضع الاستعداد حتى إذا قابل أحدهم لن يتردد في فلق رأسه إلى نصفين، يحرك عينيه في كل مكان وفي كل زاوية كالحرباء وفي الوقت نفسه لم يبتعد عن المنزل إلا خطوات قليلة حتى إذا حاول أحدهم الهجوم على المنزل انقض عليه قبل أن يصيب أحد أفراد أسرته بالأذى، أمام البيت هناك بقعة واسعة وشاسعة ولا يوجد بها ما يُمكن للمرء بأن يستتر خلفه لذا عليه أن يتحرك ببطء حول المنزل فربما هؤلاء يختبئون في مكانٍ قريب، التقطت أذنه صوت يأتي من ناحية الزاوية التي تقع على يمين المنزل، هناك مجموعة من الأشجار الكثيفة تصنع غابة صغيرة قائمة بذاتها، يسودها الظلام فلا يستطيع الضوء الذي ينير الطرق بين المنازل الوصول إلى هناك، هذا مكان خصب للاختباء، هناك صوت يأتي من الداخل من قلب الأشجار، اتسعت عينا جورج ورُسِمت على وجهه علامات التعجب والدهشة الشديدة خاصةً أن هذا الصوت كان نحيبا !! لم يستطيع جورج تفسير ذلك ولم يتمكن عقله من تخيل مصدر صوت هذا النحيب، ولا يمكن لزميله أن يأتي نادمًا ليبكي بالقرب من منزله، ربما هو فخ قد نصبه زميله وأعوانه، هكذا صور له عقله فتوترت أعصابه على أثر تلك

الافتراضية التي سرعان ما راح يكذبها ويقلع عنها، عليه الولوج إلى الداخل ليقطع دابر هذه الشكوك وليعلم ما الذي يحدث، هذا هو الحل الوحيد الذي يمتلكه مع علمه بأنه لا يمتلك ضمانة واحدة تكفل له أن ينجو!! بدأ يخطو ببطء تجاه مصدر الصوت وكانت عيناه مذعورتين تترقب المكان بعناية فائقة، يُشهر الساق الحديدية ويغوص أكثر إلى الداخل حيث الظلام بدأ يفرد شخصيته القاتمة على الأجواء ويبتعد عن الضوء رويدًا رويدًا، توغل جورج وتقدم أكثر حتى دهست قدمه الضريرة على بعض أوراق الشجر الجافة التي تجمعت بوقاحة في الطريق الذي يسير فيه لتصدر صوت طقطقة عالية قد بدا له وكأنه صوت متعمد ليشي به أنه يقترب، تلت تلك الطقطقة سكوت تام وانقطاع لصوت النحيب، ساد المكان سكون رهيب فتوجس قلب جورج وأزداد ترقبه أكثر حتى فوجئ بشخص برز من اللاشيء، برز من الظلام، فزع ورجع خطوة إلى الخلف وهَمَ أن يضرب بالساق الحديدية لولا أنه أدرك أنه مايكل جاره الزنجي الذي يقع منزله بعد عدة منازل من منزله، زفر جورج وتنفس الصعداء، شعر بريبة غريبة تتسلل إلى صدره، سأله هل كان يترجل بجوار منزله أم أنها صدفة ولازال زميل العمل السمج وأصحابه كما تخيل يتربصون له، تحدث إلى مايكل وصوته يختنق بالبكاء بأنه كان يمر بجوار بيته وأنه أراد أن يجلس بالقرب منه ثم فضل المجيء إلى هنا، بالرغم من الظلام المحيط إلا أن احمرار عين مايكل كان واضحًا، صدره كان يرتج كصخرة تتقلقل في منحدر، هدأ جورج تدريجيًا ثم طلب منه الخروج من تلك البقعة المظلمة حتى يستطيع التحدث إليه، حاول مايكل المراوغة لكن أصر جورج على ذلك حتى لم يجد منفذا للهرب فبدأ بالترجل معه في هدوء حتى وصلا إلى مكان قريب من المنزل ففضح الضوء ما كان الظلام يستره، ظهر مايكل على غير عادته التي عُرف بها، اختفت البسمة التي كانت لا تفارق محياه، هربت منه علامات الرضا التي عهدها الجميع على ملامحه، تبدل حاله وسكن الحزن والأسى قسمات وجهه، ضَؤل حجمه بعد ما فقد الكثير من وزنه، كانت عيناه حمراوين كأنه كان يبكي طيلة الدهر، يبدو كما لو أن كل هموم العالم وضعت على رأسِه، ارتعد جورج من هيئته المرعبة، جال

بباله آلاف الأسئلة والرعب يسيطر عليه، هو يعلم أن ابنته تعاني من مرضٍ مزمن لكنه لا يعرف ما قد وصلت إليه، وما هي حالتها الصحية، وكيف له أن يعرف وهو لم ير مايكل منذُ أسابيع، آلمه مظهره، أراد أن يسأله عن وطأته الكبرى التي فاضت على ملامحه وكستها بهذا الحزن الشديد، سأله جورج عما أصابه فلم يتمالك مايكل نفسه، فروحه مرهقة إلىحد الإفراط في التعب تعاني من كبت وكمد طال حمله، استسلم مايكل إلى دوامات الحزن التي لا تنتهي، بدأ يخبره بكلمات قليلة متقطعة تخرج من بين البكاء فبالكاد تُسمع وتُفهم، كانت كلمات لا تخرج إلا من شخص جريح وملتاع، شخص ضاق به الكون ولم يعد له مكانًا فيه، قال له وهو يخفض بصره فيما بين حذائه بأن داء القلب الذي تُعاني منه ابنته قد استفحل وتوحش حتى أنه بدأ يعيقها عن الحركة أو أداء أي مجهود، هي تعاني من أقل مجهود ممكن ولم يعد الدواء يصنع جدوى تذكر، أكل المرض الدواء وفرض شخصيته ولابد من تدخل جراحي سريع وإلا لقيت حتفها في خلال أيام قليلة، هذا ما أخبرني به الأطباء وهذا ما دفعه للاختفاء في الأيام الماضية، كان يجوب الولاية بحثًا عن حل لكن هذا ما أقره جميع الأطباء الذين فحصوا حالتها بعناية، توقفت الكلمات في فم جورج وشعر بالتبرم والحسرة، ابتأس لحال مايكل بعدما ولج إلى عالمه الأليم، هو يعرف أنه لا يمتلك سوى ابنة واحدة وهبها له الرب بعد فترة طويلة من الزواج، يُدرك جورج أن قلقه عليها سيكون أضعاف قلق الأب على أبنائه، الآن هي مريضة بمرضٍ عضال وتحتاج إلى جراحة، وهذا يفسر له الحالة التي وصل إليها مايكل والذي رفع رأسه إلى جورج وقد تحولت عيناه إلى جمرتين ملتهبتين بالاحمرار ثم أردف.

- إن تكاليف الجراحة باهظة للغاية وإن النقود التي ستوفرها لنا الرعايا الصحية ضئيلة جدًا إذا قورنت بالمبلغ المطلوب كوني أعمل في مهنة بسيطة دخلها زهيد علاوة على أنني زنجي في بلدٍ عنصري تفرق بيننا في الرعايا الصحية على حسب لون بشرتنا، في حياتي قابلت الكثير من البشر ولكن أسوأهم نوعًا هم هؤلاء الذين يظلموننا لمجرد لون بشرتنا الداكن.

جورج يدرك جيدًا أن الرجل لا يبكي عادةً وإن حدث فإن لدموعه أثر مخيف وألم لا يوصف، لذلك هو يشعر بما يحدث بداخل مايكل، وقع الكلام كان ثقيلا فأطار صوابه، لم يجد ما يقول، يتمنى لو كان ما يراه ويسمعه حلمًا فلم يعد في قلبه مكان للأحزان، يكفي ما حدث معه اليوم في العمل، يكفي ما رآه مع تلك المُسنة الوحيدة التي فارقت الحياة قهرًا وظلمًا، يكفيه ما شاهده اليوم من مآسي، يخرج من ظلمة ليجد نفسه في أعماق ظلمة أخرى، ما أحوجه الآن للصراخ ليُخرج من أعماقه ذلك الضغط الذي ينهش في أحشائه لكن هذه مجرد أحلام تراوده لا مجال لتحقيقها، الهروب من هذه الولاية هو الحل الأسلم، شعر مايكل بدوار قد أكتنف رأسه فهو يعاني من سوء تغذية مفرط منذُ أيام، دون مقدمات جلس على الأرض بصحبة حزنه وآلامه، جلس جورج بجواره ولا يزال يمسك بالساق الحديدية التي لم تلفت انتباه مايكل من شدة ما يعانيه، طأطأ رأسه وتحدث إلى جورج بنبرة حزينة.

- أتعلم يا جورج، أنا أعيش الآن أسوأ فترة في حياتي، إنني أبذل جهدًا ذهنيًا هائلاً كل يوم حتى أمنع نفسي من الانهيار وإفساد كل شيء، كل ما أفعله هذه الأيام هو أنني أحرس نفسي من الانهيار، أنا أتمزق كل يوم وكل دقيقة و في الوقت ذاته لا يجوز لي البكاء، يجب علي ألا أُظهر الضعف أمام ابنتي الصغيرة، فريشها لم ينبت بعد وأجنحتها لم تقو على الطيران في تلك العاصفة، قلبها مريض لن يتحمل بكائي أو حزني، هي مجرد طفلة صغيرة، مريضة وعليها أن تراني قويًا مهما حدث، أنا ورغم فقري وقلة حيلتي لازلت بطلها الخارق ومصدر قوتها، لذلك أتيت إلى هنا لأبكي، وأبكي، وأبكي وحيدًا لعل الرب يشفق لحالي وضعفي، أنا شخص صالح أعلم ذلك جيدًا فأنا أتردد على الكنيسة وأبتعد عن المعاصي، يجب أن يُعينني الرب على تلك الأيام المملة التي أحياها وهذا المستقبل المجهول الذي يفرد ذراعيه لاستقبالي.

أجهش مايكل بالبكاء أكثر حتى أن جورج بدأ يشعر أن قلبه سيتوقف.

- أنا لا أستطيع أن أشاهد ابنتي وهي تموت.

صمت جورج ولم يجد ما يقول فقد كان الحزن ذابحًا هذه المرة وأكثر وحشية مما سبق، لعن بداخله هذا المجتمع الظالم الفاشي الذي يجهض حياة وأحلام داكني البشرة، الذين طال الليل عليهم ولم يظهر من بعده الفجر بل كان ليل آخر أكثر ظلمة وسوادًا، الظلم مستفحل في كافة منازل الزنوج، الفقر يأكلهم والمرض لا يرحمهم، كل هذه الهواجس والأحاسيس تنخر عقل جورج لكن عليه أن يتماسك ويتمالك حتى يهون على جاره ما هو فيه، محا كل آثار التأثر الشديد وبدأ يتحدث إليه بإقناع يخبره بخطته في بيع منزله وترك الولاية، يخبره بأنهم سيذهبون جميعًا إلى نيكولاس،والذي سيرحب جدًا بذلك القرار، أخبره جورج عن الجمعيات الحقوقية التي لن تتركهم وستتكفل بأمورهم، أخبره بأنه سيعطيه المال، أخذ يخفف عنه ويحاول إقناعه بغدٍ مشرق حتى غالب الاثنان التعب، ذهب مايكل إلى منزله بعدما أقسم له جورج مئات المرات بأنه لن يتركه دون مساعدة.

***

في اليوم التالي ذهب جورج بصحبة عائلته إلى كنيستهم التي اعتادوا الصلاة فيها منذُ سنوات طويلة، هي كنيسة بسيطة للغاية تشي معالمها بالفقر الذي يعاني منه أصحاب البشرة السمراء والذي انعكس على شكلها ومظهرها الخارجي وأثاثها، حيث أن التبرعات والدعم كانت قليلة خاصةً أن الكنيسة تابعه للطائفة البروتستانتية غير المدعومة والتي تعاني من الفقر الشديد، حيث أن الشريحة العريضة لها كانت من الزنوج، على عكس الطائفة الكاثوليكية التي كانت ينتمي إليها الأغنياء وكانت مدعومة بقوة من الفاتيكان، الطائفة البروتستانتية أسسها مارتن لوثر في عام 1517 وكان هدفها وقت تأسيسها إصلاح ما أطلقوا عليه مفاسد الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، حيث كانت تعاني أوروبا من عصور الظلام، قام مارتن لوثر وأعوانه بنبذ عددا من الأفكار التي كانت تتبناها الكنيسة الكاثوليكية وكانت تتلخص في رفض فكرة صكوك الغفران التي تبناها رهبان وكهنة الكاثوليك، والتي كانوا يزعمون أن شراءها بمقابل مادي يؤدي للحصول على غفران الرب، والتي كانت ذريعة بعد ذلك لشحن

الجنود وتحفيزهم على الحرب وقت الغزوات والحملات الصليبية، لا صكوك غفران لكم فقط حاربوا والرب سيغفر لكم، كان مبدأ صكوك الغفران من أكثر المبادئ التي رفضها مارتن لوثر كما أنه أراد السماح للقس بالزواج وإلغاء فكرة الكهنوت المقدس والتعميد، أرادوا ألا يعطوا للمعمودية أهمية فأفكارهم كانت قائمة على فكرة أهمية الخلاص بالإيمان، تعتبر كنيسة إيمانويل الأسقفية الميثودية الأفريقية هي أقدم الكنائس التي تنتمي إلى هذه الطائفة في الولايات المتحدة الأمريكية والتي كانت تخص بنسبة كبيرة الزنوج الذين تمركزوا في جنوب البلاد، نعود إلى جورج الذي ترجل بصحبة أسرته إلى الكنيسة، الجميع في الداخل، أراد جورج التأخر قليلاً لتدخل ابنته بفستانها الأنيق أمام أعين الحاضرين، وها قد وصل لمبتغاه ورأى في عيون الجميع ما كان يتمنى وقتها،انقشع عنه الشعور بالتعب والإعياء، لم يشتكِ جسده ولم يندم على ما أنفقه، ذهبت هي إلى الكورال وجلس هو بصحبة زوجته بين الحاضرين، ألقى جورج بكل أعبائه ومشاعره الحزينة قبل الدخول بعدما أبرم معها أتفاقا بأن يعود إليها بعد انقضاء الوقت، صعد قس ووقف بتلك البذلة السوداء يخطب في الجميع، كان ما يحدث أشبه باجتماع كنائسي فريد يلقي فيه القس التعليمات، فهم طائفة ضد الطقوس ولا يعترفون بأية ليتورجيات "صلوات طقسية" كـ الإبصلمودية الكهكية ولا يؤمنون بالصلاة على المتوفى ولا يؤمنون بعشاء الرب أو ما يعرف بـ الأفخارستيا أي أنهم لا يؤمنون باستحالة الخبز والنبيذ إلى الجسد والدم الأقدسين وهكذا ينبذون فكرة التناول، لا يؤمنون أيضًا بالصلوات السبع ولا يوجد لديهم اعتراف، لا يصومون ويؤمنون أكثر بالعهد الجديد الخاص بالسيد المسيح، أنهى القس الوعظ وألقى على الجميع طيب الكلام وعذبه، طالبهم بالصبر على ما يعانونه داخل ذلك البلد العنصري حتى يأذن الرب بالنجاة، ثم جاء الميعاد المرتقب الذي ينتظره جورج بفارغ الصبر، صعد فريق الكورال إلى المنصة وبدأ الغناء، عزلت عين جورج الجميع فهو لا يرى سوى ملاكه الصغير بذلك الفستان الجميل يرنم وسط الجميع، بدأ الجميع بالتناغم والتجاوب مع الفريق فبدأ معظمهم بالوقوف والتصفيق والتمايل مع الأنغام، انتظر

حتى انتهى كل شيء ثم شرع في البحث عن مايكل جاره ليطمئن عليه فلم يجده بين الحاضرين، لم يأت اليوم إلى الكنيسة على عكس عادته فهو محب للاجتماعات والترانيم لكن لم يظهر اليوم، ارتاب جورج في الأمر وبدأ القلق يساوره، كان جورج ينوي التحدث إلى جيرانه اليوم بعد الاجتماع لكن فضل أن يكون مايكل بصحبتهم حتى يرفق بحاله من سيعترض على فكرة البيع، جورج يريد ذلك من داخله لكنه سيستغل حال مايكل بنبل ليوافق الجميع، جورج ينوي زيارة مايكل حينما يعودوا من الكنيسة ويرى ابنته التي نخر حالها في قلبِه لكن حدث ما لم يتوقعه أو يتخيله، حينما عاد وجد مايكل معلقٌ على إحدى الأشجار القريبة من منزل جورج تحديدًا ناحية تلك البقعة التي كان يبكي بداخلها، معلقٌ من رقبتِه مشنوقًا على جذع سميك بحبلٍ مشدود ضاغط على قافيته بعنفٍ وصرامة، ارتخت أطرافه وجسده يتأرجح في مسافة قصيرة ذهابًا وإيابًا، ملامحه يسودها الحزن الممزوج بالهلع على الرغم من أنه قد فارق الحياة، علق على صدره ورقة كتب فيها "كنت أتمنى أن يساعدني أحد، كنت أتمنى أن أجد نهاية أستحقها بعد كل ما مررت به، العنصرية قتلت ابنتي"، ساد جورج حالة من الذهول الشديد، كان يتمنى لو كان هذا كابوسا يراوده لكنها كانت حقيقة، لم يتحمل مايكل ما حدث اليوم، ففي الصباح اكتشف أن ابنته قد فارقت الحياة.

***

قضى جورج تلك الليلة مسهدًا، لم يستطع النوم ولم يستطع النجاة من دوامات الفكر الطاحنة، آلاف من الأسئلة انهالت على رأسه بلا هوادة، يتكوم على سريره الوثير بالنسبة لحجمه الضئيل النحيف، وعلى الرغم من سعته إلا أنه كان يشعر بضيقه الشديد بسبب الاكتئاب الذي يرافقه والحالة النفسية التي يعاني منها، وحينما يدرك أنه ليس بمنأى عما أصاب جاره وتلك العجوز المسكينة، سيصيبه نفس المصير ما دام يحيا في ذلك الظلام الذي يلف الأنحاء، كل حين إلى آخر تغمض عيناه رغمًا عنه لدقائق من فرط التعب فيستيقظ على كابوس مريع لهؤلاء القوم

أصحاب البشرة البيضاء وهم يعمهون في ظلماتهم ويقتحمون منزله ويصيبون زوجته وأطفاله بالأذى، مرت عليه ساعات كالأعوام العجاف وهو يجاهد ألا ينجرف إلى الانهيار الفكري الذي سيكون مروعا لأبعد حد ممكن فجهازه العصبي لم يعد يتحمل فرط ذلك التفكير الضاغط في هؤلاء اللذين يكرهون الزنوج كره الأتقياء للموبقات، الدقائق متثاقلة فتشعر أنها لا تمر وجورج على تلك الشاكلة المحزنة حتى بدأ ضوء الفجر يشق ظلمة تلك الليلة البهماء التي تبدو في ظلامها كالعماء الأول، يجب أن ينهض جورج استعدادًا للذهاب إلى العمل، فمالك المقهى لن يرحمه إذا تأخر، بجسدٍ متثاقل من إسهاب الإعياء والهموم نهض جورج وملامحه تحكي وتقص كل ما بداخله من مشاعر، بهدوء ترجل إلى الحمام الصغير الذي بالكاد يكفي للوقوف بداخلِه، خلع ملابسه ووقف تحت الدش باستسلام شديد فظل رذاذ الماء ينهمر فوق جسده الجائع إليه كما هو جائع للراحة والسكينة، كان جسده يشرب لا يستحم، الماء يسقط على رأسه فتسير قنوات المياه الصغيرة بين لبدات شعره الخشن فتطوعها وتميل معها في استسلام، ارتدى ملابسه كرهًا فهو في حالة نفسية لا تعينه على الذهاب للعمل لكنه مرغم على ذلك، لن يشرب القهوة المغلية كما هي عادته على الرغم من أن مالك المكان يمنع الزنوج من أكل أو شرب أي شيء يُقدم داخل المقهى إلا إذا دفعوا ثمنه على عكس أصحاب البشرة البيضاء الذين خصص لهم طعاما وشرابا دون مقابل، لكن حالة جورج النفسية التي تضخم بها السوء حتى وصل إلى مداه لم تُعنه على تناول شيء، خرج من منزله وهم يجوب الطرقات ذاهبًا إلى عمله، هو يترجل ثلاثين دقيقة أو تزيد قليلاً يوميًا حتى يصل إلى المقهى، يمشي تلك المسافة كل يوم وحيدًا منذُ أن عمل في ذلك المقهى، اليوم سيسير بصحبة الحزن الشديد والأسى، كيف يجتاز الطريق وحيدًا وقد وَجَمَ لمايكل مما حل به ولتلك العجوز المسكينة التي لم تفارق خياله لحظة، عاصفة شديدة من المشاعر هاجت بداخله، تألم قلبه حتى أن الدموع كادت أن تطفر من عينه لولا أنه عالجها بالكتمان، ظل بصحبة تلك المشاعر حتى

حدث شيء غريب مباغت، إنه زميل العمل السمج يقف في منتصف الطريق بصحبة مجموعة من المجرمين الذين لا يختلفون عنه كثيرًا، هم فقط يمتلكون أجسادً ممتلئة بالعضلات ووجوه قاسية الملامح يبدو أنها لم تبتسم منذُ وقت طويل، وجوه تدرجهم في عداد الوحوش، الموقف لا يحتاج إلى شرح ولن يبذل عقل جورج مجهودًا خرافيًا ليدرك ما هو مقبل عليه خاصةً أن هؤلاء أصحاب الملامح المرعبة يحملون في أيديهم عصيًا خشبية مخروطة يحركونها ويخبطون بها على كفوفهم كأنهم يستعدون للقتال، المنظر قذف في قلب جورج الرعب، جال بعينيه فيهم حتى تأكد من الوهلة الأولى أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه ولن يستطيع أن يضرب أحدهم ضربة واحدة، كل ما عليه هو أن يتفادى أكثر الضربات وأن يُبعد الأماكن الضعيفة والخطرة في جسدِه اليابس الرفيع عنهم.

- إني لا أراك تتحدث إلينا أيها القرد الناطق، أعلم جيدًا أنها مفاجأة غير سارة لكن هذه مقابلة إجبارية ليس لديك الصلاحية في رفضها، أنا أتيت إليك بصحبة رجالي ليلة الأحد لكنك بمعجزة ما استطعت أن تفلت منا.

يتحدث إليه السمج بطريقة استفزازية للغاية، يتحرك بجسده في خطوتين ذهابًا وإيابًا، يرسم على وجهه تلك الابتسامة الصفراء التي تجبرك على صفعه من دون نقاش، أنفه قد انتفخت وتورمت فتضاعف حجمها على أثر لكمة جورج فعززت من استفزاز ملامحه لكن جورج لم يتحرك ولم يستفز حتى الآن.

- ماذا أيها القرد الناطق، أرى أنك متصلب لا ترد هل أنت واثق بقوتك أم دعوت الرب بالأمس لتنجو، يبدو أنك دعوت الرب في كنيستكم الفريدة كما تدعون بأنكم الأنقى والأقرب إلى الرب، لكني متعجب في حقيقة الأمر لهذه الثقة، ذات يوم كنت أترجل بالقرب من كنيسة تنتمي إلى تلك الطائفة التي تنتمون إليها، حركني شغفي كي أقترب بحرص خاصةً حينما استمعت إلى تلك الضوضاء التي تأتي من الداخل، نظرت عبر النافذة فوجدت مجموعة من القردة لا يختلفون عنك يقفزون ويصفقون،

يُحركون مؤخراتهم العملاقة بغباء شديد، تعجبت كثيرًا مما تفعلون وهل بهذه الطريقة إلى الرب تتقربون.

- أنا لا أفهم ماذا تريد تحديدًا، هل تريد استفزازي لأنفعل وتقوم بضربي، أنت لا تحتاج إلى كل هذا لأنك تستطيع فعل ذلك بسهولة.

اتسعت عين السمج في استفزاز.

- أنا لا أصدق ما تتناوله أذني، هل هذا تواضع منك أم أنك تعترف بذلك حقًا.

- إننا نحيا في مجتمع يسيطر عليه الظلم بشكلٍ مرعب ولن يستطيع أي منا مقاومة ما يقع عليه من ظلم، أنا لدي عمل وأنت زميل لي هناك وتدرك أن مالك المكان لن يسامح زنجيا قد تأخر، إن كنت تريد إهانتي فقد فعلت وإن كنت تنوي ضربي فمن الأفضل أن تفعل ذلك سريعًا قبل أن أتأخر أكثر من ذلك.

ضحك السمج باستهزاء شديد قبل أن يرد على جورج.

- هذا الكلام يتنافى تمامًا مع كلام مارتن لوثر كينج، القرد الزنجي الأكبر الذي نصحكم يومًا في خطابه الأحمق أن تقدسوا أنفسكم وألا تستسلموا للضعف، أنت الآن تستسلم للإهانة والضعف.

- مارتن لوثر كينج كان قردًا ذو ذكورة فائقة لأنه استطاع أن ينكح مجتمعا كاملا من البيض.

أراد جورج استفزاز ذلك السمج حتى ينتهي هذا النقاش سريعًا، غلت الدماء في عروقه وركض تجاه جورج فلكمه جورج بقبضة يده في أنفه مرة أخرى فسقط على الأرض وراح يبكي ويصرخ كسيدة منعمة سُرقت منها حقيبتها في إحدى الشوارع، فانهال عليه الجميع بالضرب، سقط جورج على الأرض ثم تقوس على نفسه كالعرجون القديم الهش وهؤلاء ينهالون عليه بالضرب، ينام تحت وطأة الضربات الثقال الواقعة على جسده، يضع يديه على وجهه ويدس رأسه بين كتفيه حتى لا تصاب بأذى، يتحمل الركل والصفع وينهال على أذنه وابل من الشتائم البذيئة، نهض زميل العمل

السمج وطلب من الجميع الابتعاد عنه، كانت عيناه حمراء تشع شررًا، أخذ من أحدهم الساق الخشبية ورفعها إلى أعلى وهوى بها على فخذِه بقوة فأطارت الضربة صوابه لكنه كتم الصِراخ بداخله، أراد جورج أن يحتفظ بجزء من كرامته أمام ذلك السمج الذي انتفش وبصق على جورج قبل أن يرفع العصا ليتلقى فخذه الضربة الثانية فكان الألم أكثر قوة لكنه كان قادرًا على احتماله، خبط السمج بيده على صدره بقوة ورفع العصا للمرة الثالثة وهوى بها على فخذ جورج فانتزعت منه هذه المرة تأوها ضعيفا بالكاد يسمع رسم على وجه السمج ابتسامة صفراء، لم يستطع جورج تفادي جزءً من العذاب بيديه حتى لا تكسر العصا ذراعه وهي في طريقها للضرب، رفع العصا وهم بالضربة الرابعة التي غاصت في اللحم حتى نخرت عظمة الفخذ فصرخ هذه المرة بشدة وبصوتٍ مسموع، هم بالضربة الخامسة فأمسك أحد الرجال العصا وطلب منه أن يكف عن ذلك حتى لا يموت، كلماته كانت صحيحة بالحد الذي جعل السمج يقتنع فركل جورج بقدمِه ثم هم بالانصراف هو ومن معه.

الدماء تنزلق من مواضع كثيرة من جسد جورج، وصلت لوجهه عدة ركلات من أقدام هؤلاء الإجراميين، قدمه قد أصابها ألم يعتبر هو الأقوى، لم يشعر بألم كهذا في حياته، حاول النهوض لكنه سقط على الأرض سريعًا، نظر في ساعة يده فوجد الوقت قد تأخر، مالك المكان لن يتفهم ما حدث وأسرته لن تتحمل أي خصومات أخرى، سيزدادون فقرا حتى يتم بيع المنزل، نهض متحملاً الألم وبدأ يعرج وهو يتحرك قدر المستطاع، يحاول أن يتناسى الألم ويجاهد من أجل الوصول، ضغط على قدمه أكثر وتحامل على نفسه وبدأ يركض بسرعة خفيفة وهو يئن من الألم بصوتٍ مسموع، ركض مسافة صغيرة ثم سقط على الأرض من شدة الألم، لا رفاهية للتوجع والبكاء، نهض سريعًا حتى لا يترك المجال لجسده ليتراخى، كان بالنسبة له عذابًا وشرًا لكن الشر الأكثر الذي كان يسيطر عليه هو الصورة الذهنية التي كانت تصل إليه وهم في أشد حاجة إلى المال فيزداد الأدرينالين في جسدِه ويهم بالنهوض ليقف ويبدأ بالركض مرة أخرى، شعر جورج بأن هناك ما يخزه في جلد فخذه الذي ضرب عليه، يخزه كأنه

شوكه حادة السن قد غرزت في لحمِه، كان لا يشعر بها قبل ذلك لكن بدأت تزعجه، بهدوء بدأ يتحسس بيده الضريرة حتى اكتشف مصدر ذلك الألم، فقد غاصت في لحمِه بعض الأخشاب التي خرجت عن الإطار المحدد لها على جانبي الخشبة التي ضربه بها صديقة السمج، غاصت فكانت أشبه بالإبر في أنحاء عديدة، انتزع معظمها حتى بات الألم محتملا ثم هم بالركض بسرعة أكبر هذه المرة حتى لا يتأخر أكثر من ذلك، تعمد أن يتجاهل استغاثة قدمه وصراخها حتى سقط على الأرض وقدمه تعلن استياءها وتبرمها على ذلك التحميل الذي يزيدها ألمًا على ألم، صرخ جورج وضرب بيده على الأرض ثم نهض وحاول الركض مرة أخرى دون استسلام، ظل على هذه الشاكلة المتقطعة التي تتأرجح بين الركض والسقوط حتى وصل إلى مقر عمله لكنه وصل متأخرًا بساعة ونصف كاملة.

وصل جورج وجسده قد سقط في جب الإغماء، وجهه قد انتفخت منه أجزاء نتيجة الركلات التي وصلت إليه وسالت الدماء من أجزاء أخرى فتغيرت ملامحه على وجه الحقيقة لا المجاز، هم بالدخول إلى المقهى، هيئته التي تبدلت والدماء التي سالت على ملابسه المتسخة أصابت الجميع بالرعب والذعر، كان جورج قد أصابه الإعياء الشديد لكنه كان لابد أن يقاوم، ترجل بتلك الطريقة التي تفضح آلام ساقيه عدة خطوات وقد ارتفع الهمس بين الزبائن حتى أن طفلة صغيرة راحت تصرخ خوفًا من هذا الكائن المرعب فإن خلفيتها البسيطة عن هؤلاء الزنوج أصحاب حلزونات الشعر الخشنة وحوش أكلي لحوم البشر، صرخت وتعالى صراخها فدفع أحد المتعصبين الجالسين في المقهى بالوقوف ونهر جورج وسبه قبل أن يدفعه بعيدًا، يطلب منه بأسلوب مقزز أن يبتعد بهيئته التي تبدو كهيئة الشمبانزي المزعجة، جورج لم يتأثر بكلامه فهو قد اعتاد مثل هذه الأشياء، كان يبحث في كل ركن عن مالك الكافية، يبحث عنه كنابش قبور يبحث عن خبيئته حتى وجده يخرج من الحيز الذي كان فيه، خرج على أصوات اعتراض الزبائن وجزعهم خرج ليجد أمامه جورج بعدما تحول إلى هذا المسخ، كانت عيناه مليئة بالدموع وملامحه كانت أشبه بملاكم تلقى

جميع الضربات في وجهِه، توجه إلى مالك المكان وعلى وجهه علامات الرجاء المختلطة بالاستغاثة، وهو يعرج.

- أنا لم أتأخر، حدث شيء خارج عن إرادتي، هاجمني بعض البلطجية وأرادا أن يقتلونني فراوغتهم واستطعت أن أهرب منهم ولم تصبني سوى بعض الإصابات الطفيفة التي تراها، أنا أهم بالعمل، سأنهي كل شيء بسرعة.

أراد جورج أن يخفي حقيقية ما حدث على مالك المكان حتى لا يشعر بأن هناك خلاف وعِراك بين اثنين من العاملين هنا، وقتها سيقرر أن يتخلى عن أحدهما وبالتأكيد سيكون جورج، أراد أن يطمر كل شيء داخل قلبه الجريح ولا يفصح عنه، كان مالك المكان ينظر له بهدوء مريب وغير مريح، سكون ونظرات عين بدا فيها كالضبع، أنهى جورج حديثه وهم بالدخول إلى مكان عمله فاستوقفه مالك المكان بيده ومنع دخوله، نظر في ساعة يده.

- أنت متأخر عن موعد عملك لأكثر من ساعة و40 دقيقة.

- انظر إلى وجهيإنه يحكي تاريخ وقصة ما حدث، ليس ما حدث فقط بل تاريخ العنصرية كاملاً، انظر إلى ملامحي وإلى قدمي، انظر إلى حالي، ألم يكف ما حدث، ألم يكف ما نتعرض له كل يوم، ألم يكف ما أنا فيه وفي الوقت نفسه أصر على الحضور، ألم يشفع لي ما حدث.

- هذه الأشياء كلها لا علاقة لي بها، لن يسمعك أحد وأنت تصرخ، كل ما يهمني هو الحفاظ على أوقات العمل وهذا ما خالفته لذلك أمامك عرضان يجب أن تختار واحدًا منهما.

خامرت رأسه الخواطر وهربت الدماء من شرايينه وهو يمني النفس بألا يضعه مالك المقهى في خيارٍ صعب، أردف كلامه.

- العرض الأول هو أن تقبل الاستمرار في العمل هنا بعد خصم نصف راتبك

الأسبوعي بسبب تأخرك عن موعدك وجزاءً لك عن الذعر الذي سببته للزبائن، العرض الآخر هو أن تخرج قبل أن أركل مؤخرتك.

وقع كلامه كئيب حتى أنه قد تجاوز المدى والاحتمال، وجد جورج شعورا غريبا مميتا كامنا في أعماق صدره، شعور عاد به لما حدث لمايكل ولتلك العجوز المُسنة التي ماتت ظلمًا وقهرًا، سقط جورج في بئر مليء بالأسئلة التي لا تنتهي، احتشدت في رأسِه كغيوم ليل الشتاء، هل يمكن لعائلته أن يعانوا أسبوعًا آخر بسبب هذا السمج زميل العمل؟؟ ماذا إن احتاجوا إلى المال؟؟ ماذا إن أصاب أحدهم مكروه مثلما حدث مع مايكل؟؟ ضغطت الأسئلة جورج في الوقت الذي صدحت الأصداء الزاعقة من حولِه، تكهربت الأجواء وتعالى الضجيج الاتي من كل جانب يطالبون مالك المكان بالقضاء على هذا القرد الناطق وإلقائه خارج المكان، غلت الدماء في عروقِه أكثر حينما وجد زميل العمل السمج وهو يشير إليه بإشارات بذيئة من خلف الجميع وهو يغمض إحدى عينيه ويخرج له لسانه، لم يتمالك جورج أعصابه وعلى عجل توقف الجميع عن الكلام، تحديدًا حينما أطلق جورج صرخة رهيبة شقت كل شيء من حوله، لم يتحمل جهازه العصبي أكثر من ذلك فهَمَ بالتعبير عما يحمله ليزيح جزءً من الأعباء التي رانت عليه، لم يشعر جورج بتلك اللكمة التي خرجت منه لوجه مالك المكان فأسقطته أرضًا، تعالت الصرخات في المكان وبرز الجنون في كل جانب، جورج يصرخ ويضرب بيديه كل ما يتواجد حوله من أثاث أو بشر، كان لا يعي ما يفعل ولا يدرك حجم الكارثة التي يتسبب بها، أصبح جورج كالزجاج، عندما تحطم صار أقوى وأكثر إيذاء، الجميع راحوا يحدقون فيه كالمذهولين، لا يدركون كيف تحول هذا النحيل الضعيف إلى كينج كونج يحطم كل شيء حوله ويضرب في الجميع بلا هوادة، لم يستطع أحد الاقتراب منه ولم يمنعه أحد مما يفعل، حتى زميل العمل السمج قد تبخر فلو أمسك به جورج لمزقه إربًا، ظل على تلك الحالة حتى حول معظم المكان إلى ركام وركض معظم الزبائن هربًا والبعض الآخر تبرع وقام بالاتصال بالشرطة التي سرعان ما تحركت حينما أدركت أن زنجيا مجنونا يقتل الجميع، وصلت قوات من الشرطة إلى

المكان بسرعة البرق في الوقت الذي أصاب فيه الإعياء والتعب جورج فبدأ يكتنف رأسه دوار شديد فبدأ يتحرك كطفل صغير أيقظه أهله قبل الفجر لتناول السحور، لم تعنه قوته على المقاومة ولم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه فوقع سريعًا في قبضة أيديهم وتم القبض عليه.

- 7 -

كم هو ممتع أن تنام كطفل بريء من دون أن ينقر رأسك طائر القلق كل حين، هذا ما كانت تتمناه الزوجة التي تنام ويفترش جسدها كوم السيلاج ولكنه نوما ليس كالنوم الهادئ، هو نوم مشروط بألّا يصدر منها صوت أو أي حركة مهما حدث حولها من أحداث حتى لا يشعر بوجودها ذلك الشرطي الذي هم برفع مستأصل النباتات لينزل به على كوم السيلاج كما يفعل منذُ أن شرع في الدخول إلى المبنى، لسوء حظ الزوجة هذه المرة أن الضربة التالية فوق ركبتها مباشرةً، الشرطي يرفع أسنان الشوكة ويهم بالنزول بها، تتحرك شفتيها بالدعاء للرب لينجيها، ما قطع عليه فعلته هو صوت زميله الشرطي الذي كان يقف على باب المبنى، يضرب بضوء كشافه القوي المكان فينير ظلمته، بقعة الضوء داعبت عين الشرطي علاوة على صوت زميله فتوقف عن ما كان يفعله لتنجو الزوجة بأعجوبة.

- الجميع عند منازل هؤلاء الزنوج بصحبة الشِريف للبحث عن ذلك الهارب وأنت هنا تداعب كومة السيلاج!!

- وماذا تفعل أنت هنا! لماذا لا تنضم إليهم؟؟

- أنا كنت أتجول في تلك المناطق المجاورة لمنازل الزنوج لعلي أجدهم فاستمعت إلى صوت بالداخل وحينما دخلت اكتشفت أنه أنت!!ماذا تفعل؟؟

- أبحث عن جورج وعائلته.

- داخل كومة السيلاج!!هذا غير منطقي!!

- أنا لدي دليل.

- وما هو؟؟

استمعت الزوجة إلى مستأصل النباتات وهو يصطدم بالأرض بعدما ألقاه الشرطي من يده ثم تلاه وقع أقدامه وهو يبتعد عنها، أفكار عديدة هبطت على رأسها في تلك اللحظة، كأن خيالها كان معطلا وعاد إلى العمل، آلاف السيناريوهات رُسمت في مخيلتها فظفرت بذلك الذي همت فيه بالمغادرة، عليها أن تبتعد وتتحرك من مكانها خاصةً حينما استمعت إلى وقع أقدامه تبتعد باتجاه لوحة الكهرباء الموجودة بالقرب من باب المبنى، بدأت تزحف على بطنها داخل السيلاج الكثيف، تزحف كجندي تحت الأسلاك الشائكة، تتحرك ببطء شديد حتى لا تصدر أي صوت أو يشعر بها أحد، السيلاج الكثيف والصغير يدخل في أنفها وأذنها وفمها إذا فتحته لتستنشق الهواء الخفيف الذي يقل داخل الكومة، تجاهد لتزيله كلما دخل بكثافة إلى أنفها لتستطيع التقاط أنفاسها، تتحرك وتتقدم أكثر كالسلحفاة التي على مضمار سباق في الوقت الذي أخذ فيه الشرطي زميله، اقتاده بهمجية إلى لوحة الكهرباء ليخبره أنه وجدها بهذا الشكل، أخبره زميله أنها ربما هي مكسورة من البداية لكن أبطل الشرطي هذا الافتراض، تحرك به حتى قطرات الدماء وجلس الاثنان وضع القرفصاء وراح يشرح له أنه وجد هذه القطرات أسفل البوابة قبل أن يفلق قفلها إلى نصفين، في تلك الأثناء كانت الزوجة تجاهد لتبتعد في الوقت نفسه تستمع إلى حديثهم جيدًا، تجز على أسنانها وتشد عليها لأن الجروح التي في فخذيها راحت تعبر عن نفسها فتبث ذلك الشعور المؤلم لكن لا مجال للرفاهية، إمَّا أن تتحمل وإمَّا أن ينكشف أمرها، عليها أن تخرج رأسها لتعلم هل ابتعدا بالقدر الكافي أم لا، من دون مقدمات رفعت رأسها خارج السيلاج فبدت كالقندس الذي يخرج رأسه من الأرض، إنهما هناك لازالا يقبعان عند بوابة المبنى يتفقدان بقع الدماء، وقعت عيناها على السُلم الذي يقود إلى الدور الثاني والذي بات قريبا منها جدًا، سلم حديدي بمثابة طوق نجاة بالنسبة لها، ألقت نظرة سريعة على الشرطيين فوجدتهما لازالا منشغلين ببقعة الدماء، من

دون مقدمات تحركت سريعًا وبصرها يتأرجح بين السلم وبينهما حتى أدركته، الجرح يصرخ لكن تجاهلت صراخه، بخفة شديدة راحت تصعد درجات السلم، وعيناها ترمقهما حتى انتصب جسد واحد منهم ليعود إلى مواصلة البحث داخل السيلاج، زوجة جورج في منتصف السُلم، الظلام الموجود في الداخل سيحتاج منه مجهود بصري كبير كي يدركها خاصةً أنه عائد إليه بعد الضوء الموجود في الخارج، جدت في الأمر بالسرعة القصوى التي تتناسب مع جرحها وإصابتها المنتشرة في فخذيها، الشرطيان يتقدمان ووقع أقدامهما يقترب متعاظمًا في الوقت نفسه هي تجاهد للصعود حتى وصلت إلى الدور الثاني في الوقت المناسب، أمسك الشرطي بالشوكة وشرع في غرزها بكومة السيلاج مرة أخرى واحدة تلو الأخرى، الزوجة في الدور العلوي تبحث عن مكان تختبئ فيه من دون أن تصدر صوتا، هناك مكينة لفصل حبات الذرة ثم نقلها عبر السير إلى المبنى الذي حاول جورج الدخول إليه سلفًا وتنقل إليه حبات الذرة تمهيدًا لتغليفها في أكياس بلاستكية، هناك أيضًا ركام من قطع غيار خاصة بالماكينة الكبيرة بالنسبة لمساحة الدور، يخرج السير من المبنى عن طريق فتحة صغيرة في الحائط يتسلل منها الضوء على استحياء لكسر حاجز الظلام داخل المكان، التفتت الزوجة حولها تبحث عن شيء تتوارى خلفه فلم تجد سوى الماكينة، حشرت نفسها في حيز ضيق بجوارها، الضابط لازال يضرب بالشوكة في السيلاج بكل قوة وحزم حتى انتهى، لم تسفر كل محاولاته عن شيء، تجول بعينيه في المكان لعله يلمح ما يعينه على تكملة البحث بعدما ألقى بالشوكة على الأرض.

- ماذا علينا أن نفعل؟؟؟

- كنت أعلم أنكلن تصل لشيء أنت مجرد فاشل.

- أنا لست فاشلا أنا أحاول.

- أعلم أنك تحاول وأعلم أيضًا أنك تود أن تثبت للشِريف عكس ما يظن لكنك تبحث في المكان الخطأ.

- كيف؟؟

- أنا أعتقد بأنهم ذهبوا إلى الطابق العلوي، هذا أكثر منطقية من البحث داخل كومة غبية من السيلاج.

استمعت الزوجة إلى ذلك الحديث فهاجت أعصابها وتوترت بالحد الذي جعل قدمها ترتعش وهي تتحرك بعينيها في كل مكان، برزت الخطورة أكثر حينما استمعت إلى وقع أقدامهما تقترب من السُلم ثم بدأت بقعة الضوء بالظهور أسفل الفتحة الموجودة أعلى السلم، أدركت الزوجة أن أمرها قد انتهى وأن هذين سوف يلقيان القبض عليها، تابعا الصعود حتى وصلا إلى أعلى، الزوجة انكمشت على نفسها أكثر وبدأت شفتاها تتحرك بالدعاء ويدها ترسم الصليب على رأسها وكتفها، الشرطي يُحرك كشاف الضوء داخل المكان ثم استمعت إلى الشرطي يتحدث مع زميله بأنهما سيبحثان بجوار الماكينة، لا مجال للهروب أو الحركة، لا مجال سوى انتظار لحظة القبض عليها، ضيق الحيز الذي تنكمش فيه لم يمكنها من المراوغة، تعاظم صوت وقع الأقدام حتى إذا اقتربا منها استمعوا جميعًا إلى صوت الشريف يتحدث إلى الفتاة الصغيرة، تبادلا النظرات التي تملأها علامات الاستفهام، سأل أحدهما الآخر إن كان هذا صوت الشرِيف فتأكد الآخر بعدما استمع إلى صوته بتركيز شديد، "علينا أن نرى ما الذي يحدث ولماذا جاء إلى هنا" أنهى كلامه ثم هرعا بالنزول إليه قبل أن يقتربا من الماكينة فزفرت الزوجة وشعرت أن طاقة جديدة من الأمل قد فُتحت لها.

***

قبل ذلك بدقائق:

تقف الفتاة في حيرة من أمرها بعدما ألقى عليها الشِريف تهديداته بأنها في حال كذبها سيقع عليها عذاب أليم وستجعل ذلك الرجل يعيش بضمير ينخر فيه لمشاركته في قتلها، أخذت الهواجس تتلاعب بها وتتماوج في رأسها، هاجت بها عاصفة من الخيالات السيئة حينما خُيل إليها أنها ذهبت بصحبة هذا الشِريف الشرس وضباطه

وانكشف أمرها وأدرك أنها تتلاعب به كما يتلاعب القط بالفأر، لن يشفع لها سنها أو هدفها النبيل في إنقاذ والدها الذي ظل ينظر لها وهو يُدرك جيدًا نواياها الحقيقية تجاه ذلك الفعل، الدماء سارحة على وجهه وتنزلق على حاجبيه وحول عينييه فتكسو ملامحه باللون الأحمر، لكن لم تمنعه الدماء من إرسال رسالته إلى ابنته التي ورطت نفسها بهذا الأمر مع الشِريف الذي اقترب من أبيها ثم جلس بجوارِه القرفصاء.

- أنا أرتاب في أمر ابنتك، ربما أرادت أن تخرج رقبتك من بين فكي الكلب وتضع مكانها رقبتها وأعانها على ذلك جارك باعترافه، فعليك أن تودعها لأنك لن تراها ثانيةً أن كانت من الكاذبين.

أنهى حديثه وطبطب بيديه على كتفه كنوع من الاستهانة في الوقت الذي شعر فيه الأب بالريبة أكثر من أي وقت مضى، أطال النظر إليها وهي تفكر في إجابة أول سؤال سيطرحه عليها، من أي طريق سوف نتجه؟؟ هي لا تريد أن ينعقد لسانها أمامه فيتأكد هو من شكوكه فيصب عليها وعلى والدها العذاب صبًا، هي تريد أن تحتفظ بإجابة سريعة وفي الوقت نفسه مقنعة، هَمَ الشريف بالانصراف فوجد الأب نفسه يُمسك بقدمِه لا إراديًا كأنه يستعطفه في صمت ويطالبه بأن يبتعد عن ابنته، نظر إليه برجاء شديد بعينيه اللتين بدتا من الضيق كأنه قد أغلقهما أو أنه أعمى، ابتسم الشِريف وشعر بتلك العظمة التي كان يخشى زوالها، بهدوء حاول تحريك قدميه ليترجل إلى حيث يصبو فوجد الأب يستغل كل ما تبقى له من طاقة في عصر يديه على ساقيه حتى لا يبرح مكانه ويصيب ابنته بأذى فازدادت ابتسامة الشِريف توحشًا قبل أن يعالج الأمر بركلة أطاحت بوجه الأب بعيدًا وجعلته يترك ساقه لكن دفعته العظمى لكي يقف بحذائه الضخم على يد الأب المسكين، رفع مقدمة قدمه ليجعل الثقل كله متركزًا في كعب الحذاء الذي وقف به على كف يده من أعلى وراح يهرسه بكل قوة كونه تجرأ وحاول منعه، أراد أن يعزز الخوف في قلوبهم أكثر، أراد أن يخبرهم بأنه كما هو ولن تهتز ثقته بنفسِه ارتفع أنين الأب لكن لن تلين الصخرة بهذه البساطة، استمر في هرس كفِه حتى بدأ يشعر بطقطقة العظام تحته فيشعر

وكأنه يترجل فوق أكوام من أوراق الشجر الجافة، شق هذا المنظر على ابنته ودفعها للخروج عن صمتها مطالبه الشِريف بالتحرك حتى لا يهرب جورج وعائلته فما كان من الشِريف إلا أنه ضاعف قوته وراح يدهس يد والدها أكثر وبقوة أكبر كأن ساعة الطعام قضيت ويريد أن يستزيد من صنفٍ ما، ظل على تلك الحالة حتى أشبع رغبته في الانتقام ثم رفع قدمه وترجل تجاه الفتاة المذعورة حبيسة الدموع، وقف أمامها بهيبته لثوانٍ معدودة وفجأة وبدون سابق إنذار وجدت كف يده يقبض على رقبتها من الخلف بحزمٍ كمخالب النسر حينما يحط على الفأر، انكمشت رقبتها لكن يد الشِريف كانت قابضة عليها بقوة تعمد فيها أن يصيبها بألم شديد ليختلط مع الخوف، غرز أصابعه أكثر ثم سحبها تجاهه بقوة تعمد فيها أن ترتطم رأسها بجسده فيصيبها ما يصيبها أراد أن يرهبها نفسيًا تلميحًا وتصريحًا قبل أن يلامس فمه صوان أذنها الصغيرة ليسألها إلي أي طريق سنتجه!!لملمت شتات أعصابها التي تناثرت في كل جانب حتى لا يُخيل إليه شيء ولا يشعر بخوفها أو توترها الشديد، أشارت لا إراديًا ببنانها إلى الطريق الذي يمكث في آخره المبنى الذي تختبئ فيه زوجة جورج!!هي لن تجد سوى ذلك الطريق لتشير إليه، فعلى يمينها مزرعة السيد نيكولاس كاره البشرة السمراء ولن يقتنع الشِريف إذا أشارت إليها وعلى يسارها مجموعة من المنازل خلفها مكان واسع مفتوح ومكشوف بها بعض الأشجار ومن المستحيل أن يلجأ إليه أحد يلوذ بالفرار، أخذ الشِريف يفكر لوهلة هل عليه أن يرضخ لقرارها أم عليه التفكير قليلاً، نظر في ساعة يده فراوده شعور غريب حينما أدرك أنه أهدر الكثير من الوقت، أمر مجموعة من رجال الشرطة أن تأتي معه والمجموعة الأخرى تبقى هنا حتى إذا ظهر جورج ألقوا القبض عليه فربما يكون قريبا من هنا ويتابعهم ثم يستغل هذه الثغرة ويحاول الفرار، لم ترتخ قبضة الشرِيف الماسكة على مؤخرة عنقها، يتحرك بها تجاه ما أشارت إليه،ويتحرك الجميع في مشهدٍ مهيب، الفتاة خائفة لا تدرك أي مصير ينتظرها في النهاية، هل سيكون بانتظارها البرزخ الذي سيشدها من درب الموت إلى فسحة العيش أم أنه البرزخ الذي ستنتقل إليه بعدما يقبض

الشِريف روحها، ربما لن تنال هذه الراحة وتظل حبيسة عذابه الأليم تُمني النفس بأن يقبض الرب روحها، كل هذه الأشياء كانت تتقلب في رأسها وهي في طريقها إلى نهايتها المحتومة، لكن لا مجال للتراجع فقد ضغطت على الزِناد وانطلقت الرصاصة، ترجلت بخنوع وهي تحت قبضة الشِريف حتى إذا كانت على شفا الخروج من قريتها الصغيرة تجولت بعينيها التي ترتعش جفونها خوفًا في وجوه جيرانها الأسرى الذين يقبعون في ذلٍ وحقارة تحت وطأة رجال الشرطة، نظرت إلى وجوههم التي يكسوها الخوف وملامحهم فأخذوا ينظرون إليها بعيونٍ غارت في المحاجر بنظرات تنُمُ عن ذلك الألم الذي ينخر في أحشائهم وقلوبهم كأنهم يودعونها إلى مثواها الأخير، مر عليها الموقف كغيوم من التوتر الخانق والخوف المحتوم، استمر الترجل وأخذوا يبتعدون شيئا فشيء حتى اتسعت المسافة بينهم وبين بيوت الجيران الذين ودعوها منذُ دقائق، المكان شبه خاوي لا يظهر فيه سوى مجموعة من الأشجار المتناثرة على مسافات غير متساوية، استمروا في السير حتى بدأ الفأر يتحرك في صدر الشِريف فبدأ يزفر بغضبٍ يتصاعد تدريجيًا لن يوقفه سوى ظهور أحد أفراد عائلة جورج وهي على يقين بأنه لن يحدث!!

- بدأت ساقاي تؤلمني من السير بلا عائد، أنا لا أرى أية آثار تدل على أنهم مروا من هنا فقط مجموعة من الأشجار وظلام دامس.

زمت الفتاة شفتيها قلقًا وتضاعفت دوامات القلق بداخلها فراحت تضربها بلا هوادة، انتظر الشِريف دقائق ولم يجنِ أي إجابة منها فجذبها تجاهه بقوة مفرطة فشعرت بالخوف أكثر من أي وقت مضى، ظهر على وجهه شبح أكثر بشاعة من تلك الأشباح التي ظهرت عليه سلفًا، تشيطنت ملامحه بالقدر الذي كان الرعب يستفحل في صدرها الذي كان يرتج كصخرة تتقلقل في منحدرٍ.

- لماذا لا أسمع منك إجابة؟؟؟؟ إن حدث ما أتوقعه سيكون هذا الظلام هو آخر ما ستشاهدينه قبل قتلك.

فقدت الفتاة سيطرتها على جسدها وفقدت القدرة على أعصابها فراحت ترتعش لا إراديًا، هي كانت تتوقع ذلك لكن الحديث عن الموت يختلف عن الشعور به، له أحاسيس لن تظهر سوى حينما تعيشه، ضاقت عين الشِريف وأخرج سلاحه الناري ووضع فوهته على جانب رأس الفتاة، أخبرها بنبرة صارمة بأنه سوف يجعل تلك الرصاصة تتجول في رأسها، أغمضت الفتاة عينيها وراحت ملامحها ترتعش استعدادا للموت، فإذا بأحد رجال الشرطة يصرخ في الجميع، ينبههم بوجود مبنى على بعد أمتار منهم وربما عائلة جورج تختبئ هناك، راقت الفكرة للشِريف وضاقت عيناه على أثرها، أعاد إمساك الفتاة مرة أخرى بقوة أكبر وأعنف هذه المرة، ضغط على رقبتها بيديه حتى استمع إلى طقطقة عظامها أسفل أصابعه وهم يترجل بصحبة زبانيته إلى حيث أشار ذلك الشرطي.

استمع إلى صوت ارتطام حديد ببعضه البعض موقع الشريف وأعوانه كان بالقرب من ذلك المبنى الذي يأتي منه الصوت تحديدًا أسفل السير الذي يربط المبنى بالآخر أمَّا الباب فكان على الجهة الأخرى منهم، الشِريف تحدث إلى الفتاة الصغيرة وكان يخبرها بأنه يتمنى أن يجدوا عائلة هذا الزنجي هنا لأنها فرصتها الأخيرة قبل أن يقتلها، تسلل الصوت إلى أذن الشرطيين قبل أن يهموا بالتفتيش عن زوجة جورج في الطابق العلوي!!رمية من غير رامٍ أنقذت زوجة جورج من الاعتقال، بدأ الشِريف يلقي الأوامر على رجاله ويطلب منهم البحث عن الهارب وعائلته داخل المبنى فهرعوا جميعًا بالذهاب إلى الباب ولم يتبق سوى الشِريف والفتاة الصغيرة التي انكمشت على نفسها من شدة الخوف، ما إن وصلوا بالقرب من الباب حتى وجدوا زملائهم يخرجون من الداخل، ألقوا عليهم بالأسئلة فأخبروهم بإيجاز ما قد حدث قبل أن يقصوا القصة تفصيلاً على الشِريف الذي استمع إليهم، من الدور الثاني استمعت زوجة جورج إلى الحديث فأدركت بأن المكان أصبح خاويًا وليس هناك من يبحث عنها، لا يوجد أمامها سوى التحرك، هي تدرك أنهم سيعودون إليها لا محالة، فقط هم يتصارعون الآن ليثبت كل منهم للشِريف أنه الجدير بالثقة، نظرت حولها

فلم تجد سوى تلك الفتحة التي يخرج منها السير إلى المبنى الثاني، لا مجال سوى العبور إلى هناك عبر ذلك السير إذا أرادت النجاة!!حاولت إيجاد حل آخر فلم تجد سوى ذلك الحل الصعب، استمعت إلى الشِريف وهو يأمر رجاله بالعودة إلى المبنى!!أمرهم بالتفتيش الدقيق خاصةً الطابق العلوي، بسرعة البرق نهضت الزوجة وذهبت إلى الفتحة التي يخرج منها السير، الماكينة عالية ستحتاج منها إلى رفع ساقيها، بصحبة الألم الناتج عن التهتك الذي طال فخذيها في محاولة الهروب الأولى، تحاملت على نفسها، جزت على أسنانها وهي تشعر بذلك الألم، جسدت ملامحها كل تلك الأحاسيس التي ترافقها في رحلة الصعود إلى الماكينة حيث القمع المجوف الذي توضع به الذرة تمهيدًا لوصولها إلى السير، تشبثت بيدها لتحفظ توازنها قبل أن تهم بصعود ما تبقى من جسدها وبقدمها الأخرى لكن ما لبثت أن وصلت إلى أعلى الماكينة حتى اختل توازنها وسقطت قدماها في تجويف القمع حيث السكاكين الحادة المسئولة عن بذل الذرة وفصل حبوبها، وزنها الثقيل بالنسبة لوضعها غير المتزن جعل قدمها تغرز بقوة داخل القمع مما أعطى للسكاكين فرصة جيدة لشق جلدها وإصابتها ببعض الجروح، كتمت صراخها كما فعلت من قبل، شعرت بالدماء الدافئة وهي تخرج من جسدها في مسارات عشوائية، لا مجال للألم، لا وقت للتأوه والتوجع فرجال الشرطة على وشك الوصول، سحبت قدمها لكنها وجدتها قد غرزت في باطن القمع وسط السكاكين التي أكلت من ملابسها وحذاءها ما أكلت، كل نداءاتها لم تجد منها سوى صمتًا وعنادًا، حاولت معالجة الأمر وتحمل كم الألم الرهيب لكن كلها كانت محاولات لم تجنمنها شيئا، بدأ رجال الشرطة بالتحرك إلى داخل المبنى، وقع أقدامهم العالي وصل إلى أذنها فدفعها بحماس أكثر إلى أن تنزع قدميها فلم تستطع، مدت يدها داخل القمع فاكتشفت أن عليها التخلي عن حذائها لتُخرج قدميها إن أرادت، بسرعة بدأت تفك رباط الحذاء تمهيدًا لنزع قدميها لكن أبت الأسنان أن تتركها دون أن تترك ذكرى على ساقيها التي بدأت تنزف في أكثر من موضع، ارتفع وقع أقدام رجال الشرطة وبدأت كشافاتهم تكسر حاجز الظلام داخل المبنى، عليها أن تسرع إن أرادت

النجاة، تحاملت على نفسها وبدأت تزحف ببطء على بداية السير المطاطي، هي لا تدرك هل سيتحمل قوامه الحديدي المعلق في الهواء وزنها أم لا لكن لم يترك لها القدر أي اختيار آخر، كان لابد من خوض التجربة وإلا ستسلم نفسها لطغاة العنصرية، بدأت تزحف على أربع وقلبها يرتجف وهي تستمع إلى أزيز الحديد وهو يصرخ معبرًا عن الوزن الثقيل، صكت أذنها واستمرت في طريقها دون توقف حتى إذا عبرت بنصف جسدها العلوي من تلك الفتحة التي يخرج منها السير برزت المشكلة، النافذة صغيرة بالحد الذي يعيق خروج مؤخرتها بسهولة كونها تُعاني من امتلاء في النصف السفلي من الجسد، أخذت تتلوى بجسدها بالشكل الذي يمكنها من العبور، ستحتاج إلى قوة أكبر وستشعر بألم أكثر لتمر بتلك المؤخرة اللحيمة، ظلت تصارع النافذة بكل قوتها التي تتزايد كلما تخيلت أن رجال الشرطة باتوا على شفا الإمساك بها، هي تريد أن تولد من جديد، في السابق هي شعرت بآلام الولادة والآن هي تشعر بألم الجنين وهو يحاول الخروج من قناة الولادة، هنا لن يتمدد عنق الرحم ولا يوجد هرمون الأوكسيتوسين الذي يهدئ من روع الجنين، في الولادة هي تركز على خروج الطفل الآن هي تركز على الخروج بنفسها، تنكمش ملامحها ويتعالى أنينها وهي تجاهد حتى تمكنت من الخروج بصعوبة بالغة لتبدأ بالدخول إلى مهمة أكثر مشقة عن سابقتها، عليها أن تسير على أربع عبر ذلك السير المائل المعلق في الهواء حتى المبنى المقابل له، الأمر مرعب حقًا لمجرد تخيل ذلك المشهد ولو كُسر ذلك القضيب الضعيف الذي يحمل السير لسقطت على الأرض فتنكسر عظامها بسبب بُعد تلك المسافة المرتفعة عن الأرض لكن لا سبيل سوى ذلك، أغمضت عينيها وأخذت تحفز نفسها على الحركة، وقعت عيناها على الشِريف الذي أخرج لفافة تبغ وأشعلها وهو يوزع النظرات المرعبة على الفتاة التي يرتعش كيانها بشكلٍ هستيري، بهدوء بدأت تُحرك قدميها ويديها وهي تمشي على أربع بتلك الوضعية التي لا يُمكن سواها، مرت الخطوة الأولى بسلام فدفعها ذلك للثانية ومنها للثالثة ومنها للرابعة ثم توالت الأمور على شاكلة أسرع حتى وصلت إلى منتصف السير تحديدًا فوق رأس الشِريف والفتاة الصغيرة،

بدأت ساقها تؤلمها بسبب الجروح الموجودة في كل مكان في فخذها لكن عليها أن تكمل، ثوانٍ معدودة كانت تلتقط فيها أنفاسها وتستعيد جزءً من طاقتها خاصةً أن الارتفاع أصبح أعلى والانحراف يحتاج إلى مجهود أكبر في الصعود والرياح صارت أقوى، زحفت ثلاث خطوات أخرى حتى بدأت تشعر باهتزاز السير وحامله، هي في المنتصف حيث النقطة الأضعف في تحمل الأوزان، النقطة التي عندها يلتوي إذا كان الوزن غير محتمل والساق مثبت من الطرفين، عليها أن تتخطى هذا الجزء بحذر شديد، ترسل بصرها كل حين ناحية الشِريف والفتاة لتتأكد أنهما لم يلتفتا إليها، إذا رفع أحدهما عينيه إلى أعلى لانكشف أمرها، تيارات الهواء الشديدة أصابتها بصعوبة في التنفس وميل السير بتلك الزاوية أصابها بالإعياء الشديد، فقرات ظهرها كانت تصرخ بسبب تلك الوضعية الصعبة التي تتحرك بها ولا يمكن لها تعديلها، ميل السير سمح للدماء أن تخرج من الجروح التي تملأ فخذها وساقيها حتى تجمعت في أبعد نقطة مائلة من جسدها وهي كاحلها، تفحلت النقطة حتى زاد وزنها فتركت قدمها وسقطت على صوان أذن الفتاة اليمنى والتي هي على الجهة الأخرى للشِريف، شعرت بها لكنها لم تأخذها في الاعتبار فقط حركت يدها بجوار أذنها ظنا منها أنها مجرد حشرة عابرة لكن لم تمر ثوانٍ معدودة حتى ارتطمت بها النقطة الثانية ثم الثالثة التي جاءت على رأسها هذه المرة، اتسعت عيناها وشعرت أن ما يحدث هو خارج نطاق ما تظن هي، نظرت إلى الشِريف بطرف عينيها فوجدته يدخن لفافة التبغ، بهدوء مدت يدها ووضعتها على تلك النقطة ثم نظرت في يدها فوجدتها حمراء!! إنها بقعة دماء، بهدوء رفعت عينيها إلى أعلى لتجد زوجة جورج جارتها تقبع على السير فوق رأسها، جف ريقها من الدهشة واستيقظت كل المشاعر بداخلها دفعة واحدة، سقطت على رأسها صاعقة ذات خدر فظلت عيناها معلقة على زوجة جورج التي راحت تنظر لها هي الأخرى فرأت عينيها البيضاء اللامعة التي لا تخلو من الصفار البادي فيها، أدركت تلك الصغيرة أن جارتها مُصابة وتعاني أثناء هروبها، زوجة جورج كانت لا تعلم كيف أتوا بها إلى هنا أو أنها هي من أتت بهم لكنها كانت واثقة

بأنها ستفشي سرها حتى تفلت من تهديدات الشِريف لها ولأسرتها، في الوقت نفسه ضربت الفتاة دوامة من المتناقضات، هل تشي بها للشِريف لتنقذ نفسها وأباها أم تجعل السذاجة وعدم المعرفة هو عنوان ما يحدث أمامها الآن، تدور رأسها في ذلك الفلك الذي يتأرجح بين الأمرين، هي تدرك أن جورج بريء كونه جارها وهي تعرفه جيدًا وزوجته ليس لها ذنب في ذلك فلا داعي لأن تشي بها، ظلت تفكر قليلاً ثم مالت إلى ذلك الحل فأدارت وجهها وحولته بعيدًا عن الزوجة التي فهمت أنها لن تشي بها فبدأت تستعيد طاقتها مرة أخرى وتتحرك على استحياء شديد، تكافح من أجل الوصول إلى المبنى الآخر، تتعايش مع الألم وتحايله وتتحرك ببطء حتى لا ينكسر السير بها، استمرت على هذه الشاكلة حتى كادت أن تصل إلى المبنى فإذا بمسمار سمج يخرج من المكان المخصص له كأنه يعبر عن نفسه قبل النهاية بمسافة قصيرة، تعلق ببنطالها واخترقه، شعرت الزوجة به يمنع تقدمها ويمسك حركتها، عاندته في البداية ظنًا منها أن الحركة المستمرة ستقطع القماش وتستمر إلى الأمام لكن كلها محاولات أتت بالفشل، دفعها ذلك للمزيد من القوة لعلها تتخلص من ذلك لكنها لم تنجح أيضًا، انتظرت برهة وتحركت بقوة أكبر فزادها المسمار عندًا، ظلت على هذه الشاكلة حتى بدأ صوت أزيز الحديد يتعال وبات مسموعًا، تسلل حتى وصل إلى أذن الفتاة حركت رقبتها ببطء كونها تدرك ما يحدث، لمحت بطرف عينيها الزوجة وهي تستعد لانطلاقة كبيرة تقضي بها على ما يعوقها، شحنت قوتها وانطلقت في المساحة الصغيرة التي تستطيع التحرك فيها، ولكن ظل المسمار على موقفه فقط تحركت القماشة قليلا، تعالى أزيز الحديد بشكل أوضح مما دفع الشِريف ليُحرك رأسه،لو نظر إلى أعلى يساره لوجدها، فكرت الفتاة سريعًا وقبل أن ينظر إلى أعلى صرخت وأمسكت بطنها وادعت أنها تشعر بتقلص شديد في معدتها فجأة، جثت على ركبتيها لتُكمل وهمها وادعائها الكاذب، استرعت أنظاره وانتباهه وراح يتابعها وهي تتألم وتتلوى على الأرض، استرقت زوجة جورج النظر فوجدت الشِريف ينظر إلى الفتاة ويسألها عما أصابها، أدركت أنها خدعة لتجذب انتباهه، بصحبة الألم بدأت تقاوم مرة وراء الأخرى حتى

تخلصت من المسمار السمج وظلت تتحمل الألم وتصارع قدر المستطاع حتى اقتربت من المبنى في الوقت الذي وقف فيه شرطي عند القمع الموجود في بداية السير بالمبنى الذي كانت تختبئ فيه، استمع إلى صوت صِراخ الفتاة التي بحوزة الشِريف فأراد أن يلقي عليها نظره ليعلم ما يحدث، الزوجة تُحاول الدخول وهو يحاول الخروج برأسه والفتاة تتألم، لو خرج برأسه لانكشف أمرها، ينظر بعينيه ليدرك كيف سينظر عبر تلك النافذة فتحايل على الوضع وصعد على الماكينة في الوقت الذي تسلك فيه هي السُبل لتدخل عبر النافذة، انحنى قدر المستطاع ثم جثا على ركبتيه لعله يستطيع الخروج من النافذة، الزوجة تحاول، الفتاة تتألم والشِريف ينظر إليها باستغراب، الجنون في كل ركن داخل المكان، ظل الشرطي يحاول حتى وصل إلى تلك الوضعية التي تمكن فيها من مد رأسه إلى الخارج في الوقت الذي سحبت فيه الزوجة آخر جزء من قدميها فلم يرها!!الشِريف لايزال ينظر إلى الفتاة التي تتلوى على الأرض حتى تأكدت من هروب جارتها واختفائها فبدأت تهدأ تدريجيًا، الغريب أن الشِريف لم يقترب منها ولم يسألها عما أصابها فقط ظل ينظر لها بعينيه الجامدة دون حِراك وهذا كان الهدف الأساسي من فعلها، كان لابد أن تشد انتباهه ناحيتها حتى لا يرى جارتها، هي تدرك أن الصخور لن ترق يومًا لكنها أرادت النجاة لها، الهدوء يعود إليها حتى صمتت تمامًا لكنها بقيت في الأرض والزوجة تتابعها من هناك من موقعها الجديد وتدعو لها لكي ينجيها الرب!!سألها الشِريف بلهجة حادة عما أصابها فأخبرته بأنه ألم شديد في الكُلى يزورها بين الحين والآخر، أومأ برأسِه ولم يهتم لذلك.

مر الوقت على شاكلة بطيئة بالنسبة للزوجة حتى انتهى أفراد الشرطة من البحث الدقيق حتى استمعت إلى وقع أقدامهم يتجمعون خارج المبنى ليخبروا الشِريف بالنتيجة التي هو لها كاره، لم يملك سوى قبولها بمضض شديد فراح يعصر لفافة التبغ بين أصابعه تعبيرًا عن تلك الأحاسيس التي راحت تتملك منه وتعتريه، عصرها حتى ذهبت ملامحها وتقطعت وسقطت من بين أصابعه على الأرض، أخبره بأنهم تركوا المكان ولا يعلمون إلى أين ذهبوا لكنهم كانوا هنا بسبب لوحة الكهرباء وآثار

الدماء الموجودة على الأرض، تبرع الشرطي ضعيف الشخصية وراح يُخبر الشِريف بمقترح لعله يكون لهم نجاة، أخبره بأنه يتوقع أن يكونوا عبروا ذلك السير إلى المبنى الآخر!!وأشار ببنانه إلى حيث المبنى، التقطت زوجة جورج تلك الكلمات فراح قلبها يخفق كونها غير قادرة على المراوغة مرة أخرى فقد استنفدت كل طاقتها في المراوغة الأولى، لكن ما أن انتهى هذا الشرطي من اقتراحه وانتهى زملائه من مشاهده السير الذي أشار إليه حتى بدءوا بإطلاق الضحكات العالية كسخرية من أفكاره الضيقة غير المنطقية، يبدون له سوءات أفكاره بالتقليل منها ومن شأنها عن طريق كلمات لاذعة تترك آثارًا سيئة في النفس وتكبح أي شخص ربما يميل إلى فكرِة، تمهل الشِريف ولم يتعجل في إصدار قراراِه، ظل يتجول بعينيه هنا وهناك ينظر إلى السير الواصل بين المبنيين، ولولا بُعد المسافة والظلام لانكشف أمر الدماء، أخذ يقلب الأمر في رأسِه حتى قطع على الجميع شرطي من هؤلاء الذين بقوا للقبض على جورج حال ظهوره بالقرب من منازل الزنوج، كان يركض ويلهث فصب الجميع آذانهم وأبصارهم تجاهه فراح يخبرهم بكلمات غير متساوية الإيقاع بأنهم وجدوا بقايا ملابس عند سور مزرعة السيد نيكولاس.

***

امتزجت كافة الأحاسيس المنبثقة من رحم القلق والتوتر بداخل جورج حينما استمع إلى صوت صراخ ابنه الصغير، غاص بداخل كافة أنواع الهواجس، يقلب نفسه مع الظنون، يبحث داخل جميع الأسباب التي قد تؤدي إلى صراخه، ولماذا هي صرخة واحدة يتبعها صمت وسكون غريب، دارت هذه الأسئلة في رأسِه في الوقت الذي انهارت فيه كل عزائمه مع مرور الوقت، بدأ يسأل نفسه هل أخطأ حينما عاد إلى أسرته بعد فراره من القسم !!، هل كان عليه تقبل الأمر وابتلاع الظلم والإهانة، لكن أيعقل أن تُسلب منه حريته بتلك الطريقة الظالمة ولا ينتبه له أحد ولا يكون له رد فعل يُذكر، الظلم المبين بات عنوان الحياة التي يحياها هو وكافة أقرانه من الزنوج داكني البشرة، ظل الزرع وسنابل القمح ترافقه من كل جانب وهو يتخبط بين الطرق

وتلك الأفكار التي تُهيمن على رأسه حتى استمع إلى أنين مكتوم يأتي من تلك الزاوية، أنين بالكاد يُسمع تتوسطه همهمات مبهمة غير مفهومة!!دون تردد هرع إلى حيث ذلك الصوت، يحركه شغفه الغائر فإذا بابنه مُلقى يفترش الأرض بجسدِه، شبه فاقد للوعي يتألم بشدة، ساقه من أسفل قد كشفت عنها الملابس وهناك لفافة عليها محكمة الربط تعود إلى جزء من ملابس شقيقته قد مزقتها وربطتها على ساقه قبل أن تجلس على ركبتيها بجواره تُحرك عينيها ويدها عليه، تخبره بصوتٍ خفيض بأن والدهما سوف يأتي من أجلهما ولن يتركهما، كذلك الرب سوف يتولى الأمور، تخبره بأنهم تعلموا ذلك في الكنيسة، نزلت عليه الكلمات كالصاعقة فانفطر قلبه أكثر من أي وقت مضى، سحقًا لهذه الظروف وهذه العنصرية البتارة لكل شيء، شعرت طفلته به فنظرت إليه وما إن التقت عيونهما حتى انهمرت بالدموع، لم يتمالك أي منهما نفسه، ركض جورج وجثا على ركبتيِه واحتضنها، أتاح لها الفرصة لتبكي بغزارة داخل صدره وقلبه الملتاع منقسم بينها وبين أخيها الذي يراه يتأرجح بين الوعي واللاوعي، سألها وهو يذوب قلقًا عن ما أصابه فحدثته بكلامٍ بالكاد يُفهم تبرزه من بين تنهيدات البكاء التي تسيطر عليها بأن ثعبانا قد لدغه وهذا ما يفسر الصرخة التي استمع إليها، أخبرته أيضًا أنها وضعت يدها على فمه لتحد من صوته المفاجئ، أخبرته أيضًا بأنها حملته وراحت تركض به بسرعة لم تعتد عليها حتى أنها كانت تشعر بأن قدميها لا تلمسان الأرض، ركضت حتى شعرت بأنها قد ابتعدت عن الخطر ثم وضعته على الأرض، مزقت من ملابسها ما استطاعت وراحت تربط مكان اللدغة بإحكام شديد بعدما ضغطت على جانبي الجرح لتبرز السموم التي قد اختلطت بالدماء قدر ما استطاعت إليه سبيلاً، صمت جورج وقلبه ينشق عليه ثم هم يذهب إليه، يحتضنه بحنان بالغ فراحت دموعه تنساب أكثر، التصق جلده بجلدِه الناعم لكن توقف عن هذه العواطف حينما شعر بارتفاع درجة حرارته، هذا يعني أن السم بدأ يتمكن منه!!هكذا حدثته نفسه، فما كان منه إلا أنه حمله متحملاً الإصابة التي يعاني منها فخذه، أعطى الحقيبة التي كان يحملها لابنته وراح يركض به بأقصى سرعة داخل

الحقل فيخترق سنابل القمح التي راحت تتماوج كأنها الرايات بصحبة ابنته التي لم تتوقف لحظة عن البكاء منذُ أن رأته، لا يدركون إلى أي طريق يتجهون، فقط هو الشيء الوحيد الذي كان يمتلكه حتى يجد ما يُسعف به ابنه، ظل يركض ويركض حتى وجد أمامه شيئا أشبه بصومعة داخل الحقل أمامها مساحة صغيرة لا تتعدى الثلاثة أمتار خالية من الزرع، كانت مساحته كافية ليجلس بداخله أربعة أشخاص، هي استراحة للعاملين داخل الحقل، تتوزع على مسافات بعيدة داخل الحقل، أخبر صغيرته بأنهم سيتحركون تجاهها، دلفوا إليها ثم وضع جورج ابنه على الأرض، بحث بعينيه داخل المكان عن قابس للنور حتى وجده، ضغط عليه فأضاء المكان وبرز كل ما يملكه، هو يبدو مكانا مجهزا للاستراحة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، هناك أواني للطعام وإناء لحفظ الماء، هناك أماكن للجلوس عليها على الأرض، لم تشغله كل هذه الأمور، فقط كان يهمه إنقاذ ابنه، هرع إلى إناء ماء وأخذه وظل يسكب منه على وجهِه، هو لا يعلم ماذا يفعل لكن لا يملك سوى ذلك الفعل لعله يخفض من حرارته، بهدوء فك الرباط وراح ينظر إلى الجرح الذي يظهر فيه أثر أنياب الثعبان، نظر إلى وجه ابنه الشاحب ولاحظ حركة أنفاسه السريعة تطارده الهواجس والأفكار السيئة وهو يفكر ماذا عليه أن يفعل!!

مرت ربع ساعة كاملة وجورج لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، هو لا يملك الإمكانيات أو الخبرة في التعامل مع مثل هذه المواقف، استمع إلى وقع أقدام تتحرك في الخارج، تتعاظم مع الوقت فأدرك أن هناك شخص يقترب من المكان، اتسعت عيناه وفكر سريعًا فلم يجد سوى أن يهرع ويغلق قابس النور، سارع بفعل ذلك وما أن وصل إليه حتى استمع إلى صوت امرأة تأمره بأن لا يتحرك، كان ظهورها أسرع من ردة فعله فلم يتمكن من غلق قابس النور، كان صوتها أجش، حاسم، لا مجال للمزاح فيه أو العبث، جورج يولي لها ظهره لكن صوتها وحده كان كافيًا لأن يستمع إليه، طلبت منه أن يرفع يده إلى أعلى وإلا أصابته بأذى، كانت تحمل في يدها بندقية تصوبها تجاهه حركت أجزاءها حينما تحرك ليدرك أن بحوزتها سلاح ناري قادر على قتله فما

كان منه إلا أن رفع يده في استسلام شديد، تجولت بعينيها داخل المكان فرأت الفتاة الصغيرة والطفل المُصاب، سألته بنفس النبرة ماذا يفعل هنا هو وهؤلاء الأطفال، أخبرها باقتضاب أنه يريد إنقاذ ابنه الآن ثم سيحكي لها كل شيء، طلبت منه أن يستدير لترى وجهه فعلها جورج وهو يتوجس، استدار وهو يُمني النفس بألاّ تقتله، إنها امرأة في منتصف عقدها الرابع، تعكس ملامحها الجامدة شخصيتها القوية، بمجرد أن نظر جورج لها أدرك أنه ليس من السهل إقناعها سيحتاج إلى مجهود كبير لفعل ذلك، بدأت تفتش بعينيها الحادة في ملامح وجهه التي تبدو عليها الإصابات الشديدة والانتفاخات التي تنُمُ بما حل به، راحت تتجول في وجهِه وملابسه بملامح وجه حادة القسمات، جورج يقف في استسلام تام يرفع يده خوفًا وينظر لها دون حِراك، تجولت بعينيها في أطفاله وفوهة السلاح الناري موجهة إلى جورج، لن تتنازل عن قتله إذا حاول الحركة.

- من فضلك إن ابني يعاني.

نظرت له تلك السيدة فوجدته نائما على الأرض فاقدا الوعي بجواره أخته ومعها حقيبة شدت انتباهها فاستفسرت عنها.

- أنها حقيبة بها متعلقاتنا.

هَمَ جورج يقترب منها ليفتحها فرفعت فوهة البندقية في حزمٍ وجدية، أمرته ألا يقترب وإلا قتلته، انتبه جورج لذلك وتوقف عن الحركة، رفع يده إلى أعلى بعدما كان قد سها عن ذلك، أمرت الفتاة بأن تأت بها وتفتحها أمام عينيها، نهضت الفتاة بصحبة الخوف وفتحت الحقيبة ولا يزال جورج يقف تحت تهديد السلاح، نظرت بداخلها فوجدت بعض الملابس وجوازات السفر، المبالغ التي كانت بحوزته وضعها بداخل الملابس حتى لا ينفضح أمرها بسهولة، سألته بهدوء بعد أن اطمأن قلبها إلى حد ما عما حدث للطفل الصغير فأخبرها جورج أن ثعبانا قام بلدغه، سددت نظرة إلى الصغير وراحت عيناها تتأرجحان بينه وبين جورج وملامحه المنتفخة، طلبت من

جورج أن يقترب وهي متحفزة تمسك بسلاحها الناري، بهدوء اقترب منها جورج ثم طلبت منه أن يستدير ويولي لها ظهره ففعل ما أمرته به، بدأت تبحث بيديها على جسده لتتأكد أنه لا يحمل معه سلاحا ناريا، طالبته بأن يبتعد قبل أن تجثو على ركبتها وهي توجه فوهة السلاح إلى جورج، بدأت ترمق مكان اللدغة ثم وضعت يدها على جبهته قبل أن تخبره بأن الثعبان الذي لدغه ليس ساما!!

- ابني يُعاني من إغماء وارتفاع في درجات الحرارة، أليس هذه مؤشرات على السم؟؟

- لو كان الثعبان ساما لكانت حرارته ستنخفض، الإغماء ودرجة الحرارة نتيجة البكتريا التي تسللت إلى جسدِه وهذا أمر سهل العلاج.

- ماذا علينا أن نفعل الآن.

طلبت منه أن يخبرها بكل شيء قبل أن تشرع بمساعدته، أومأ جورج لها برأسه ثم بدأ يقص عليها قصته باقتضاب من البداية حتى دوامات الظلم التي تعرض لها هو وأسرته بسبب الشِريف، هي على علم بما يفعله الشِريف في هؤلاء الزنوج، تعلم جيدًا أنه شخص كاره للبشرة السمراء علاوة على أن ملامح جورج كانت كفيلة لتدرك من خلالها كل شيء بالإضافة إلى أنها سيدة ذات شخصية قوية ولديها من الخبرة ما تدرك به صدق من يتكلم، كلام جورج وصل إليها واقتنعت به، طلبت منه أن ينتظر هنا وأنها ستذهب وستأتي له ثانيةً، طلبت منه أن يطفئ النور حتى لا يجذب أنظار أحد مثلما حدث معها.

خرجت وعادت بعد دقائق وكانت تحمل بعض المطهرات والمساعدات الطبية ولوازم العلاج والمضاد الحيوي، كانت تحمل معها أيضًا مشكاة لتكون الإضاءة خافته لا تجذب الانتباه، جثت على ركبتيها وبدأت تنظف الجرح وتضع عليه المطهرات وتضغط عليه من الجانبين، جورج كان لا يفهم ماذا تفعل لكنه كان يشعر بأنه الصواب، انتهت مما كانت تفعله ثم شرعت تضع في فمه كبسولة وتجعله يتجرع

الماء، أخبرت جورج بأنها أعطته مضادا حيويا ووضعت العقار الطبي على اللدغة وبحلول الصباح سوف يسترد عافيته، طلبت منه أن يتركه يستريح وأن يخرج معها إلى خارج الصومعة،وطلبت منهابنته أن تظل بجوار أخيها، خرج جورج ووقف جوارها بالقرب من سنابل القمح الطويلة.

- كنت أقف بداخل المبنى الذي يقيم فيه السيد نيكولاس صاحب هذه المزرعة، كنت أجهز بعض الأعمال المنزلية وحين دلفت إلى الشرفة وجدت الضوء يبرز هذه الاستراحة فأدركت أن هناك شيء غير طبيعي يحدث، هنا سحبت البندقية وتوجهت لأكتشف ما يحدث.

جورج لا يملك ردا فقط اكتفى بالنظر لها فأردفت.

- أنت شخص محظوظ فلولا الأطفال لأطلقت عليك الرصاص دون نقاش، حينما رأيتهم شعرت بأن هناك أمر ما غير طبيعي معكم وزاد ذلك مظهرك منتفخ الملامح.

جورج لا يزال غارقا في الصمت لا يتحدث معها.

- هل تعلم أنك تقف الآن داخل أرض رجل من أشد الرجال عداوة وكرهًا للجنس الأسود، ربما يتعدى عداوة الشرِيف وكرهه.

- أعلم، فأنا أسكن في تلك المنازل التي تقع على الجانب الآخر من الحقل.

- لو علم بوجودك ستجني أسوأ الأشياء في حياتك.

- أعلم ولكن ليس لدي مكان آخر لأذهب إليه خاصةً وأن الشِريف ورجاله يبحثون عني في كل مكان.

- أنت متهم بجريمة ستقودك حتمًا إلى الإعدام إن تم القبض عليك.

- أعلم ذلك ولكني أخبرتك الظروف التي دفعتني لفعل ذلك، أخبرتك عن زميل العمل وفعلته، أخبرتك عن صاحب المقهى الذي أعمل فيه وأخبرتك عن الشرِيف ورجاله كلها تصرفات أتت بتلك الثمار في النهاية.

- أعلم ذلك لأن الشرِيف على علاقة بالسيد نيكولاس صاحب المزرعة ويشاركه ذلك الكره أيضًا، هم يعتقدون أنكم جنس أقل من باقي البشر كما كان يعتقد هتلر بالجنس السامي ويريدون أن تخل الولاية من أمثالكم، إنهم مُصابون بداء الاضطهاد كمعظم سكان الولاية والولايات الأخرى.

- نحن نتعرض للظلم يوميًا، الظلم في كل شيء حتى أن جاري قد انتحر بسبب عدم قدرته على علاج ابنته حتى توفيت، أنا لا أريد أن ألق المصير ذاته.

- لماذا لم تفكر في الانضمام إلى الأب جونز.

- الأب جونز!!

- نعم، ألم تسمع به؟.

- لا، من هو الأب جونز؟؟!!

- كيف لم تسمع عنه وهو شخص يتمتع بشهرة واسعة، هو شخص مستنير رأي أن الولايات المتحدة أصبحت غارقة في العنصرية والتفرقة التي وصلت إلى الكنائس وهو لا يحبذ ذلك، علمًا بأنه ينتمي إلى أصحاب البشرة البيضاء لكنه رافض للعنصرية. كيف لم تسمع به وبحريق كنيسته في لوس أنجلوس!!

- نحن نحيا حياة جافة خالية من تلك الرفاهية التي تتيح لي البحث والقراءة أو متابعة الأخبار بشكلٍ عام، أتمنى لو تُخبرينني عنه.

- إنه الأب جونز مؤسس كنيسة معبد الشعب، هي تنتمي إلى تلك الطائفة الدينية الجديدة التي أسسها تحت الاسم ذاته وتدعو إلى مجتمع ديني كنائسي مختلف الأعراق والألوان.

- هذا يعني أنني من الممكن أن أصلي داخل كنيسة تجمع بيني وبين أشخاص بيض!!

- ليس فقط ذلك، الأب جونز شخص يحترم الزنوج ويعتبرهم أخوة له، هو امتداد

لحركة الحقوق المدنية التي بدأت لنصرة السود منذُ سنوات لكنه يتفوق كونه شخص أبيض.

- كيف عرفتِ كل هذه المعلومات؟؟!!

- أنا أعمل في منزل رجل ثرى يؤثر في اقتصاد الولاية، وهذا يُتيح لي معرفة أخبار كهذه خاصةً أنه يكره الأب جونز حاله حال الشِريف ومعظم المتعصبين.

أخبرته أيضًا بأن هناك أناس كثيرون يترددون على منزل السيد نيكولاس ويُرددون أن الأب جونز يمثل لهم خطرا كبيرا كونه بدأ يتمتع بشعبية كبيرة خاصةً من الزنوج، أخبرته أيضًا بأنه شخص رائع يتمتع برؤية مختلفة بعيدة عن ذلك المجتمع المُصاب بالخلل، أخبرته أن الأب جونز يسعى إلى صناعة مجتمع لا وجود فيه للفرق بين الغني والفقير والأبيض والأسود، مجتمع عادل قائم على المساواة والعدالة والحق، جورج يستمع إليها وهو في حالة من الانبهار، يكاد لا يصدق ما يسمعه منها، أردفت كأنها تريد أن تزيد من إبهاره بأن الأب جونز يخبر الجميع بأن الطائفة كالجسد البشري وتحتاج كل عضو فيها كي تعيش حياة سعيدة، هذا هو المناخ الذي يحتاجه جورج، هذا هو الفجر الذي لن يعقبه ليل آخر، جال بخياله وهو يتخيل كيف يعيش هؤلاء تحت مظلة تلك الطائفة التي يتمنى لو كان واحدا منها، أضافت بأنها طوال حياتها لم تستمع إلى رجل رائع وعبقري مثله، أخبرته بأن طقوس معبد الشعب التي استرقت النظرات وشاهدت جزءً منها أثناء متابعة السيد نيكولاس وبعض من رجال الولاية في منزله، رأت من خلال تلك المشاهدة البسيطة حياة نابضة تتميز بالروح والقوة، الجميع يقفز ويصفق بيديه، أخبرته بأنها رأت كيمياء غريبة بين جميع الأعراق تختلف عن ذلك المجتمع المسموم الذي يعيشون فيه، بدأت تصف له صوته وهو يتحدث معهم كم هو رائع وجذاب يتسلل إلى القلب دون عناء أو شقاء، ستذوب بداخلك كل العقبات إذا استمعت إليه وهو يُخبرك بأنك مرحب بك في عالمه مهما كان لونك أو جنسك أو مستواك المادي أو التعليمي، أنت مرحب بك

كما أنت، كلامها تجاوز العمق المسموح به وراحت تنتعش خلاياه، كم هو حلمٌ أن يصير فردًا داخل ذلك المجتمع، سألها عن مكان ذلك الأب ومكان مجتمعه وطائفته، زمت شفتيها في ضيق وحزن، برزت قسمات وجهها وبدا عليها الاحتقان الشديد الذي كان لا يحتاج إلى مجهود لتدركه، لف المكان سكون ثقيل ضاغط قبل أن تخبره بأن الأب جونز ترك الولايات المتحدة الأمريكية بأكملها!!، نزل الخبر عليه كالصاعقة، لم يتبق له شيء ليركض في عروقِه، هاجت بداخله الأحاسيس السيئة وقد شعر بخيبة أمل راحت تتعاظم، سألها بحزن لماذا حدث ذلك!!أخذت نفسا عميقا قبل أن تخبره بأن جميع المتعصبين للجنس الأبيض كانوا مشحونين من ناحيته بالكراهية وما أكثر هؤلاء في مجتمعنا، مما اضطره إلى ترك الولايات المتحدة الأمريكية بعدما قضى وقتا ليس بالقليل مع أتباعه في وادي ريدوون بكاليفورنيا، سألها مستفسرا عما حدث معه تحديدًا حتى يترك كاليفورنيا فأجابته بأنه كان يتعرض للإساءة اللفظية إذا تحرك في شوارع الولاية أو أي مكان يذهب إليه كزائر، حتى أنه تعرض للتصفية والاغتيال أكثر من مرة على يد ميليشيات متعصبة وكانوا سيقتلون زوجته السيدة مارسيلين جونز في إحدى المرات لولا تدخل بعض من معه علاوة على سلسلة من الحرائق انتهت بمقر كنيسة معبد الشعب فخشي أن يصيبه ما أصاب مارتن لوثر كينج ومالكوم إكس.

- وإلى أين ذهب؟؟

- إلى غايانا في أمريكا الجنوبية.

- أمريكا الجنوبية!!؟

- نعم، علمت أن رئيس غايانا أعطى له مساحة شاسعة من الأرض ليبنِ عليها مجتمعه المعروف بمدينة جونز.

طأطأ جورج رأسه في حزن شديد بعدما تأكد من أن الذهاب إلى هناك أصبح مستحيلا، كان يمني النفس بأن يذهب إلى ذلك المجتمع حتى ولو سيرًا على الأقدام، لكن قتلته إجابتها وقتلت بداخلِه كل ذرة أمل، لكن جاءت كلماتها بالأمل مرة أخرى،

أخبرته أنه يستطيع الانضمام إليهم إذا استقل طائرة إلى البرازيل، فقد سمعت أنهم يقفون بحافلات مكتوب عليها معبد الشعب لاستقبال الوافدين ونقلهم إلى المعسكر الخاص بهم وسط غابات غايانا، كلامها صياغته جيدة لكن في الوقت ذاته شديد الصعوبة، فبالتأكيد صوره وبياناته سوف تنتشر في مطار الولاية، كلامه جعل الأفكار تتصارع في رأسها حتى استقرت على تلك الفكرة، أخبرته بأنه ليس بالضروري الخروج من مطار الولاية ليس من الضروري الخروج من مطارات أمريكا فمن الممكن الذهاب إلى المكسيك ومنها إلى غايانا في البرازيل، الفكرة في ظاهرها جيدة خاصةً أن ولاية نيو مكسيكو تقع على الحدود مع المكسيك لكنه سألها متعجبًا كيف سيذهبون إلى المكسيك؟!!، أخذت نفسا عميقا انتفش على أثره كيانها قبل أن تخبره بأنها ستساعده ليخرج من الولاية ويذهب إلى هناك، أخبرته بأن هناك شاحنة تأتي إليهم كل فترة لتأخذ منتجات المزرعة المباعة إلى المكسيك وحينما يصلون إلى هناك يستطيعون أن يستقلوا طائرة من هناك، أخبرته بأن هذه الشاحنة سوف تأتي غدًا وأنها ستجعلهم يختبئون بداخلها، وسيكون الأمر سهلاً إذا كان بحوزتهم جوازات السفر الخاصة بهم، هرع جورج إلى الحقيبة التي كانت بحوزة ابنته وأخرج منها جوازات السفر وبعض النقود التي أخذوها قبل الخروج من المنزل.

- هذا جيد جدًا كل ما علينا الآن هو الاختباء حتى الغد.

- أنا أريد أن أحضر زوجتي.

- وأين هي؟؟!!

- تختبئ في مكان قريب من هنا.

- عليك أن تحضرها سريعًا، هذه هي فرصتكم الوحيدة إذا أردتم النجاة.

أومأ لها جورج.

- اذهب وأنا سأبقى هنا بصحبة أطفالك، اذهب ولا تتأخر، حاول ألّا تضل الطريق، هذه هي مهمتك الآن.

جورج لا يملك إلا أن يثق بها على الرغم من أنه لا يثق في ألاعيب أصحاب البشرة البيضاء، لكنه لا خيار له سوى ذلك علاوة على أنها قد قدمت ما يثبت صدق نيتها، هَمَ جورج بالخروج فاستوقفته هذه السيدة لتُخبره بأنها تدعى إيزابيلا.

تحرك جورج سريعًا إلى حيث مكان زوجته تزامنًا مع وصول أحد أفراد الشرطة إلى الشِريف ليخبره ببقايا الملابس التي وجدوها على السلك الشائك للمزرعة.

- 8 -

جورج داخل الزنزانة الصغيرة التي وضعه بداخلها ضباط الشرطة منذُ لحظة القبض عليه واقتياده إلى قسم الشرطة، تعمد الضباط استخدام العنف المفرط في لحظة القبض عليه على الرغم من أن جسده كان مُتعبا وما حدث استنفذ طاقته بالكامل، إلا أنهم تعمدوا القوة المفرطة أثناء القبض عليه علاوة على كم الركلات واللكمات التي تلقاها جورج، كانت قوته لا تعينه حتى على الصراخ والصياح فكان ألمه وأنينه يتردد صداه داخله دون صوت، أسقطوه على الأرض وراحوا يقيدون يديه خلف ظهره بالأساور الحديدية التي تعمد الضابط تضيقها بالحد الذي يسبب الألم ثم حملوه إلى سيارة الشرطة ليلقوا به داخل تلك الزنزانة الصغيرة الموجودة بقسم الشرطة الخاص بالمدينة، مرت ساعات كان الخمود فيها قد صار صفة لوقتِه والتجافي له عنوانا، أمضى تلك الساعات منكسر الخاطر كسيف البال، كان جسده يشكي ألمه وقدماه باتت لا تطيق ما حل بهما، وكان أكثر ما يحزنه في نفسِه ويؤلمه أن الجميع لن يهتموا بأمره، الزنوج هنا في هذه المدينة مستضعفين على عكس بعض الولايات الأخرى التي بها جمعيات حقوقية للدفاع عن حقوقهم المدنية، فلو حدث ذلك في العاصمة مثلا لكان هناك من يدافع عنه وينصره أمام ذلك الظلم الذي استفحل أمَّا هنا فمن المستحيل حدوث ذلك، تكدرت الدقائق الثقال عليه فتكوم على نفسِه وجلس في تلك الزاوية البعيدة بصحبة الألم والمعاناة، حينما هدأ قليلاً بعد وصوله شعر بحجم الكارثة التي اقترفها وهو شبه غائب عن الوعي، استسلامه للضغط العصبي والنفسي الطاحن جعله يعمه في طرقٍ لم يسلكها من قبل شخص ونجا،

لحظة شيطانية كتلك التي عصى فيها آدم ربه فكلفته هو وذريته الكثير، تلك اللحظة الشيطانية ستكلف جورج وأسرته الكثير أيضًا، أدرك ذلك جيدًا حينما هام في أفلاكِه الباطنة المُحزنة وتأكد أن مالك المكان لن يترك ما حدث يمر مرور الكرام، سيقاضيه وسيدافع عنه المتعصبون أمثاله، سيسانده ويشهد معه الزبائن التي كانت حاضره، لن يقف بجوارِه أحد ولن يعترف أي شخص بالعصبية والضغط النفسي الذي شب عن طور الطفولة بداخلِه فدفعه لفعل ذلك، ستقضي المحكمة بدفع تعويض كبير بسبب الضرر المادي الذي حل بصاحب المكان، تعويض لن يستطيع جورج دفعه إن لم يبع المنزل المرهون بموافقة جميع جيرانه على البيع، سينتهي به المضمار خلف القضبان وستعاني أسرته الفقر والاحتياج من بعدِه، ستنجرف حياة أطفاله إلى الهاوية والضياع، كل هذه الهواجس كانت تثقل عليه وتضغط على أكتافه كأنها كائنات هبطت عليه من أعلى، غاص فيها حتى كاد قلبه أن ينفجر ألمًا وحزنًا، أخرجه من دوامات الفكر الضروس صوت وقع أقدام ترتفع وتقترب من الزنزانة التي واجهتها بالكامل كانت من سوقٍ حديدية جعلتها إلى أقفاص الحيوانات هي أقرب، رفع جورج رأسه المدفونة بين قدميه في تلك الوضعية التي يتقوس فيها على نفسه فإذا بضابط يترجل أمام الزنزانة بتلك المشية الخليعة التي يبدو فيها كالفتيات المائعات، هي ليست طريقة السير التي اعتاد عليها إنما أراد استفزاز جورج وجعل دمائه تفور غضبًا، وقف بتلك الطريقة التي صنعت فيها ساقاه زاوية حادة وتشابكت يداه خلف ظهره، ظل ينظر إلى جورج وهو يمضغ ويطرقع العلكة بهدف إثارة سخط جورج، لم يعد هو يتحمل أكثر من ذلك فقد ناء جهازه العصبي بحملِه ولم يعد قادرًا على الاستمرار، لم يعط له اهتماما وعاد يدفن رأسه بين ذراعيه، انكمش على نفسه أكثر وتقوس، مرت ثوانٍ حتى بدأ جورج يشعر بشيء صغير يرتطم برأسِه لكنه تجاهل ذلك في البداية ولكن مع تصاعد ذلك الإحساس وتكرار تلك الأشياء التي ترتطم به رفع رأسه قليلاً ونظر تجاه الضابط فوجده يتقافز ويُحرك كتفيه مُصدرًا صوت القردة، لم يبال له جورج ولم يتحدث إليه، أعاد رأسه إلى حيث كانت لكنه لاحظ على الأرض بعض حبات الفول السوداني، تعلق

بصره عليها قليلاً فوجد واحدة أخرى قد ارتطمت به، إنه الضابط يلقي عليه حبات الفول السوداني من خلف القضبان، لم يهتم جورج لذلك وتجاهل أفعاله المزرية لكنه وجده يتحدث إليه بصوتٍ ينز احتقارا.

- أيها القرد الزنجي لماذا لا تقف وتقفز مكانك مثلما تفعل عائلتك في حديقة الحيوان؟؟

تنهد جورج ولم يُجب على سؤاله المستفز فأراد الضابط أن يزيد من استفزازه.

- سأبرم معك اتفاقا، إن قفزت وصفقت بيديك سأجلب لك الكثير من الموز.

قالها الضابط وهو يضحك بهستيريا مُقلدًا صوت القردة، لكن ظل الصمت هو سيد الموقف فقط يطالعه جورج بعينيه ثم يعرض عنه عابسًا فيزيد ذلك من استفزاز الضابط الذي يجاهد أكثر من أجل إهاجة وإلهاب أعصاب جورج الذي ظل يخفي ببراعة تلك النيران الحارقة التي تأكل صدرِه، ظل الضابط يهين جورج حتى لم يجد منه شيئا يذكر، تمثال من شمعٍ لا يرى ولا يسمع.

- إنك قرد غير مُسلي، أو يبدو أنك تحتاج إلى مُروض أكثر شراسة مني، على أي حال دقائق وسيقوم الشِريف باستدعائك للتحقيق معك وقتها ستشعر كم كنتُ لطيفا معك.

اغتم جورج لهذه الكلمات القليلة أكثر من اغتمامه بإهانة الضابط له، هو كان لا يتمنى أن يلتقي بهذا الشِريف المعروف بالعنصرية المفرطة لدى الزنوج، يكرههم كره المتدينين لشاربي الخمر، سمع جورج عنه من الأساطير والأقاويل ما يدفعه للخوف منه، خاصةً أن بعضهم كان يروي كيف كان يتفنن في إيذائهم نفسيًا وجسديًا، ظل جورج ينتظر ذلك الحدث السيئ الذي كان يتمنى ألا يعلمه حتى لا يسقط في رحى العذاب التي سقط فيها، الموت ليس صعبا !! الصعب حقًا هو انتظاره، كذلك مقابلة الشِريف هي بالنسبة له كالموت بل أشد غِلظة، مرت الدقائق الثقال حتى وجد جورج مجموعة تتألف من أربعة ضباط قد ظهروا أمام الزنزانة فأدرك أنها الطامة

الكبرى!!جاء موعد التحقيق مع الشِريف، فما أشدها ساعة، فُتح الباب وجرى بالزنزانة حالة من الهرج الكثير، راح جورج يحدق فيهم كالمذهول وهم يقتربون منه بملامح وجه قاسية لا تنذر بخيرٍ، رفعوه بغيظٍ شديد من تحت إبطه بحيث كانت قدماه تلتوي أسفله ولا يرتكز عليها، وقف خلفه أحدهم وسحب يديه ثم قيدها بأساور حديدية صارمة، تعمد الضابط أن يضيقها بالحد الذي يسبب الألم ويترك العلامات على الجلد، شرعوا في جرِه على تلك الشاكلة حتى خرجوا به من الزنزانة إلى الرواق الطويل الذي تتواجد على جانبيه الزنازين، في نهاية الرواق مكتب للحرس لمتابعة أحوال الزنازين، خرجوا منه إلى الساحة التي تتواجد بها المكاتب الكثيرة ومنها إلى غرفة التحقيق التي كانت تنزوي بعيًدا عن الأنظار، هي غرفة منفصلة حينما تدخلها تشعر وكأنك قد انفصلت عن القسم كله، مجرد الولوج إليها يثير الرعب في النفس البشرية، في الداخل كان ينتظره ضابطان يجتهدان في إظهار الهيبة والأهمية، كانا يجلسان على كرسيين خلف منضدة خشبية وخلفهما وقف الشِريف بتلك الكاريزما المرعبة، وجهه الأبيض قد يجعلك تظن أنه ودود وسيم تألف الحديث معه لكن حقيقة الأمر أنه يخفي خلف ذلك الوجه شيطانًا مريدًا حاقدًا وكارهًا للزنوج، يرتدي على رأسه قبعة كتلك التي يرتديها رعاة البقر في الأفلام السينمائية، له عين حادة وملامح وجه قاسية، يتمتع بتعذيب الزنوج الذين يؤتى بهم إلى هنا مذنبين، يتفنن في تعذيبهم نفسيًا وفي بعض الأحيان جسديًا حتى يُرضي غروره ويرضي ذلك المارد الجبار الذي يتمنى أن يسحق كل الزنوج أسفل قدميه، له علامة مميزة أعلى رقبته من ناحية اليمين تبدو كجرح قديم ترك آثاره على الجلد وأبى أن ينصرف ويصير هباءً، سحب الضباط جورج ثم أقعدوه بالقوة على ذلك الكرسي الفارغ والذي يتوسط المنضدة على الجهة الأخرى من الضباط، الموقف صعب للغاية، الإضاءة الخفيفة إلى حد ما الممزوجة بهذا الجو الهادئ أثارت الرعب في قلب جورج وجعلته يشعر بأنه مقبل على ما لا طاقة له به، جورج يجلس على الكرسي ومحاط بأربعة ضباط وأمامه اثنان من خلفهم الشِريف الذي ظل ينظر له بتلك النظرات التي بدا فيها كالضبع الجائع

وهو يدخن لفافة تبغ سميكة ذات دخان كثيف، ظل الصمت هو سيد الموقف، يتجول جورج بعينيه في أعين كل من في الغرفة، خاصةً الشِريف الذي أطال النظر ثم بدأ يرسم على محياه ابتسامة صفراء مرعبة.

- أنا متعجب للغاية، كنت أتوقع أن أجد ثورا زنجيا مفتول العضلات يجلس أمامي، فحينما جاءنا البلاغ من أحد زبائن المقهى كنا نظن بأن جيمس بوند قد وصل إلى ولايتنا ويقوم بتصوير أحد أفلامه، لم نظن أن مجرد شخص نحيل وضعيف قادر على فعل ذلك.

بدأ الشِريف يتحرك داخل الغرفة، يقترب من جورج الذي لا يزال وجهه وجسده يحتفظ بآثار الضرب الذي تعرض له من زميل العمل السمج وشركائه، أردف الشِريف بنبرة صوت هادئة ومرعبة في الوقت ذاته.

- ما حدث اليوم في الصباح يفسر بشيء من اثنين، إمَّا أنك شخص قوي لا تهاب الشرطة ولا تهابني، وإمَّا أنك تعرف من أنا وتريد أن تكسر هيبتي حتى لا يخاف مني الزنوج أمثالك بعد ذلك، وفي كلتا الحالتين أنا أرفض ذلك وأعتبره وصمة عار على تاريخي وعلى تاريخ الأمن الذي حفظته منذُ تولي أمر هذه المقاطعة.

جورج في حالة سكون ورعب، فقط يستمع إلى الشِريف دون أن يتحدث إليه، اقترب الشِريف منهأ كثر وهو يُكمل حديثه.

- دعني أخبرك ماذا يعني أنني اعتبرت ما حدث وصمة عار، أنا في الأصل من مدينة دالاس نشأت وترعرعت بها، وحينما كنت طفلا صغيرا كان يأتي أبناء بعض الزنوج ويحاولون اللعب معنا، وكوننا أطفال كنا لا نفهم مدى تأثير هذا الاختلاط السيئ، وفي يوم من الأيام ونحن نلهو جاء طفل زنجي حقير وقام بضربي، كان في يده شيء ما أشبه بشفرة حادة ضربني بها في رقبتي.

أشار بيده تجاه تلك العلامة التي تعتلي رقبته ثم أردف.

- نزفت كثيرا من الدماء حتى أنني كنت على شفا الموت، ولكني نجوت وتم

شفائي ولكن لم يُشف غليلي، شعرت بالإهانة وشعرت أنها وصمة عار أن يضربك شخص ويترك لك علامة في جسدك فما بالك إن كان زنجيًا، تربصت له حتى كلفه الأمر عينه اليسرى، عين لم تعد ترى لأني اعتبرت فعلته وصمة عار وأنا مجرد طفل، فما الحال وأنا يساورني نفس الشعور وأنا مسئول عن مقاطعة بأكملها.

خرج جورج عن صمته وبدأ يدافع عن نفسه فانقض عليه الشِريف كالنسر الذي يحط على الفأر، ضغط بأصابعه على خدِه بقوة فمنعه من الكلام.

- هنا لكي تتحدث يجب أن آذن لك، هذا هو القانون، إياك أن تحاول كسر القانون هنا.

هو كان يريد كسر شوكته وتحطيمه نفسيًا قبل التحقيق معه، ضغط أكثر على فمه فبدأ جورج يتألم وتظهر على وجهه آثار ذلك الضغط، لم يشفع له ذلك ولم يمنع الشِريف من التمادي في الضغط الذي كاد أن يكسر أسنانه، حاول جورج أن يبعد وجهه ولكن الشِريف كان يملك الموقف كاملاً، ظل يضغط أكثر حتى بدأت يداه تتحرك في مُحاولة لمنعِه لكن الأساور الحديدية التي تمسكها منعتها من الحركة، الشريِف ظل يضغط حتى بدأ جورج يتلوى بقوة فتركه دفعة واحد، دفع رأسه بقوة فارتطمت من الخلف في ظهر الكرسي.

- أين تسكن أيها الحقير تحديدًا؟؟

كان جورج يشعر بتنميل شديد في فكه بسبب الضغط الذي تعرض له فلم يجب من المرة الأولى، نظر له الشِريف ثم أخبره بنبرة صوت قوية أنه يعتبر تأخير الرد أيضًا وصمة عار، أجابه جورج بأنه يسكن في المنطقة الخاصة بالزنوج بالقرب من مزرعة السيد نيكولاس، مد الشريف شفتيه إلى الأمام وأومأ برأسِه ثم سأله عن رقم منزله تحديدًا فأجابه جورج ثم عن أسرته وأطفاله فأجابه أيضًا والضابطان الجالسان على المنضدة واحدٌ منهما يسجل كل ما يقول جورج والآخر يركز في ردود الأفعال ويدون أشياء أيضًا، ظل الشِريف يلقي عليه الأسئلة التعريفية ويتلقى منه الإجابات حتى

وصلوا إلى السؤال الأهم، لماذا قمت بتكسير المقهى، هنا توقف الكلام في حلق جورج ولم يدرك ماذا يفعل!!هل يخبره بحقيقة الأمر؟؟ هو بالتأكيد لن يتفهم ما حدث!!وأي إجابة أخرى لن تكلف جورج سوى الحكم عليه، كل هذه الأشياء كانت تدور بداخله فجعلته يتأخر في الرد مما دفع الشرِيف ليقترب منه ويمسكه من ملابسه بالقوة، وتحتد ملامحه وهو ينظر إليه.

- ألم أخبرك بأني أعتبر التأخير في الرد وصمة عار.

- أنت لن تصدق ما حدث.

- هذا لا يعنيك أنت، عليك أن تتحدث فقط أيها القرد المقزز.

قال جملته الأخيرة وقد سدد إلى وجه جورج لكمة خفيفة أسفل عينيه دفعت جورج بشكل لا إرادي لركل الشِريف بقدمِه الحرة، اتسعت عينا الشِريف عن آخرها فتطوع أحد الضباط الذين يودون التقرب من الشِريف وراح يضرب وجه جورج عدة لكمات متتالية في وجهِه حتى أسقطه أرضًا بالكرسي الذي يجلس عليه ويده مقيدة خلفه، لم يفز بالرحمة بهذا السقوط فمازال الضابط يريد أن يثبت ولاءه للشرِيف فراح يركل فخذ جورج بقدمِه فكانت الركلات من نصيب الفخذ الذي تلقى ضربات بالعصا فصرخ جورج صراخًا عاليًا، هَمَ الشِريف وأمسك جورج من ملابسه ورفعه ليعاود الجلوس بالشكل الطبيعي على الكرسي، احتدت ملامحه وأخذ ينظر له وهو يتألم بشدة، شعر الشِريف بالإهانة الشديدة وقد أدرك أن هناك شيء ما في فخذه فهَمَ يقف بحملِه المرتكز على ركبتِه التي وضعها على فخذ جورج المُصاب فراح يصرخ ويتلوى بشدة، ينظر إليه الشِريف ويبتسم ابتسامة صفراء بدا فيها التوحش الشديد والسادية، راق له ما حل بجورج فراح يضغط أكثر فيصرخ جورج ويتألم، يود لو فر أو نزع هذا الحِمل من على فخذه الذي يعاني، يخبره بلهجة حادة أن لم يسبق لأحد وركله بتلك الطريقة من قبل فكيف لزنجي قرد أن يفعل ذلك، هذه وصمة عار شديدة، ظل الشِريف يضغط حتى أن عين جورج بدأت تبكي وكاد أن يفقد الوعي من

شدة الألم، رفع الشِريف قدمه وترك جورج يتألم ويصرخ ويبكي متأثرًا بإصابته، دفن لفافة التبغ التي كان يدخنها ثم نظر إلى جورج الذي كان في حالة يرثى لها.

- أنت همجي، لست وحدك بل جميعكم همجيون، جنس قذر لا يعيش في مجتمع إلا وأفسده، أنا أحلم بمجتمع نظيف بلا زنوج، موطنكم الأساسي هو الغابات بصحبة القردة، لكن إن فشلت في تحقيق حلمي فعليكم المكوث هنا باحترام القانون، لن ندعكم تتصرفون بالعشوائية التي تتعاملون بها وإلا فُتحت عليكم أبواب الجحيم.

تحدث جورج بصوتٍ مرتفع إلى حد ما اختلط به البكاء والألم الذي يشعر به.

- عن أي قانون تتحدث!!هذه القوانين في ظاهرها الرحمة وفي باطنِها العذاب المبين، نحن نتعرض لكل شيء سيئ، نولد هنا لنعيش فترة سيئة تليها فترة أسوأ، تليها فترة أسوأ للغاية، الحياة هنا لنا جميعًا كالجحيم حقًا من دون أن نقترف أي شيء.

- ولماذا لم تتركوها وتذهبوا بعيدًا؟؟!!

- أنا حقًا كنت أخطط لذلك بعدما طفح بي الكيل ولم أعد قادرًا على التحمل، لقد أدركت مؤخرًا أنه يجب عليك أن تترك المدينة طوعًا وتغادر قبل أن تغادرها رغمًا عنك.

- جيد، هذا حقًا ما نسعى إليه لكن يبقى السؤال المهم، إن كنت تنوي فعل ذلك لماذا فعلت فعلتك التي فعلتها وكنت من المخطئين؟؟

- لأن كل شخص له حدود للصبر، لا تدفعوا الناس لأقصى حدودهم ثم تشكون من ردود أفعالهم.

أشعل الشِريف لفافة تبغ أخرى وزفر دخانها الكثيف.

- لا يوجد شيء على وجه الأرض يدفعك لفعل ذلك.

احتد كلام جورج أكثر وارتفع.

- أنت لا تعرف قصتي، لا تعرف كم كان عمق الأذى الذي أتعرض له يوميًا أنا

وأسرتي، أنت فقط لا تعرف سوى أنني زنجي يجب أن يُباد، الحياة حطمتني، رأيت أمورًا جعلت قلبي يبكي حزنًا، عشت الحسرة والتعاسة والمعاناة، والآن أنت تريد أن تحاسبني على ردة فعلي، تريد أن ترى فقط ما صدر مني.

تجاهل الشِريف كل ما قيل ثم كرر السؤال مرة أخرى وكأن جورج لم يتحدث، سأله لماذا فعل ذلك؟؟

- لقد أخبرتك!!

- لكني لم أقتنع.

- ولن تقتنع ولن تأخذ المحكمة بما سأقول وفي النهاية سيصبح السبب هو أنني زنجي أهوج همجي له صفات حيوانية دفعته لفعل ذلك، ستنتهي حياتي كما انتهت حياة مايكل وتلك العجوز بطريقة مأساوية، أنت تعرف كل شيء وترى في المقاطعة كل شيء ولكنك ستتظاهر دائمًا بالعمى.

طريقة جورج صارت حادة وارتفع فيها صوته بالحد الذي بات غير مقبول، كلمة أعمى التي نزلت على أذن الشِريف بوقع غير معتاد عليه دفعته لكي يركل فخذ جورج بكل قوة فصرخ هذا المسكين كأنه يُسلخ حيًا، كان الألم رهيبا وقويا بالدرجة التي دفعت جورج ليهم بالقيام من مكانه ولكن منعه بعض الضباط الذين تبرعوا لإيقافه، جورج يشعر بالألم وبالغليان الذي يحركه فوجد نفسه يبصق على الشِريف، هو لا يدرك من أين استمد هذه الثقة، لكنه فعل ذلك وهو تحت تأثير وطأة الألم والضغط النفسي الذي جعله يفقد عقله، دون مقدمات انهال عليه الضباط بالضرب فور ذلك الفعل الذي اعتبره الجميع إهانة للشرطة بأكملها، تناوبوا الضرب عليه بغلٍ وبغضاء، لكمة تتبع لكمة ولطمة تتلو لطمة ورفسة من بعد ركلة حتى حل به الإعياء فبات غير قادر حتى على الاحتمال، انتفخت ملامحه أكثر وصرخ جسده من كل جانب حتى أنه بات غير قادر على المقاومة، استسلم جورج للإعياء ولجفونه التي ثقل وزنها فراحت تغلق أبوابها رغمًا عنه، لم يكن يحلم جورج بأكثر من حياة طبيعية

لأفراد أسرته، كأي أب له قلب طري يريد الرخاء لأبنائه وزوجته ولكن كانت حياته تجري على غير ما يريد، كلما حاول الحفاظ على ما وهبته له الحياة سقط في مفرمة العنصرية الهارسة التي لا ترحم، غاب جورج عن الوعي من شدة ما تلقى على جسده تحت وطأة الدقات الثقال الواقعة فوق رأسه، دقات قاتلة تمحق القوي وتفكك ترائبه، ظلوا لمدة ثلاثة أيام يتناوبون عليه الضرب الذي كان يحمل زاويا متعددة، زوايا تنُمُّ عن عدم التوازن الاجتماعي والخلل الذي وصل إلى أحشاء المجتمع، تعكس مدى الكره والغل الذي يملأ قلوب المتعصبين أصحاب البشرة البيضاء وزوايا أخرى أرادها الشِريف لباقي زنوج المقاطعة التي تحت إدارته فإمَّا أن يظلوا تحت أقدامه دون اعتراض وإمَّا أن يحل بهم ما حل بجورج حينما يصل إليهم ما حدث معه، علاوة على أن هذه هي المرة الأولى التي يتجرأ أحد ويبصق على الشِريف وهو ما جعل الأمر يتزايد على الزنجي من دون رادع، جورج ملقى داخل زنزانته على الأرض، يتأمل السقف ويدعو الرب بقلبِه ليتولى أمره، يفكر في أسرته التي ستعاني بعد أيام قليلة من نقص المال بعدما تنفد الدولارات البسيطة التي تركها لهم لينفقوا منها، تتردد عليه تلك الأفكار الضاغطة فتنزوي روحه إلى الظلمة فيتذكر مايكل وتلك العجوز وما حل بهم فيهيج جهازه العصبي، لكن كلها احتجاجات داخلية لا تملك له نفعًا بل تملك له ضرًا شديدًا فقلبه لم يعد يتحمل ذلك الحزن والضغط العصبي، وجسده بالكاد يملك الطاقة التي يتقلب بها حينما يصرخ ظهره من تلك الوضعية التي يتقوس بها، ما هو فيه الآن هو تعريف موازٍ للموت البطيء وانعدام الحياة وانخطاف النفس، في الزنزانة أدرك جورج المعنى العميق للانكسار المرسوم على كل الجدران والموجود في كل مكان، باتت هذه البوابة لا تفتح إلا حينما يساق ليُحقق معه ويُضرب، حتى الطعام كان يُلقى إليه كالحيوانات، بعد أيام ستكون محاكمته وستكون بداية نهايته ونهاية أسرته التي ستتشرد من بعدِه، أخبره الشِريف بأن جميع من كانوا في المقهى سيشهدون بفعلته وسيشهدون بأن كل آثار الضرب التي لحقت به وحتى التي زادت عليه في القسم قد جاء بها من الخارج قبل تكسير المقهى، لم تحدث أي حركة مغايرة

تكسر رتابة ما يحدث إلا حينما جاء ذلك الضابط الذي سبق وألقى عليه حبات الفول السوداني سلفًا، وقف أمام حديد الزنزانة يشاهد جورج النائم على الأرض في استسلام خارجي أمَّا بداخله فهناك عواصف وصراعات، ركل ذلك الضابط بقدمِه الباب فأصدر ذلك الصوت المزعج، انتبه جورج فعلم أنه هو وعلم أيضًا أنه على موعد جديد من السخافة، هو لم يفوت يومًا إلا وجاء يلقي بسماجته عليه، اليوم تأخر حتى منتصف الليل فهو مسئول هو وآخرين عن وردية المساء، كعادته وقف يقفز ويقلد صوت القرد، لم يعطه جورج أي ردة فعل ليتفادى تفاقم الأمور لكن هذه المرة أراد أن تكون له ردة فعل فقد ناء بحملِه الزائد بداخلِه، رفع جورج له إصبعه بحركة بذيئة أراد بها الرد هذه المرة، برغم أنها حركة بسيطة أمام تلك الأفعال الشنيعة التي يرتكبها الضباط والشِريف إلا أنه شعر بالإهانة الشديدة لما صدر منه، غلت الدماء في عروقِه وراح يلقى وابلا من الشتائم على جورج الذي لم يقترف سوى أنه أعاد عليه نفس الفعل من دون أن ينظر إليه فكسته غيوم من التوتر فما كان منه إلا أنه فتح باب الزنزانة ودخل إلى جورج ليمارس هوايته بصفعه وركله وإهانته لكن حدث ما لم يكن يتوقعه أحد، دعته نفسه ليثبت حضوره هذه المرة، حركته طاقته التي تختزن بداخله، شعر أن كيانه كله يدفعه للانقضاض على ذلك الشرطي المستفز الذي وجد نفسه في لمح البصر ساقطا على الأرض وجورج يجلس على صدره بركبتيه، يضربه بقبضتيه على وجهِه وصدرِه، يرفع جسده قليلاً ويدعه يسقط على صدرِه، لم يكن جورج يشعر بنفسِه، كان قد ذهب عقله وفكره وبدأ يتصرف بما يختزنه بداخلِه، غاب عن وعيه فظل يضرب بكل قوة حتى أدرك أن الضابط لم يعد يقاوم ولم يعد يتألم فتنبهت كل حواسه واستفاق بعض انقضاء هنيهة من ذهول، اكتشف أنه قتله ليسقط أكثر في تلك المحنة التي كلما وصل إلى قاعها اكتشف أنه يزداد بعدًا وظلامًا، لم يستمع جورج لصوت عظام صدر ذلك الضابط أسفل ركبتِه، لم ينتبه إليها، الآن أصبح قاتلا بعدما كان مجرد همجي قام بتكسير مكان عمله، ازداد الموقف تعقيدًا، لن يستمع أحد إليه حينما ينادي بكل ما حدث، لن يصدقه أحد ولن يقف بجوارِه

أحد، هو بذلك الفعل أضاع نفسه نهائيًا في متاهة الحياة وسوف يجلس على الكرسي الكهربي لا محالة في محاكمة في ظاهرها عادلة!!نهض سريعًا، نظر أمامه فوجد الباب مفتوحا، نظر حوله فلم يجد سوى أن يركض، خرج من الزنزانة إلى رواق طويل، عليه أن يمر من أمام الزنازين من دون أن يلمحه أحدٌ منها، جلس في وضع القرفصاء ثم هَمَ يتحرك بتلك السرعة التي سمحت بها قدمه المُصابة، مرَّ وهو يتوخى الحذر حتى وصل إلى نهاية الرواق، هناك غرفة حراسة للزنازين، في هذا الوقت المتأخر سيكون ضابط واحد، تحرك جورج بهدوء ومد بصره يسترق النظر من جانب الباب المفتوح نصف فتحة تقريبًا، إنه يغط في النوم، يجلس على الكرسي ويرفع قدميه على المكتب ويغرق في النوم العميق في تلك الساعة المتأخرة من الليل، عليه أن يمر بهدوء، سيعبر من أمام المكتب على أربع، هذا هو الحل الأمثل من وجهة نظره، لكن ما إن وصل إلى منتصف المسافة حتى استمع إلى ذلك الضابط وهو يتحرك، دب الرعب في قلبِه وزاد من سرعته، إن فتح عينيه سيجده أمامه مباشرةً، استمر جورج في العبور ولم يبال له حتى إن عبر ألقى عليه نظرة مرة أخرى فوجده كما هو لم يتحرك، خرج إلى ساحة القسم الممتلئة بالمكاتب، عليه الحفاظ على هدوئه إن أراد النجاة، على تلك الشاكلة بدأ يخطو بين الطرق الملتوية التي تصنعها المكاتب، عليه أن يدرك إلى أي طريق يتجه، هناك وعلى مرمى بصره باب الخروج، رفع رأسه قليلاً فوجد المكان خاليا تمامًا، عليه أن يسرع، تحرك على يديه وقدميه لكن ما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى استمع إلى صوت وقع أقدام!! إنه الضابط الذي ذهب إلى دورة المياه قد عاد ويبحث عن زميله، يقف في منتصف الساحة وينادي عليه بصوتِه الأجش ولا يعرف أنه مقتول في زنزانة الزنجي، بدأ الضابط يتحرك فاقترب من جورج الذي تجمد خلف إحدى المكاتب ليحول بينه وبين الضابط ذلك المكتب الذي كان لسوء حظ جورج مكتبه، وضع الضابط المحفظة والمفاتيح وسلاحه الناري وأساور حديدية، هو ينادي على زميله، جورج ينكمش على نفسه ويخشى أن يتحرك أي حركة فينتبه إليه، تعجب الضابط من عدم رد زميله وهم يرفع صوته أكثر، بهذه الطريقة سيدرك الجميع

ما حدث!!نظر جورج فوق المكتب فوجد السلاح الناري في الوقت الذي ولى فيه الشرطي وجهه بعيدًا عنه، مد يده وسحبه بهدوء ثم أخذ الأساور الحديدية قبل أن يهم بالانقضاض على الشرطي من الخلف ليضربه بالسلاح على مؤخرة رأسه فيسقط على الأرض قبل أن يقيد إحدى ذراعيه بالأساور الحديدية في المكتب، الضابط قد اكتنف رأسه دوار شديد وتعذر بصره، هَمَ جورج بالهروب فوجد محفظة الشرطي على المكتب، هو بالتأكيد لن يعيش هنا في الولاية مرة أخرى!!عليه الذهاب إلى أسرته أولاً ليفروا جميعًا بالهروب، هو يحتاج إلى المال لفعل ذلك، أفرغ ما بداخل المحفظة من مال وقبل الخروج من القسم وقعت عيناه على غرفة الأحراز التي تأوي بداخلها أموال كثيرة تم ضبطها، هرع إلى هناك، هي غرفة من داخل غرفة، لم يكن هناك أحد، حاول الدخول فلم يستطع، الباب محكم الغلق، ضربه بكتفِه وهرع للداخل، هناك مواد مخدرة وأموال وسلاح، أخذ من المال حتى امتلأت جيوبه ثم هرع للخارج ليجد الشرطي قد استرد وعيه وراح يزعق، حاول النهوض لكن منعته الأساور، لم ينتظره جورج وركض خارج القسم في اتجاهه للبيت في الوقت الذي زعق فيه الشرطي بصوته المرتفع ينادي زميله لينقذه وليستدعي الشِريف وباقي القوات من منازلهم.

- 9 -

جورج يركض داخل مزرعة القمح بعدما ترك أبناءه داخل تلك الصومعة مع إيزابيلا التي تعاطفت معه ومع حالته، ظل يركض حتى خرج من المزرعة وذهب إلى المبنى الذي تركها فيه وهناك كانت المفاجأة، الباب مفتوح وآثار حالة التفتيش ظاهرة في كل ركن من أركان المكان، دخل سريعًا إلى الداخل فأدرك أن رجال الشرطة قد عبثوا بالمبنى وأنهم فتشوا كل ركن فيه تقريبًا، فتح ثغرة بالحد الذي يتناسب مع حجم المفاجأة فلا يدرك هل تم القبض على زوجته أم لا، الرعب يسيطر على قلبه الملتاع، ارتفع صوته وراح ينادي عليها لكن لم تكن هناك إجابة، فقط صدى صوته الخافت، كرر النداء مرات عديدة حتى لم يجد داعيا للتكرار، اغتم وشعر بذلك الحزن العميق وهو يتوغل بداخله، خرج من المبنى وهو بالكاد يستطيع التنفس بعدما ضاق صدره على أثر ما حدث، تغوص رأسه في دوامات الأفكار الطاحنة وتتلو عليه آلاف السيناريوهات التي تدفعه دفعًا نحو ذلك الشعور المميت، طأطأ رأسه وهو يترجل بصحبة قلبه المحترق قلقًا حتى أتاه صوت من دبره، صوت يعاني من كم هائل من المرارة والإعياء إنه صوت زوجته، نعم هو يعرفه رغم كل شيء، التفت سريعًا ونظر خلفه فلم يجد شيئا، إنه الوهم جعله يستمع إلى صوتها، عاد إلى الحزن الذي لم يخرج منه إلا ثوانٍ معدودة حتى استمع إلى الصوت مرة أخرى، التفت ثانيتًا فراح يتكرر،إنه يأتي من أعلى، رفع رأسه فوجدها تلوح له من فوق فتحة السير العلوي، إنها هي، لم يقبض عليها، نظر إليها وعيناه تفيضان بالدموع، ركض حتى أصبح أسفل تلك الفتحة، سألها بصوتٍ مرتفع إلى حد ما كيف وصلت إلى هنا!!

- إنها قصة يطول شرحها.

- كيف ستخرجين من هذه المبنى وهو محكم الغلق!!

- سأخرج كما دخلت.

أمام عينيه راحت تتحرك على السير إلى المبنى الذي كانت تختبئ فيه، تتحرك على السير على هذا الارتفاع الشاهق وقلب جورج ينبض نبضات سريعة، يتوتر كيانه بالحد الذي سيقضي على قلبه الذي بات لا يتحمل أكثر، ركض تجاه السير ووقف أسفله يتحرك معها حتى إذا سقطت أمسكها، كان يدعو الرب بقلبه لينجيها، ظل لا يفارقها تلك الدقائق القاتلة حتى وصلت إلى المبنى، خرجت له فلما رآها نسي ما حل به من ألم، ركض تجاهها كما ركضت هي تجاهه، رفعها وهي بين أحضانه حتى باتت قدمها لا تلمس الأرض، لم يستمع إلى صراخ قدمه وفخذه المُصاب، فقط كان يستمع إلى صوت نبضات قلبها المتسارعة التي تدق فرحًا وتهللاً، تبهج وجهها الذي تزينه دموع الفرح، تلامست الكفوف والأكتاف فتعانقت الأحاسيس وفاضت مشاعر الروح، قبل جورج كل زاوية في وجهها ودموعه لم تكف لحظة، لم تنس أنها أم فراحت تسأل عن أولادها فأخبرها جورج باقتضاب فبدت على وجهها علامات القلق والحيرة، ولولا الظروف التي تحيط بها لصرخت صراخًا عاتيًا يكون أشبه بهرير النمرة الجريحة لما حدث لهما، هدأ جورج من روعها وأخبرها أن كل شيء تحت السيطرة، كل ما عليهم الآن هو الذهاب إلى حيث تركهم تمهيدًا للهروب!!

***

الضباط ينتشرون كالجراد داخل الحقل يبحثون عن عائلة جورج الهاربة كما أمرهم الشِريف بذلك حينما وصل إلى حيث أخبره الشرطي، وجد بقايا ملابس عالقة على السلك الشائك فهم بالذهاب لمقابلة السيد نيكولاس وأمرهم بالانتشار داخل المزرعة للبحث عن جورج وعائلته، رجال الشرطة حاملين أسلحتهم مشحونين بالكراهية التي تعمي قلوبهم تجاه أي زنجي، بالأخص جورج بعدما اقترف ما اقترفه

في حق زميلهم، يتحركون بحرص شديد داخل الحقل يتلفتون بأعينهم هنا وهناك، ينبشون كل شبر، يحركون سنابل القمح الطويلة بأسلحتهم لعلهم يختبئون بينها، ظلت تلك الأجواء التي يُغلفها الترقب الشديد والغموض، هناك فأر كبير خرج يبحث عن شيء يسد به صراخ معدته الخاوية، فأر الحقل العملاق الذي يتحرك بسرعة وخفة لا تتناسب مع حجمه وجسده الكبيراللحيم، فكان يتخبط في سنابل القمح ليمر بينها من خلال تلك الفراغات الضيقة فيصدر ذلك الصوت فتشعر بأن هناك أحد يحاول التخفي والفرار، حظه السيئ أنه تحرك بالقرب من أحد رجال الشرطة،والذي يحلم بأن يلوذ بتلك المكانة والرضا من الشِريف، تسلل صوت الفأر إلى أذنه فاتسعت عيناه عن آخرها وهو يستمع إلى صوت الحركة، وكاد أن يصرخ ليخبر الجميع لكنه حلق بخياله إلى مراتب أخرى فخُيل إليه أنه يخرج إلى الجميع ومعه جورج، هَمَ يركض خلفه دون أن يفكر أن لا يمكن لإنسان أن يتحرك بتلك السرعة، سنابل القمح الكبيرة تهتز على أثر ذلك وفي الوقت نفسه تخفي مصدر الصوت عن الشرطي ليزداد الموقف غموضًا وإثارة بالنسبة له، زاد الشرطي من سرعته وهو يستمع إلى الصوت لعله يلحق به لكن تباعدت الفجوة مع مرور الثواني حتى اتسعت تمامًا وبدأ يصعب عليه متابعته فتوقف عن الركض وانحنى جسده حتى وضع يده على ركبتيه وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يُردد بصوت بالكاد يفهم وسط ذلك النهجان بأن هذا الشيء بالتأكيد هو إحدى القوارض لأن من الصعب على إنسان الركض بهذه السرعة، توقف الشرطي في الزاوية الظاهرة أمام جورج الذي يتابعه من بين سنابل القمح ويستمع إلى اللعنات فأدرك بأن رجال الشرطة منتشرة في كل مكان داخل الحقل!!

دب القلق في قلب الزوجة وهي ترتعش خوفًا من أن يتلفت هذا الشرطي خلفه فينكشف أمرهم، جورج يشعر بها وهو يمسك بيدها محاولاً تهدئة روعها من دون كلام، هو يشعر بما تشعر به وربما خوفه يزداد عن خوفها لكن عليه أن يطمئنها ولا يزيد من توترها، ظل يضغط على يدها كأنه يخبرها أنه بجوارها، نظر إليها وهي بالكاد ترى ملامح وجهه في الظلام وبصوتٍ خفيض أخبرها بأن عليهما الذهاب إلى

تلك الصومعة ليأخذا طفليهما، أومأت له الزوجة برأسها قبل أن يهما بالحركة، هي تعاني من آلام في فخذيها ولا تزال تنزف لكن عليها أن تتحمل كل هذا من أجل طفليها، يتحركان ببطء شديد حرصا فيه على ألا يصدرا صوتًا أو يقتربا من أي شرطي، وكل حين يرفع جورج رأسه إلى أعلى ليلق نظرة على الاتجاه الذي يتحركان إليه ثم يعود مرة أخرى لوضع القرفصاء، كانت تلك المرة تختلف عن سابقتها، كان يتحرك كأنه يعلم الطريق جيِّدا، فقد طلبت منه إيزابيلا ألا يضل الطريق فصنع لنفسه العلامات الوهمية التي تعينه على فعل ذلك، ظل يتحسس الطريق بتلك الشاكلة التي يبدو فيها كاثنين من اللصوص على وشك سرقة أحد المنازل، ظلا يترجلان بتلك الشاكلة وبصحبة الألم حتى اقتربا من الصومعة أو الاستراحة التي يختبئ بها طفلاهما، هناك كانت في انتظاره مفاجأة غير سارة بالمرة، ضابط شرطة عابس الوجه يقف بالقرب من الصومعة في يده سلاح، لن يتردد لحظة في القبض عليه إن شعر بوجوده، لكن ما كان يصيبه بالرعب حقًا هو ذلك السؤال المُلح الذي يتردد على عقله هل انكشف أمر طفليه أم لازالا يقبعان في الداخل بصحبة الصمت والتخفي، كان عليه الذهاب إلى هناك ليقطع الشك باليقين لكن عليه أولاً إيجاد خطة لذلك!!

ضاقت عيناه وهو يعتصر عقله بحثًا عن فكرة ليشتت بها ذلك الشرطي ليذهب إلى حيث يختبئ طفلاه، يُحرك يديه على رأسه كأنه يحلب أفكاره، يسقط رويدًا رويدًا في موجة امتزج فيها الخوف مع التوتر، ظل يفكر ويفكر حتى اصطدمت عيناه بحجر صغير موجود بجوار قدمه فارتطمت برأسه فكرة تكاد تكون هي الأنسب في الوقت الحالي، انحنى على الأرض وأخذها ثم ركز عينيه على الضابط، أخبر زوجته أنه سيقوم بأمر ما ثم سيتجه إلى أطفاله، طلب منها أن تنتظره هنا ولا تتحرك، أومأت إليه بعينيها اللتين سيطر عليهما الخوف بالكامل، ألقى نظرة أخيرة على الشرطي وهو يفكر كيف سيرسل ذلك الحجر متوسط الحجم إلى الجهة الأخرى من الفراغ المجاور للصومعة، استجمع قواه وراح ينظم أنفاسه ثم ألقى بالحجر مستغلاً الظلام الدامس، تعمد القوة حتى إذا اصطدم بالأرض أصدر ذلك الصوت الذي سُمع من

داخل سنابل القمح التي تحمل في أحشائها مصدره، اتسعت عينا الشرطي وراح يتلفت تجاه الصوت الذي هو مجهول بالنسبة إليه، اقترب منه بخطوات بطيئة يتضح فيها الحرص الشديد والحذر، يشهر سلاحه أمامه ويتحرك ببطء في الوقت الذي بدأ فيه جورج يستعد للحركة، نظر إلى زوجته ثم انتظر حتى ابتعد الشرطي قليلاً ثم شرع بالحركة في وضع القرفصاء بصحبة الظلام والصمت، أراد أن يذهب وحيدًا حتى يصبح قادرا على المراوغة من دون حِمل، عيناه لم ترتفع عن الشرطي الذي لا يزال يبحث عن مصدر الصوت، أي لغة لا يمكنها أن تعبر عن تلك الأحاسيس المتداخلة التي يشعر بها جورج الآن، ظل على تلك الوضعية حتى وصل إلى الصومعة، دخل إلى هناك سريعًا يجر خلفه أسرابا من التوتر حتى تيبس مكانه من هول المفاجأة، الصومعة فارغة، لا وجود للأطفال!!شملته حالة من الارتباك وكانت عيناه مذعورة يكاد البؤبؤان ينفران من المحجرين وهو يبحث عنهما هلعًا، يطوف بعينيه في كل ركن، عقله يرفض فكرة القبض عليهما، بدأت الهواجس تتصارع في ذهنه لتقوده إلى كل ما هو سيئ، الخوف يسيطر عليه و يسلبه سلامه النفسي وصوابه حتى أنه راح يبحث عنهما بلا عقل وبسذاجة متناهية في الأواني والقوارير الموجودة داخل الصومعة!!الصدمة كانت أكبر من أن يتقبلها عقله ووعيه!!استمع إلى وقع أقدام تقترب من الصومعة فظن أنه الشرطي، عليه الهرب حتى لا ينكشف أمره، ركض تجاه الباب فإذا بقدمِه الضريرة تصطدم بالأواني التي سقطت على الأرض وأصدرت ذلك الصوت الذي جذب انتباه الشرطي،والذي راح يهرول حتى وصل إلى الصومعة في الوقت الذي انسحب فيه جورج إلى أقصى منطقة فيها لكنه لم يستطع الهروب من ضوء كشافه الذي ضربه فانكشف أمره سريعًا!!

تهلل وجه الشرطي بالبشر والحبور بعدما تأكد أنه سيكون النموذج الذي يحتذى به وسيشار إليه بالبنان بعدما تمكن من القبض على هذا الهارب، أشهر فوهة سلاحه في وجه جورج الذي صار مصفرًا يحمل فوق طاقته من همٍ وحزن، تحدث إليه بصرامة وطلب منه أن ينبطح على بطنِه ويضع يديه خلف ظهره وإلا قتله في الحال،

بهدوء بدأ جورج يستسلم لأوامره خوفًا على طفليها للذين يجهل مصيرهما حتى الآن، جثا على ركبتيه ووضع يده على رأسِه ثم نظر إلى الشرطي الذي زعق فيه وأمره بأن ينبطح على بطنه ففعل ما أمره به وهو يخبره أنه مظلوم ولولا الضغط النفسي والعقاب البدني الذي تعرض له لما فعل ذلك، الشرطي يستمع إليه وعلى محياه ابتسامة ساخرة تنُمُ على أن كل هذه الكلمات لن تحرك به شيئًا وكأنه متجمد المشاعر لا يبالي بكل هذا،حتى أنه زعق في وجه جورج كي يصمت، اقترب منه الشرطي وأمره أن يضع يديه خلف ظهره ففعل وهو لا يصدق أنه سيعود إلى ذلك المكان الذي أدرك فيه معنى الانكسار من بعد انكسار، وضع رأسه في الأرض وجزيئات التراب بدأت تتحرك على أثر أنفاسه، أخرج الشرطي الأساور الحديدية وهو يبتسم بسادية وتلك الصورة الذهنية تداعب عقله وهو يسلمه إلى الشِريف الذي يود الجميع التقرب إليه طوعًا، لكن بمجرد أن تحرك استمع جورج إلى صوت شيء يرتطم برأسِه من الخلف ثم وجد الشرطي يسقط على الأرض، رفع رأسه فوجد أنها زوجته وبالكاد تستطيع الوقوف وفي يدها ساق خشبية ضربت بها الشرطي على رأسه لتنقذ زوجها، نظر إليها جورج وهو يدرك جيدًا عاقبه ما حدث، سيشعر زملاءه بغيابه وسيبحثون عنه،ووقتها سينكشف الأمر!!راح يضرب بيده على الأرض لكن لم تتوقف المصائب عند هذا الحد بل زاد الموقف صعوبة حينما استمعا لوقع أقدام تقترب من الصومعة، توقعا أنهم زملاء هذا الشرطي استمعوا إلى الصوت واكتشفوا عدم وجوده في الخارج، نهض جورج سريعًا وركض تجاه زوجته، احتضنها وهمس في أذنها، أخبرها بنبرة صوت خفيضة أنه سيخبرهم أنه هو من فعل ذلك، أخذ منها الساق الخشبية وصوت وقع الأقدام يتعاظم ويقترب، نظر في عين زوجته الخائفة بالقدر الذي سمح به الضوء المتسلل إلى الداخل، وضع يده على فمها ليئد أية محاولة منها للاعتراض ودموع عينيها تتساقط على كفِه كحبات المطر، أخبرها بأنهما لا يملكان خيارًا سوى ذلك، هذا هو قدرهم المحتوم وعليهم أن يتحملوه، أخبرها أنه يعلم أنه قدر ظالم أنتجته آلة القمع والعنصرية لكن لا مفر منه!!طلب منها أن تعتني بالأطفال وتسافر إلى أمريكا

الجنوبية لتلتقِ هناك برجل يدعى الأب جونز، أخبرها أن إيزابيلا تعرف كل تفاصيل الرحلة وتفاصيل ذلك الرجل الحليم الذي يسعى لإنشاء مجتمع متعدد الأعراق، أخبرها أنها تعمل هنا في المنزل فلتذهب إليها، الأحداث كانت سريعة ومتعاقبة فلم تستطع الزوجة منع البكاء، قبل رأسها وأخبرها أنه يحبها حبًا جمًا، الزوجة تستمع إلى كلامه وهي تريد أن تصرخ في وجهه ليتوقف عما ينوي فعله لكنها لا تملك أي قرار، وقع الأقدام بدا عند باب الصومعة، رفع جورج يده بحذر عن فمها وهو يبكي بشدة كونه يعلم أنه اللقاء الأخير قبل أن يلقوا القبض عليه، إنها السيدة إيزابيلا مديرة المنزل!!

باغتهم الظهور الذي قلب الأحداث رأسًا على عقب، ظهر الارتياح على وجه جورج، أفاق من تلك الدوامة وقبل أي شيء سألها عن الأطفال فأخبرته باقتضاب وعيناها معلقة على الشرطي الساقط على الأرض بأنها شعرت برجال الشرطة وهم يتحركون داخل المزرعة فكان عليها أن تأخذهما ليختبئا في مكانٍ آخر، تبادل جورج مع زوجته النظرات فشعر بها وهي تزدرد ريقها وهي في حالة بالغة من السوء، قلبها ملتاع على أطفالها لكن سرعان ما أخبرتها إيزابيلا أنهما موجودان في مسكنها الصغير الذي يقع على بعد خطوات من منزل السيد نيكولاس، استفحلت التصدعات بداخل جورج أكثر مما سبق وشعر بأنهم في خطر وهم بالقرب من ذلك الرجل المتعصب، لكن عالجت إيزابيلا الموقف قدر المستطاع وأخبرته أنها أحكمت عليهما الباب جيدًا، هي لم تكن بالإجابة الكافية فقد كان قلباهما وجلين على الرغم من تصديقها، فلو أرادت تسليمهم فما فعلت ما فعلته من الأساس.

- لا وقت لهذه النظرات والتكهنات، علينا المغادرة فإذا أرتد لهذا الشرطي وعيه سنكون في مأزق حقيقي علاوة على أن رجال الشرطة ينتشرون في الخارج كالجراد، يجب أن تختبئوا عن أعينهم حتى لا ينفضح الأمر.

كلامها كان صائبًا بالحد الذي دفعهم للاستسلام والركض معها إلى حيث يختبئ

أبناءهما، بدأوا بالركض معها إلى حيث المبنى، لكن حصل شيء غريب كان غير متوقع، أثناء طريقهم إلى مسكن إيزابيلا استمعوا في الإذاعة الداخلية للمزرعة إلى صوت السيد نيكولاس وهو يتحدث إلى العاملين ويأمرهم بالاستيقاظ للبحث والتفتيش عن زنجي هارب يختبئ داخل المزرعة هو وعائلته، أخبرهم بأن رجال الشرطة في كل مكان وأن الشرِيف وهو سينزلان الآن للبحث عنهم!!الكلام نزل عليهم كالصاعقة، أخذوا يتبادلون النظرات بعد انتهاء الإذاعة ولا صوت سوى صوت الرياح التي كانت أشبه بعواء الذئاب، شعروا للحظة بأن الموت قد استيقظ وبدأ يمشي بجانبهم، طلبت منهم إيزابيلا أن يسرعوا، اقتربوا من المبنى، فتحت الباب ودلفوا جميعًا إلى الداخل واحد تلو الآخر، فزعت ابنتهم وانفطر قلب الأم حينما رأت ابنها على السرير يغط في النوم، لم تشعر بنفسها إلا وهي تركض تجاهه فتأخذه في أحضانها، شعرت بدفء جلده وحرارته لكن طمأنتها إيزابيلا وأخبرتها بأنها أعطت له العقاقير المناسبة وبحلول الصباح سيكون كل شيء على ما يرام، أخبرها جورج بأنها هي من تبرعت بعلاجه منذُ أن علمت بما حل به، نظرت إليها الزوجة التي كانت عيناها مليئة بالدموع، حاولت أن تشكرها قدر المستطاع.

- أنا لا أعلم كيف سأرد لكِ هذا الدين، نحن مدينين لكِ بالكثير.

- أنا لا أفعل ذلك من أجلكِ أو من أجل عائلتكِ بالأخص، أنا أفعل ذلك لأن الظلم قد فرد ذراعيه والتفرقة العنصرية قد بلغت أقصاها، هؤلاء فقدوا إنسانيتهم على وجه الحقيقة لا المجاز، أنا أشاهد بعيني ما يحدث هنا وفي معظم الولايات، أرى ما حدث لمالكوم إكس ومارتن لوثر كينج وهما يدافعان عن حقوق الزنوج لينتشلاهم من بئر العنصرية التي أكرهها وأتمنى أن تزول عن بلادنا، أتمنى أن نصبح كيانا واحدا بلا تفرقة.

وقع الكلام على أذن جورج كان عجيبا حتى أنه خرج عن صمته وشرع يُجيبها.

- أنا في غاية التعجب!!أنتِ تفعلين ذلك وأنتِ لا تنتمين إلينا.

- أنا لا أنتمي إليكم ولكنني بشر، إنسانة بدأت ترى القوانين كالعناكب تنسج خيوطها فتقع فيها الفراشات الضعيفة وتعصف بها الكبيرة، أنا لا أستطيع منع العنكبوت من أن ينسج خيوطه لكن أستطيع مساعدة الفراشات العالقة في شباكه.

- أنا لا أجد ما أقول!!

- لا أريدك أن تقولي شيئا، فقط امكثي هنا مع أطفالك وأنا سأذهب لأتم أمرًا ما، وحينما أعود سنذهب سويًا إلى المخزن، فكما أخبرتك الشاحنة ستأتي غدًا وستذهب بكم إلى المكسيك تمهيدًا لتنفيذ الخطة التي اتفقنا عليها، أنا ذاهبة الآن وسأغلق الباب، لا تفتح ولا تصدروا أي صوت مهما حدث في الخارج.

استفسرت الزوجة عن ذلك، فقد أخبرها زوجها بكلام مشابه حينما كانا في الصومعة فأخبرتها أنها لا وقت لديها، أخبرتها بأن جورج سيتولى ذلك، طلبت منه إيزابيلا أن يخلع قميصه، جحظت عيناه على أثر ذلك فأخبرته أنها تريده لتتم خطتها، خلع قميصه وعلامة استفهام كبيرة فوق رأسه لكنه كان لا يملك سوى الموافقة، ملامحه كانت تتساءل عما تنوي فعله لكنها أخبرته أنهم لا يملكون وقتا لذلك، أخبرتهم أيضًا أن دولاب الإسعافات الأولية به من المساعدات الطبية ما سيعالج جروح زوجته حتى تعود، طلبت منه أن يضع على وجهه بعض المساحيق لتحد من تلك الانتفاخات التي تملأ وجهه، أنهت كلامها ثم همت بالخروج وأغلقت الباب.

دون مقدمات بدأت تركض داخل الحقل الكبير وهي تنوي أن تنصر حرية إنسان محتملة على فحيح اعتقال محتوم، تركض وعقلها يعلم جيدًا ما تنوي فعله، تشعر بقوة كبيرة بداخلها تدفعها للدفاع عن هؤلاء المساكين الذين ألقى الظلم بكامل ثقله عليهم،والذين سيواجهون مصير كل من سبقوهم سلفًا إذا كفت عن مد يد المساعدة لهم، هي تدرك جيدًا أنها تفعل أمرا في غاية الخطورة، ربما سيكلفها حياتها أو حريتها على أقل تقدير،لكنها جاهزة لأي احتمالات قادمة، فقط لأنها تؤمن جيدًا بما تفعله، وصلت إلى المنطقة التي قد سبق ورسمتها في خيالها، اقتربت من أحد الأسلاك الشائكة

وبهدوء نظرت حولها حتى تأكدت أن لا يوجد أي شرطي يتابعها، أمسكت بالعمود الخشبي الموجود على السور وراحت تصعد بإحدى قدميها على السلك الشائك الموجود في المنتصف والذي يحتاج منها أن ترفع قدميها قليلاً لتدركه، أمَّا قدمها الأخرى فقد تركتها حرة طليقة في الهواء ثم سرعت تهز جسدها إلى أعلى وتترك وزنها يهبط بها على السلك الذي تقف عليه حتى يلين تحت أقدامها، لا يمكن لوزنها الخفيف أن يقطع السلك لكن يجعله يتراخى وهذا هو المطلوب، وصلت إلى مرادها فعكفت على الاستمرار في فعل ذلك، نزلت إلى الأرض ثم عبرت بإحدى قدميها إلى الجهة الأخرى من السور وبقيت القدم الأخرى بداخل المزرعة، قِصر المسافة بين الأسلاك رغم توسيعها أجبرتها على وضع القرفصاء وأجبرت ظهرها على التقوس بتلك الوضيعة الصعبة، وضعت قميص جورج بين ظهرها والسلك وبهدوء بدأت تجاهد لتفرد قدميها قدر المستطاع فتضغط على السلك الذي يمسك بقميص جورج فلا تجرح أطرافه الحادة ظهرها، في الوقت نفسه يتقوس السلك وتتسع المسافة بينه وبين السلك الذي تراخى سلفًا، استمرت في توسيع الفرجة حتى شعرت بأن السلك لن يتحمل الصمود أكثر من ذلك، أنهت ما كانت تفعله وعادت إلى وضعها الطبيعي داخل المزرعة، أمسكت بقميص جورج وشبكت جزء منه على إحدى الأشواك البارزة وشدته بقوة فتمزق القميص وبقيت قطعة قماش صغيرة عالقة في السلك وهذا ما أرادته، في يدها ما تبقى من القميص، عليها إذن التخلص منه إذا أرادت أن تتلاعب بعقل رجال الشرطة، دارت الأفكار سريعًا في فلك عقلها حتى استقرت على تلك الفكر ة التي راقت لها فهرعت تركض مسافة قليلة ثم همت تنبش بيدها الأرض حتى حفرت حفرة صغيرة قادرة على دفن القميص، ألقت به وراحت تضع عليه التراب ليصير نسيًا منسيًا، ظلت تضع عليه التراب حتى ابتلعته الأرض بالكامل، وقفت على أثر ما فعلته وظلت تقفز عليه حتى لا يجذب الشكوك ناحيته، بهدوء انسحبت إلى حيث الأسلاك وهناك وضعت رأسها في الأرض ومزقت جزءً من ملابسها ثم شرعت تصرخ صراخًا عاليًا كأنها تُسلخ حية!!

***

الشِريف أنهى جلسته مع السيد نيكولاس، قص عليه خلال وقت قصير ما حدث من جورج تجاه أحد رجاله، غلت الدماء في عروق ذلك المتعصب حينما أدرك أن هذا المجرم وعائلته يختبئون في مزرعتِه وأن رجال الشرطة يبحثون عنهم، أراد أن يمد يد العون إلى هؤلاء كونه كاره للزنوج ويتمنى لو يقضى عليهم تمامًا، هب واقفًا واستأذن الشِريف ودلف إلى حيث غرفة صغيرة بها ميكروفون موصل عبر أسلاك لعدد من مكبرات الصوت الموجودة داخل المزرعة، ضغط على الزر وتأكد من اتصال الدائرة ثم شرع يأمر العمال اللذين يعملون معه في المزرعة بالاستيقاظ والخروج لمساعدة الشرطة في البحث عن هذا المجرم القاتل الهارب، كانت كلماته جادة تحثهم على الانتقام من جورج وعائلته، استمع العاملون إلى تلك الكلمات فبدأوا يخرجون على استحياء ويوقظ بعضهم البعض، استمع جورج إلى تلك التهديدات هو وزوجته وإيزابيلا وهم في طريقهم إلى منزلها!!

مرت الدقائق القليلة منذُ أن تركتهم إيزابيلا في غرفتها وأخذت قميص جورج وانطلقت لتنفيذ خطتها، جورج أخذ ابنته في أحضانه وجلس بجوار ابنه النائم بوعي متأرجح على السرير من جهة ووالدته من الجهة الأخرى بعدما طهرت جروحها بتلك المواد المطهرة الموجودة في صندوق الإسعافات، جلسوا جميعًا على ذلك السرير منكسري الخاطر، تثاقلت عليهم الهموم واحتضنتهم حتى باتت تعيق أنفاسهم، استمعوا إلى وقع أقدام تتحرك بالقرب من الباب فانكمش جورج وتعاظم الخوف بداخلهم مع تصاعد الصوت، أخذ ابنته في أحضانه ووضع يده على فمها حتى لا تصدر صوتا، اقتربوا أكثر من الباب،إنهما عاملان من هؤلاء اللذين يعملون في المزرعة، استمع جورج وعائلته لأصواتهم وهم يتبادلون الحديث، افتتح أحدهما الحديث متسائلاً عن إيزابيلا وأنه لم يراها منذُ أن أُذيع صوت صاحب المزرعة.

- ربما نائمة!!

- لا، هي من أوائل الأشخاص اللذين يحرصون على حفظ السلام والنظام داخل المكان، لا يمكن أن تكون نائمة.

- إذن فهي تبحث عن عائلة هذا المجرم كما نبحث عنه.

- أو ربما يحتجزها في الداخل.

توترت أعصاب جورج حينما استمع إلى تلك الجملة وأدرك أن ناقوس الخطر بدأ يدق أجراسه، انعقد حاجبا ذلك الشخص الذي كان يظنها نائمة، سأله وعلامة التعجب تتعاظم فوق رأسه ماذا عليهما أن يفعلا.

- سنطرق الباب.

وافقه الرأي فهما يقتربان من الباب أكثر ودوامات التوتر بدأت تضرب جورج وزوجته، يتضخم بداخلهم القلق وتتصاعد موجات التوتر فتدفع جورج ليحتضن ابنته ويقبلها، أمَّا زوجته فوضعت يدها على رأس ابنها وباليد الأخرى راحت ترسم الصليب على رأسها وكتفها وهي تدعو الرب وترتجف، بهدوء بدءا بطرق خفيف يتصاعد تدريجيًا، تلك الدقات الخفيفة كانت تنخر في قلوب أفراد العائلة وتتيح المجال لعقولهم لتخيل المستقبل المظلم الذي سيحدث إذا فكرا في كسر الباب.

- لا تجيب.

- شعوري يخبرني بأن هذه العائلة في الداخل ويحتجزون السيدة إيزابيلا.

- وما الحل.

- نكسر الباب لنتأكد.

ظهر على وجه جورج آثار ما كان يخشاه، أغمضت الزوجة عينيها على أثر ذلك لكن سرعان ما عاد السكون إلى قلوبهم حينما استنكر زميله هذا الفعل خوفًا من غضبها حال عدم وجودها، لكن زميله يحاول إقناعه بأن الوضع سيكون أكثر سوءًا إن كانت في الداخل، لم ينتهيا من ذلك النقاش حتى استمعا إلى وقع أقدام الشِريف

وبعض من رجال الشرطة والسيد نيكولاس الذي سألهم مستفسرًا عن أمرهم حينما وجدهم يتجادلون بالقرب من باب مسكن إيزابيلا فأخبره الذي هو صاحب فكرة الاقتحام بما حدث موضحًا له وجهة نظرة التي راقت للشِريف بعدما قلبها في رأسه ثم أعلنها للجميع أن يكسروا الباب مقتحمين المنزل ليتأكدوا من تلك الشكوك التي تداعب صدر هذا العامل والتي هي مقنعة أيضًا للشِريف، نزلت الكلمات على أذن جورج كالصاعقة، أظلمت وادلهمت عليه الأمور، لا يدرك ما عليه فعله، الرجال في الخارج يتجمعون ليبدأوا اقتحام الغرفة، سينكشف أمره هو وأسرته وسيتم القبض عليه ظلمًا وعدوانًا، استرق النظر إلى زوجته فوجدها لازالت تجمع أصابع يدها اليمنى وترسم الصليب على صدرها وتُحرك فمها بالدعاء، تطلب من الرب العون مرارًا وتكرارًا، اختلطت أصوات دعائها بأصوات هؤلاء الرجال اللذين تجمعوا وبدأوا بالعد التنازلي لاقتحام الغرفة، جورج بات في موقف صعب، عليه اتخاذ قرارا سريعا وحاسما خاصةً أنهم اقتربوا من الرقم الأصغر فنهض من على السرير ونظر إلى عائلته نظرة أخيرة فيها كمٌ من الوداع لا توجد لغة على الأرض تستطيع وصفه، وصلوا إلى الرقم الأصغر وهموا يركضون ثم اصطدموا بأكتافهم بالباب الذي ارتج على أثر ذلك وكاد أن ينفسخ لكن ظل متماسكًا كأنه يحاول مساعدة جورج الذي نزع قلبه على أثر تلك الصدمة والخبطة، اجتاح جسد زوجته تنميل غريب يشعرها بأن أسرابا من النمل تغزوا جسدها، الشِريف في الخارج ينتظر الدخول إلى الغرفة بشكِل طفولي، نظر جورج إلى زوجته وأطفاله بعيون مفزوعة خائفة يخشى أن يصيبهم مكروه فلم يعد في قلبه مساحة لمزيد من الحزن والألم، يشعر بالعجز الكامل ولا يملك سوى أن يحميهم،بالأخص بعد الخبطة الثانية التي بدأ إطار الباب على أثرها يتصدع، لن يتمالك نفسه أكثر من ذلك دلف جورج تجاه الباب، وقف في استسلام تام وفرد ذراعيه في وضع النسر المُحلق، أراح رأسه إلى الخلف وجعل صدره في مواجهة الباب حتى يُمسك به فور دخولهم ولا تُصاب عائلته بأذى، شعرت ابنته بذلك فهمت لتنادي عليه لكن وضعت زوجته يدها على فمها وقيدت فمها وحركتها، وصل العاملون إلى

الرقم الأصغر مرة أخرى وقبل أن يهموا بالركض تجاه الباب استمعوا إلى صوت صراخ إيزابيلا يأتي من بعيد، انتبه إليه الجميع حتى جورج استفاق من غفوته، استمر الصراخ فدفع الجميع إلى الركض تجاهها وتركوا الباب وصرفوا النظر عن الاقتحام!!

هناك كانت إيزابيلا تجثو على ركبتيها وقد تمزق جزء من ملابسها التي اختلط بها التراب، عيناها كانت تبكي بغزارة، دون مقدمات ركضوا تجاهها وساعدوها على النهوض، حتى إن بعضهم أمسك بذراعها بقوة حتى لا يختل توازنها وتسقط على الأرض، الشِريف تقدم وهو يدفع كل من يقف في طريقه حتى وصل إليها، سألها عما أصابها بعدما تجول بعينيه في كل شبر في جسدها عبر البطاريات، ازدادت في البكاء وأخبرتهم بصوتٍ بالكاد يفهم بين البكاء المتمزق مع الاستعبار الذي يخرج من الصدر، إنها الاحترافية التي جعلت الشِريف يصر على معرفة ما حدث، أخبرتهم أنه جورج وعائلته، رأتهم وهم يحاولون الهرب ولما أمسكت به ضربها وأسقطها على الأرض ولمَّا حاولت الإمساك به دفعها فمزق جزء من ملابسها وفر هاربًا عبر تلك الفتحة التي كان يعمل على توسيعها حين رأته، تحرك الشِريف إلى حيث أشارت وباستخدام بطارية الضوء اكتشف قطعة القماش الباقية من قميصه والعالقة على السلك الشائك!!من أجل هذا رسمت خطتها فجاءت في الوقت المناسب، طلب من أحد مساعديه أن يمد يده ويلتقطها في الوقت نفسه كان يشعر بأن هناك شك في كلامها لكن دعم موقفها ذلك الشرطي الذي ظهر أمامهم وهو مصاب في رأسه، إنه ذلك الشرطي الذي ضربته زوجة جورج على رأسه بالساق الحديدية، شرع يشرح له ما حدث وكيف كان على شفا القبض على جورج لولا أن أحد ضربه على رأسه وبالتأكيد هي زوجته التي تساعده في ذلك، تبادل الجميع النظرات التي يملأها الشك والأفكار المتضاربة، أشعل الشِريف لفافة تبغ وأخذ يفكر في ذلك الأمر سريعًا حتى اهتدى إلى أن يرسل بعض الرجال خلف الاتجاه الذي أشارت إليه إيزابيلا، فأمرهم بذلك وطلب من بعض عمال المزرعة أن يذهبوا معهم، في الوقت نفسه أصر على بقاء عدد قليل من أفراد الشرطة ليذهبوا معه إلى مسكن إيزابيلا لأنه يريد رؤيته

من الداخل، انفتحت عينا إيزابيلا فجأة، اتسع محجريهما على أثر كلام الشِريف ثم عالجت الموقف سريعًا حتى إذا كان فخا منه أو كمينا لا تقع فيه بسذاجة، تظاهرت بأن الموقف عاديًا في الوقت الذي كانت فيه أعصابها تحترق وهي تشعر بأن الشِريف سيكشف الأمر!!

***

ارتفع وقع أقدام الشِريف وصاحب المزرعة وإيزابيلا وبعض رجال الشرطة وهم يقتربون من تلك الغرفة التي تحتضن في رحمها جورج وعائلته، سقطت إيزابيلا في دوامة الخوف الشديد والقلق حتى إن يدها كانت ترتعش وقدماها أيضًا دون أن يشعر بها أحد، أو كانت تجاهد من أجل ألا تُظهر تلك الأحاسيس التي تعتريها، تتحرك ببطء قدر المستطاع وسط ذلك التجمع الصغير الذي يذهب لرؤية مسكنها، السيد نيكولاس لم يبد أي اعتراض حينما طلب منه الشريف ذلك بل إنه كان مرحبًا للغاية، ظهر باب المسكن أمامهم وبدأ يقترب منهم شيئا فشيء، ارتفعت نوبات القلق أكثر واستفحلت، ازدادت في التدفق الخرافي والمروع حتى بدأ يظهر على وجهها آثار ذلك رغم كل محاولاتها لطمسه، تجمع الجميع وأمر الشريف إيزابيلا بأن تفتح الباب، ابتسمت ابتسامة صفراء باهتة ثم تحركت تجاه الباب، اصطنعت أنها ليست على دراية أنه محكم الغلق ويحتاج إلى مفتاح، أمسكت بمقبض الباب وظلت تحركه وهو مُحكم الغلق، أرادت أن ترسل إلى جورج رسالة ليحذر وليختبئ حتى لا يمسك به القوم الجبارين الذين لن يرحموه، مدت يدها وأخرجت المفتاح ببطء، شعر الشريف بأن هناك تعمد لضياع الوقت، علاوة على أنه يعلم أن الباب موصد الغلق سلفًا فأشار إلى أحد الضباط فانتزع منها المفتاح وأولجه في المكان المُخصص له ثم دفع الباب فأصدر صريرا كان بمثابة الصوت الأكثر رعبًا لإيزابيلا وهي تنتظر أن يُكشف ما كان خفيًا.

دلف الشِريف ومن معه إلى الداخل، انتظرت إيزابيلا قليلاً في الخارج وجسدها

تتجول فيه الرعشة التي ولدت من رحم ذلك التوتر وكادت أن تقضِ علي قلبها لكنها بدأت تهدأ شيئا فشيء حينما لم تستمع لأي صوت، بهدوء بدأت تتحرك إلى داخل الغرفة فوجدتها خاوية على عروشها، تبخرت عائلة جورج، هدأت قليلاً وهي تتجول بعينيها داخل الغرفة والجميع يبحث داخلها عن أي دليل إدانة، لم يتوقع الشِريف بأن العائلة بالداخل هو فقط يبحث عن دليل إدانة ولا يدرك أن العائلة بالكامل تتكوم على بعضها البعض أسفل السرير الذي يقف بالقرب منه، كانت فكرة من جورج أن يختبئوا أسفل السرير بعد محاولة اقتحام الغرفة في المرة الأولى حتى إذا فكروا في العودة أو حاول أحد آخر اقتحام المسكن لا ينكشف أمرهم، وضع جورج يده اليسرى على فم ابنته حتى لا تصدر صوتا خاصةً أن دموعها لم تتوقف لحظة منذُ أن هرعوا إلى أسفل السرير، الصغير نائم بنصف وعي والأم حريصة على ألا يصدر منه صوت يجذب الانتباه، رجال الشرطة يتحركون داخل الغرفة وعين إيزابيلا لم تتوقف عن الحركة، تحرك الشِريف داخل الغرفة واقترب أكثر من السرير، جورج يشاهد حذاءه الضخم من تلك المسافة التي تفصل الملاءة عن الأرض، الخوف يسيطر على كيانه بالكامل حتى اقترب وجلس على طرف السرير فتصاعد الخوف أكثر وشعر جورج بأحاسيس لم تمر به من قبل على الرغم من كل الأحداث التي مرت عليه لكن هذه المرة كان الخوف يأكل من قلبه أكلاً، لم تتوقف زوجته لحظة عن الدعاء إلى الرب لينجيهم من تلك الدوامة التي سقطوا فيها، وقعت عينا جورج على عُملة معدنية "سنت معدني" كانت بالقرب من قدم الشِريف، خشي جورج أن تلفت انتباهه فينحني ليأخذها فينكشف أمرهم، بهدوء مد يده على استحياء ليأتي بها، موقع إيزابيلا داخل الغرفة مكنها من مشاهدة يده وهي تخرج من أسفل السرير، الموقف كان صادمًا بالحد الذي جعلها تتيبس مكانها، خاصةً عندما اقترب شرطي من الشِريف يستفسر منه عن شيء، شعرت بالتوتر حينما نهض على قدميه من جديد وراح يضرب كل ركن في كيانها، تصاعد طنين صوته المزعج في أذنها، بهدوء ظاهري مصطنع تراقب الشِريف وهو ينهض ليتحدث مع أحد رجاله غلاظ القلوب وهو يظن أنه يحمل له أمرًا هامًا،

دار جسده ليصبح وجهه مقابلا لوجهه فدهس بكعب حذاءه العملاق أطراف أصابع جورج، الحذاء عملاق له كعب ضخم فلم يشعر الشريف بأن هناك أصابع آدمية أسفله، جورج كان يتألم بشدة ويشعر أن أصابعه كادت أن تُهشم أسفل كعب هذا الحذاء الصارم لكنه كان مُلزم بعدم الحركة وألا يصدر صوتا حتى لا ينكشف أمره، عين إيزابيلا تشاهد كل شيء وقلبها ينفطر على هذا المسكين وهي لا تملك له ضرًا ولا نفعًا، في الوقت نفسه يخبرها عقلها بأنها ستنال نفس المصير إذا كُشف أمره !!، جورج لا يزال يجاهد ليتحمل ما لا طاقة له به، يغمض عينيه ويجز على أسنانه ألمًا ويعض ذراعه في بعض الأحيان وأصابعه تُهرس أسفل كعب حذاء الشِريف ولو نظر الشرطي الذي يبادله الحديث إلى الأسفل لانكشف الأمر،انتظر جورج متحاملاً على نفسه حتى أنهى الشِريف حديثه وهم ينصرف بعيدًا فرفع الثقل من على أصابع جورج التي لم يعد يشعر بها، يجاهد ليُحركها بعدما أصابتها تلك التشنجات نتيجة الكدمة الشديدة الناتجة عن الحمل، سحب ذراعه إلى الداخل ولم يتمكن من أخذ العملة المعدنية مما دفع إيزابيلا للتحرك تجاه السرير وانحنت وأخذتها، رآها جورج فأدرك أنها على علم بوجودهم، استمر البحث لدقائق أخرى ثم قرر الشِريف الخروج بعدما فشلت كل محاولاته في إيجاد دليل، لم يُخيل له بأن عائلة جورج بالكامل في نفس الغرفة التي هو بها الآن، أغشى الرب قلبه وعينيه، فربما استجاب لدعاء الزوجة المكلومة، خرج الجميع وأغلقت إيزابيلا الغرفة وذهبت معهم حتى تتأكد أن الشِريف ومن معه قد تركوا المزرعة بالكامل وعادت الأمور كسابقها بعدما تأكد الجميع بأن جورج وعائلته قد فروا تجاه ما أشارت إليه إيزابيلا.

***

عادت إلى جورج وعائلته بعد ساعة كاملة لتجدهم كما هم لم يتغير سوى أن أصابع جورج قد انتفخت وتغير لونها، حاولت قدر المستطاع أن تعالجها فوضعت عليها بعض الأدوية ولفتها برباط، وكان ما يقلقها هو أن يكون هناك كسر في الأصابع،

فإذا لم يعالج بالطريقة الصحيحة سيضطرون إلى بتر يده، عالجتها قدر المستطاع، سألها جورج مستفسرًا عن الشِريف ورجاله.

- لقد غادروا جميعًا المزرعة.

- كيف ونحن قد أصبنا أحد رجاله!!؟؟

ابتسمت إيزابيلا على استحياء وأجابته أنها منذُ طفولتها وهي تهوى قراءة القصص والروايات فخلق ذلك لها خيالاً خاصًا لكنه كان معطلاً، لم يظهر إلا في محاولة تضليل الشِريف وزبانيته، قصت عليهما سريعًا ما حدث فأخبرها جورج بأنها عرضت نفسها كثيرًا للخطر وكان من الممكن أن تُسلب منها حريتها.

- ما أفعله هو سبيلي الوحيد، إنني أبذل جهدًا ذهنيًا هائلاً كل يوم كي أمنع نفسي من الانهيار وأنا أرى بعيني الظلم يستفحل يومًا بعد يوم، حينما رأيتك ورأيت حال أطفالك من الوهلة الأولى شعرت أنك تمثل كل هؤلاء المطحونين اللذين تورطوا في حياة ومشاكل لم يسعوا إليها، وحينما علمت بالقصة كاملة اتخذت قرارًا إمَّا أن أنجح فيه وإمَّا أن أخفق، وكنت على استعداد لأن أتحمل النتائج لكني لم أكن على استعداد لتحمل الألم النفسي إن لم أمد لك يد المساعدة.

جورج لم يجد ما يقول،وفي الوقت نفسه طلبت منه التحرك سريعًا قبل أن يعود أحدهم إلى هنا، حمل جورج ابنه على كتفه ولف حول خصره يده غير المصابة وحملت زوجته ابنتهما فوق حملها للألم الذي يصحبها وانطلقوا جميعًا إلى حيث المخزن تمهيدًا لتنفيذ خطتها.

وصلوا إلى المخزن المُخصص لتخزين الحبوب وهناك طلبت منهم إيزابيلا أن يختاروا مكانا مناسبا ليمكثوا فيه حتى الصباح، هناك بالقرب من القمح في تلك المساحة الصغيرة سيكون منزلهم المؤقت حتى الصباح، تكوموا جميعًا ثم ذهبت إيزابيلا وعادت بعد نصف ساعة وهي تحمل معها الطعام، فهم بحاجة إلى ما يعينهم على الاستمرار، أكل جورج بعض اللقيمات الصغيرة ليسد جوعه ويُسكت صراخ

معدته، هو لا يعاني من جوع الطعام بل يعاني من جوع الشعور بإنسانيته وكرامته أكثر، انزوى بعيدا عن أسرته، جلس وحيدًا بصحبة الانكسار الذي اعتاد عليه منذُ ولادته، هو يدرك أن غدًا سيكون يومًا صعبًا مليئا بالمغامرات، عليه أن يأخذ قسطا من الراحة ليستطيع مواصلة تلك الرحلة الشاقة، السويعات القليلة الباقية هي ملاذه الوحيد للراحة، فهو لا يدرك القادم ولا يعرف ما ينتظره غدًا، مدد جسده على الأرض وراح يتأمل السقف ليكسر حاجز الزمن في ذلك المخزن حتى غالبه النعاس وسلب وعيه.

***

أشرق النهار إشراقًا ثقيلاً سمجًا، فتح جورج عينيه بعد نومٍ متقطعٍلم يعرف فيه طعمًا للراحة، لم يسلم طول هذه الليلة من رماح الذكرى وسكاكين الظلم التي راحت تنخر في صدرِه وقلبه حتى مطلع الفجر، استمع جورج إلى أصوات تأتي من بعيد كأنها حلم، استعاد وعيه وهب واقفًا، ركض تجاه أفراد أسرته، أيقظهم ثم هرعوا جميعًا بعدما حمل طفله الذي تحسن حاله بالقدر المطمئن للقلب واستتروا جميعًا خلف القمح، سكنوا بصحبة الرهبة والخوف حتى فتح الباب فكانت إيزابيلا وقد أتت لهم بطعام الإفطار، بعضا من المعجنات وإناءً صغيرا من اللبن، طعام بسيط يعيد لهم طاقتهم ويعينهم على ما هو آت، تناولوا الطعام بسرعة البرق واطمأنت إيزابيلا على حال الصغير وأدركت أنه استرد جزءً كبيرا من عافيته وأنه لم يعد بنصف وعي كما كان.

- أمامنا نصف ساعة وتصل الشاحنة إلى هنا ويبدأ العمال في نقل القمح إلى السيارة، لن تستطيعوا الدخول إلى السيارة بطريقة تلفت الأنظار أو ينكشف من خلالها الأمر.

- ماذا نفعل تحديدًا.

- لا تقلق فأنا لدى خطة لذلك.

بعد نصف ساعة وصلت السيارة إلى المزرعة ودخلت حتى توقفت بظهرها في

الثلث الأول من المخزن، فُتح صندوقها العملاق وبدأ العمال في نقل القمح إليه في حركة رتيبة لا تتوقف أبدًا، باتوا كخلية نحل لا تتوقف لحظة عن العمل، جورج وعائلته يجلسون في تلك المنطقة الآمنة البعيدة عن الأنظار داخل المخزن، منطقة تعلم إيزابيلا جيدًا ألَّن يذهب إليها أحد من العمال، جلست العائلة بالكامل بصحبة الخوف والقلق يسترقون النظر ويشاهدون العمال وهم ينقلون القمح إلى داخل صندوق الشاحنة، بين حين وآخر يرمق جورج زوجته فيجد الخوف يتجسد عليها بوضوح شديد فيبتسم لها ابتسامة باهتة ليطمئنها ويمسك يدها ويضغط عليها ليؤكد لها أن كل شيء على ما يرام ولا داعٍ للقلق، هم جميعًا يجلسون في انتظار الإشارة المتفق عليها من إيزابيلا التي انتظرت حتى تبقى أشياء بسيطة من القمح فراحت تصيح في الجميع، تأمرهم بأن يتجمعوا هناك أمام الشاحنة خارج المخزن وكان معها مخبوزات صغيرة وزجاجات من الجعة التي يتناولها جميع العمال، طلبت من الجميع أن يحضروا إلى هنا ليحتفلوا بتلك الصفقة ونجاحها فانصاع العمال للأمر وتركوا البضاعة وذهبوا إلى حيث أمرتهم وبدأت بتوزيع الشراب عليهم في حضور السيد نيكولاس الذي ظل ينظر لها باستغراب شديد وقد ارتاب في الأمر وكان عليه أن يفهم ما يحدث.

- إيزابيلا!!أنتِ تعملين لدي منذُ سنوات طويلة وخلال هذه السنوات تمت الكثير من الصفقات المشابهة لتلك الصفقة التي ستذهب إلى المكسيك، لماذا الاحتفال هذه المرة!!؟

رسمت على وجهها ابتسامة واهنة لتمحو آثار تلك الصدمة التي اعترتها، بدت أمامه هادئة وبداخلها صراع شديد للحفاظ على هدوئها، هي كانت تتوقع هذا السؤال ولكن الجهد الأكبر في إقناعه بالإجابة.

- ليلة البارحة تعرضنا لشيء كاد أن يسلب منا حياة أي عامل هنا أو يفسد علينا صفقتنا أو ربما كنا لا ننجو منه، شعرت أن الرب أنجانا فعلينا أن نحتفل بهذا.

أنهت حديثها ثم تجرعت رشفة من الجعة وولت وجهها بعيدا حتى لا ينكشف أمرها ثم انهمكت في توزيع المخبوزات، استغل جورج هذا الشتات وهرع إلى الشاحنة هو وعائلته كما هو مُتفق عليه، اتخذ بداخلها مكانًا بعيدًا عن الأنظار وجلس هو وأسرته كأن على رؤوسهم الطير داخل البضاعة الكثيفة حتى انتهى العمال من رص ما تبقى، أغلقت الشاحنة وتحركت إلى المكسيك.

- 10 -

وصل جورج إلى نهاية رحلته في مطار غيانا بعد نهاية رحلة الطائرة التي استقلها من المكسيك، قضى في المكسيك عدة أيام حتى استطاع الحصول على تأشيرة السفر، كان يواجه الكثير من العقبات لكنه كان يراوغها حتى لم يجد شيئا آخر ليفعله إلا أن يعترف بذهابه إلى الأب جونز حيث أنه يتعرض للاضطهاد في بلدِه كونه زنجيا، هنا زالت كل العقبات لأن الأب جونز كان يتمتع بسمعة طيبة في دولة غيانا، حتى إن حاكم الدولة نفسه أعطى له تلك المساحة من الأرض لإقامة مدينته، مدينة الأب جونز التي تُعد كوطن خاص للَّاجئين والمنبوذين، وصل أخيراً إلى نهاية رحلته كما خططت له إيزابيلا سلفًا، لسوء حظه وصلت الطائرة في وقتٍ متأخر من الليل، حيث الظلام والهدوء المريب الذي يصيب بالخوف، هو لا يملك سوى أموال بسيطة لن تكفي لإقامة ليلة في الفندق الخاص بالمطار، في الوقت نفسه هو لا يعرف ما تخبئه له الأيام القادمة، وهل سيلتقي بجماعة معبد الشعب هؤلاء أم سيفشل الأمر، سقط جورج في دوامة من الأسئلة انتهت بقرارِه بأن يجلس هو وأسرته في صالة الانتظار الخاصة بالمطار حتى يحل الصباح فإذا كانت إيزابيلا صادقة بشأن ما أخبرته به فستأتي حافلات معبد الشعب في الصباح، من دون مقدمات جلس على الكرسي ووضع تلك الحقيبة التي كان يحملها أسفل قدميه، جلست بجواره ابنته التي كان رأسها ثقيلا للغاية، لم تنتبه إلى شيء، فقط ألقت بها على قدم أبيها وراحت تغط في النوم، هو يحتضن ابنه الجالس على قدميه يضع رأسه على صدره ويغط هو الآخر في النوم في الوقت الذي مالت فيه زوجته على كتفه من الجهة الأخرى وقد غلبها النوم، تكوموا جميعًا على

جورج في الوقت الذي سقط فيه داخل دوامة من التفكير لا تنتهي، ماذا سيفعل إذا لم تأت حافلات معبد الشعب، عليه أن يمتلك خطة بديلة،وفي الوقت نفسه الأموال التي لديه لا تكفي، كان يخشى أن يأتي أحد ويقوم بطردهم من هنا، وضع خطة احتياطية لذلك وكان لا يضمن نجاحها، فقط هو يتمنى أن تسير الأمور على ذلك النحو الجيد ولا يحتاج إليها، ظلت تلك الأمواج تلطمه مرارًا وتكرارًا حتى تنفس النهار، تنفس سريعًا فلم يشعر بتلك الساعات التي قضاها بحثًا عن إجابة لتلك الأسئلة التي تدور في رأسِه، كان الضغط العصبي قد وصل إلى أقصاه مع إشراقة النهار، فأدرك أن عليه أن يخرج من المطار حتى إذا حضرت الحافلة وجدها، فهو لا يعرف لها موعدا محددا وعليه أن ينتظرها من الصباح الباكر، خرجوا جميعًا إلى خارج البوابة الرئيسية، بحث جورج بعينيه فلم يجد لضالتِه أثر، سأل بعض الحاضرين والموجودين في محيط المطار فلم يهتد إلى إجابة تُريح صدره، فمنهم من لا يعرفها ومنهم من أخبره بأنه لم يرها، طلب منهم أن ينتظروا هنا حتى يدركوا الحافلة حينما تأتي ، وهو سيذهب ليبتاع لهم طعاما، تركهم وراح يركض حول المنطقة المحيطة بالمطار يبحث لهم عن شيء يُؤكل ليبتاعه، كانت اللغة الإنجليزية والعملة الخضراء التي يحملها تمثل عائقا كبيرا أمامهم، عدد من المتاجر كان لا يفهم ما يريد، وحتى إذا فَهِمَ يرفض تلك العملة التي لا يتعاملون بها هنا ولا طائل لهم بتبديلها من المصرف، ظل جورج هكذا حتى اهتدى في النهاية إلى أحد المتاجر التي تقبلها، ابتاع منه ما كان يفهمه وعاد سريعًا إلى أهله ليُخبروه بأن الحافلة المنتظرة لم تظهر بعد، لا يملك جورج سوى الانتظار الثقيل الذي يُصيبُه بالرعب أكثر من الملل، ظل أسير ذلك الإحساس الذي يتضاعف فيه الرعب كلما مرَّ الوقت، حتى آذنت الشمس بالمغيب ولم تظهر تلك الحافلة المنتظرة، أصابه الكثير من الأحاسيس المختلطة التي كان يسيطر عليها الخوف، رفض جورج الأكل وفضل أن يترك الطعام لأطفاله وكذلك زوجته، اتفقا على ألا يأكلا منه حتى لا يُسرفوا في إنفاق المال، يوم كامل بلا طعام ولا يدري ماذا سيحدث غدًا!!حل الظلام عليهم ضيفًا ثقيلاً يأخذ من سلامهم النفسي قدر ما استطاع، ترك لهم إحساسا شنيعا يوحي بالموت،

المكان من حولهم يهدأ تدريجيًا ويحل الصمت الذي تتوجس من أجله القلوب، انهمرت عليه أسهم التوتر، وقرروا أن يقضوا هذه الليلة أيضًا في العراء، خلدت أفراد الأسرة بأكملها للنوم وأمسك جورج في يده عصا معدنية التقطها من الأرض ليحمي بها أسرته إذا هاجمهم لص أو حيوان شرس، أمسك بها وجلس يحرسهم، حتى إذا سقط في غياهب النوم سقطت العصا وارتطمت بالأرض استعاد وعيه سريعًا وأمسك بها، في اليوم التالي كان عليه شراء طعام لأولاده، فذهب إلى المتجر ذاته وأنفق جزءً من النقود على نفس الطعام الذي تذمر بسببه ابنه الصغير في البداية لكن لم يصمد طويلاً في التمرد بسبب أطيط معدته، لم يتبق مع جورج سوى القليل من المال والكثير من التوتر حتى الظهر، فبدأ يشعر بالانهيار وهو يبحث عن حل بديل، المال سينفد بحلول الغد وسيقضي الليلة أيضًا في العراء، لكنه استمع إلى صوت حافلة تأتي من بعيد، نهض جورج ونظر تجاهها،إنها حافلة فضية اللون، تمنى أن تكون هي الحافلة المقصودة، ترك أطفاله وزوجته وركض تجاهها، راح يركض ويركض حتى اتضح الأمر، هناك لافتة على مقدمتها تحمل اسم "معبد الشعب" تهللت أساريره، هذا هو الاسم الذي ذكرته إيزابيلا، راح يقفز ويرقص وقد شملته حالة من السعادة الغامرة، سعادة لم يتذوق مثلها منذُ وقت طويل، رجع إلى أطفاله وراح يحتضن زوجته ويقبلها، ويحتضن أطفاله، توقفت أمامهم الحافلة ونزل منها شخص يبدو عليه الوسامة والقبول، ابتسم في وجه جورج فوجد نفسه تلقائيًا يخبره بأنه يريد أن ينضم إلى معبد الشعب، فما كان من الرجل إلا أنه هز رأسه برضا وأخبرهم أن يصعدوا إلى الحافلة، بسرعة البرق صعد جورج وأسرته وقلبه يرقص فرحًا وسعادة، حمل أطفاله ووضعهم على الكراسي الموجودة في مقدمة الشاحنة وجلس هو وزوجته على الكراسي المجاورة له، كان وجهه يتلألأ من السعادة حتى أنك تشعر بالضوء يخرج من وجهه، لا يصدق أن المعاناة التي عاش فيها لسنوات قد انتهت، هو لا يدرك ماذا كان سيفعل إذا استمر الوضع ليومٍ آخر، كان في الشاحنة شخصان، منهم ذلك الذي أخبر جورج بأن يصعد، انتظروا حتى بدأ النهار ينسحب والضوء يتخافت شيئا

فشيء، انضم إليهم خمس أسر أقل أسرة منها كان عددها 5 أفراد، فامتلأت الحافلة حتى منتصفها، أثناء تلك الساعات كانوا يوزعون على جورج وأسرته الطعام والفاكهة دون مقابل، هذه الأمور جعلت عين جورج تدمع، فقد بدأ يشعر بأحاسيس لم يشعر بها من قبل، وقف ذلك الشخص الذي كان يوزع الابتسامات وخطب في الجميع وأخبرهم أنهم سينطلقون الآن إلى "مدينة الأب جونز"، وزع عليهم علب العصير الكرتونية المثلجة احتفالا بذلك ثم انطلقت الشاحنة ببطء شديد في طريقها إلى مدينة الأب جونز، الإضاءة داخل الحافلة خافتة وإذا نظرت من خلالها فلن ترى سوى سواد حالك، غلب على الجميع النوم فصاروا يرددون النفس في خياشيمهم، حتى بدأت الشمس تداعب أعينهم فجر اليوم التالي، بهدوء بدأ جورج يفتح أبواب عينيه ببطء، نظر حوله فوجد أنهم لايزالون في الحافلة، أشرق النهار فكشف عن الطريق الذي كان حقًا ممتعًا، الطرق كانت تتلوى بين الغابات الكثيفة والزرع وهم ذاهبون إلى عالمهم الجديد، نظر جورج إلى أطفاله فوجدهم نياما في سلام نفسي، نظر إلى زوجته فوجدها نائمة، أمسك يدها بحنان بالغ ثم قبلها بنفس الرقة والراحة التي يشعر بها ولم يعهدها من قبل، بعد مدة لم تكن بالطويلة توقفت الحافلة أمام بوابة كبيرة عُلقت عليها بسلاسل لافتة من الخشب كُتب عليها "مدينة الأب جونز"، على البوابة وقف مجموعة من الحراس الزنوج مفتولي العضلات، كانت هيئتهم مهيبة يخشى أي أحد من فكرة المُزاح معهم، مرت الشاحنة بهدوء وعبرت البوابة وسط نظرات الحراس الذين أخذوا يدققون النظر فيها وهي تمر أمامهم، جورج أخرج رأسه من النافذة وراح ينظر إلى المكان خارج البوابة، إنها غابة كثيفة الأشجار والزرع وليست هناك إشارة تدل على طريق العودة، فكر جورج في الأمر فإذا حاول أحد العودة وحيدًا فلن يستطيع!!المدينة محاطة بالكامل بسور مرتفع يمنع أي أحد من اقتحام المكان، دقق في الأمر أكثر ثم اهتدى إلى أن بالتأكيد هذه الشاحنة سوف تصل بمن أراد الخروج إلى حيث شاء، تضخمت لديه تلك الفكرة أكثر حينما رأي بعض سكان هذه المدينة وهم يقفون على مسافة من البوابة ينتظرون وصول الحافلة، ويحملون في أيديهم اللافتات

المكتوب عليها كلمات ترحيب، تعالت الصفافير والهتافات، جورج لا يصدق ما تراه عيناه، لا يصدق أن ما يحدث أمامه حقيقي من الأساس، توقفت الشاحنة وأمرهم الرجل بالنزول، اصطف الحاضرون وصنعوا صفين أمام بوابة الحافلة، كان جورج أول من هبط سلم السيارة فبدأ بعض الحاضرين يلامسون جسده بأيديهم والبعض الآخر راح يصفق له ويرحب به، كان المشهد أجمل من أن يتقبله عقله الذي اعتاد على التوبيخ والتجهم والعبوس، قدم جورج كانت ترتعش ويتصرف كطفل صغير في أسرة غريبة عنه، كان معظم الحاضرين بل الأغلبية الكبيرة من الزنوج، ولم يخلُ أيضًا من أصحاب البشرة البيضاء، ظل جورج يتحرك بصحبة الانهيار حتى وصل إلى نهاية ذلك الصف فوجد مجموعة من ذوي الاحتياجات الخاصة الجالسين على كراسي متحركة لإصابتهم بشلل حركي، كانوا يضحكون ويرفعون أيديهم لاستقبال الوافدين الجُدد حتى أن بعضهم كان يمسك لافتات ملونة عليها جُمل ترحيب، أدرك جورج أن هناك حياة أخرى غير تلك التي كان يحياها، وأن مايكل وتلك المُسنة العجوز لما كانوا فضلوا الموت لو أدركوا هذه الحياة.

بعد انتهاء فترة الترحيب ذهبت العائلات بصحبة ذلك الرجل الذي كان معهم في الحافلة يوزع الابتسامات إلى مبنى عُلقت عليه لافتة كُتب عليها "الإدارة" احتاج هذا المبنى إلى الترجل لمدة تزيد عن ربع ساعة كان يشاهد جورج فيها المكان من الداخل، كان المكان من حوله أخضر ريفي يبدو في عينيه كجنة عدن التي قرأ عنها في الكتاب المقدس، كانت هناك أشجار فاكهة وزرع وعناقيد العنب في كل مكان من حوله ومزارع للأبقار وأخرى للخراف، كان هناك بعض أفراد من الأسر الذين وصلوا معهم يقفزون ويمرحون ويتحركون كما لو كانوا في حفلٍ صاخب، أدرك جورج أن هؤلاء أيضًا كانوا يُعانون وقد وصلهم ما وصل إليه وإلى الجميع بأن هذا هو المكان الأنسب للعيش، دخلوا جميعًا إلى مبنى الإدارة وكلما قابلوا أحدا ابتسم في وجوههم ترحيبًا بهم، المكان من الداخل كان عبارة عن صالة واسعة بها كراسي انتظار ومجموعة من المكاتب التي عُلق على أبوابها ما يفعله هذا المكتب، دلفت

أول عائلة إلى داخل مكتب مكتوب على بابه الاستقبال أمَّا باقي العائلات ومنهم عائلة جورج فجلسوا ينتظرون دورهم، تجول جورج بعينيه في المكان فوجد عددا من الملصقات مُعلقة على الحوائط وموزعة بطريقة مدروسة تجعل عينك تصطدم بها أينما ذهبت، كانت ملصقات تحمل صورا لشخص ممتلئ إلى حد ما غزير الشعر، في بعض الأحيان كان ينظر إلى عدسة الكاميرا وفي أحيان أخرى كان ينظر إلى شيء ما لا نعلمه أثناء التصوير، تارة يرتدي عوينات شمسية وتارة لا يرتديها، إنه الأب جونز مؤسس طائفة معبد الشعب ومؤسس المدينة، كان الشيء الوحيد الذي اجتمعت عليه كل المُلصقات هو الكتاب المُقدس الذي يمسكه الأب جونز في يديه في جميع الصور، وكان هذا الكتاب إشارة منه أنه يتحرك ويحكم الجميع بما أنزله الرب لذلك كان لا يفارقه أبدًا، كانت الملصقات لا تكتفي بالصور فقط بل إنها كانت تحمل الكثير من العبارات التي اختلط فيها كلام البشر مع كلام الرب والسيد المسيح لتبدو جُملا لها بريق وطابع خاص في النفوس، تحفز النفس البشرية على ألا تتقبل الظلم، انتظر جورج حتى جاء دوره، شعر بالرهبة حينما طلبوا منه الدخول، اقترب من الغرفة هو وأسرته، كان يخشى أن يحدث شيء ما يجعلهم يرفضون قبوله في هذا المجتمع، كان يحفز نفسه بأن يبتعد بعقلِه عن كل الأشياء السلبية التي قد لا تأتي بثمارها، في منتصف الغرفة يجلس ثلاثة أشخاص خلف منضدة طويلة، اثنان من الزنوج يتوسطهم رجل أبيض وسيم يبدو عليه من الوهلة الأولى أنه رئيسهم، هو أحد مساعدي الأب جونز الذين يساعدونه في إدارة المكان، على جانب المنضدة من ناحية اليمين شاب صغير زنجي يجلس ووجهه قد التصق بعدد من الورق وفي يده قلم يسجل به كل شيء يُقال، طلب منهم مساعد الأب جونز أن يجلسوا، بهدوء جلس جورج وعائلته على الكراسي المرصوصة أمامهم، في الوقت نفسه لم تتحرك أعينهم عن وجوه أعضاء اللجنة التي لم تذهب عن وجوههم الابتسامات التي تبدد الخوف، رمق جورج بطرف عينيه يسار المنضدة فوجد بعض الأموال وجوازات السفر وبطاقات الهوية، بدأ المساعد بالكلام.

- أهلاً بكم في جنة عدن، لقد اختاركم الرب عبر القدر لتُكملوا حياتكم هنا في الجنة

التي أُعدت خصيصًا لكل شخص كان يُعاني أو لم يُعاني في حياتِه، لأي شخص يأتي إلينا رغبًا وتطوعًا ليكون واحدًا منا، هنا أنتم على الشاطئ الآخر من الحياة، حيث لا ظلم ولا عنصرية ولا بغي ولا استبداد، هنا أنتم في مدينة يعيش بها أُناس مختلفو الأعراق، هنا سوف تكتشفون أن لديكم قيمة، وقيمة كبيرة للغاية، سوف تكتشفون أن لديكم طاقة وقدرة على الإبداع لم تكونوا تعلمون عنها شيئًا، هنا كل شيء نابض بالحياة ويتميز بالقوة والروح، هنا لن يميزك لونك، لن نهتم ما هو أصلك أو من أي مجتمع قد جئت، أنت هنا إنسان يولد من جديد، هنا أنت مرحب بك في الجنة، هنا أنت في مدينة الأب جونز.

جورج قد اتسعت عيناه وظل ينظر بانبهار لكلام مساعد الأب جونز، فهذه هي المرة الأولى التي تتناول فيها أذنه كلاما مثل هذا، شعر أنه في مكانٍ يختلف حقًا عما كان يعيش فيه، لم يفعل سوى أن أومأ برأسِه في استسلام والخوف يسكن عينيه وملامحه، لاحظ ذلك مساعد الأب جونز فسأله عن السبب، ابتلع جورج ريقه مُصدرًا ذلك الصوت المرتفع قبل أن يسأله في عجالة وبراءة هل من الممكن أن يتم رفض انضمامهم إلى هنا!!تهللت أساريره وازدادت ابتسامته اتساعًا، سأله من أين جاء فأخبره من الولايات المتحدة الأمريكية فازدادت شفتاه في الانفراج ثم أخبره بثقة زائدة أن ذلك لن يحدث أبدًا مادام لم يخل بتعليمات المكان وتعليمات الأب جونز، هنا اندفع جورج وراح يؤكد له أنه لن يفعل ذلك أبدًا وأنه ملتزم بكل الشروط وموافق عليها من دون حتى أن يعرفها، فأدرك مساعد الأب جونز أن جورج كان يمتلك حياة مليئة بالظلم والمعاناة الشديدة.

- أنت تعهدت بتنفيذ الشروط من دون حتى أن تعرف ما هي، وهذا أكثر شيء يحبه الأب جونز وتحبه إدارة المدينة ونحبه نحن جميعًا، هذا ما يُسمى بالثقة المبنية على الولاء، هذه هي العملة الوحيدة التي تستطيع أن تفعل أي شيء بها داخل الجنة التي ستقيم فيها وستضمن لك تربية صحيحة لأبنائك بعيدًا عن العنصرية التي تجتاح الولايات المتحدة الأمريكية، هنا ستكون حياتك مختلفة، فقط إن وجدنا فيك الطاعة العمياء والولاء وإلا عُدت من حيثُ أتيت.

اندفع جورج وراح يؤكد له بما لا يحمل أي ذرة شك أنه لن يفعل هو وأسرته إلا كل ما يرضى به الأب جونز وإدارة المكان، وأنه لن يصدر منه أي شيء مخالف لقواعد المكان، أومأ المساعد برأسِه ثم أمرهم بتسليم كل متعلقاتهم من مال وبطاقات هوية وجوازات سفر، كل شيء وأي شيء يحملونه معهم، أخبرهم أنه لا يريد أن يكون معهم أي متعلقات حتى الملابس، تبادل جورج مع زوجته النظرات المبهمة ثم نظروا إلى المُتحدث الذي راح يخبرهم بخبث أنه لم يمر وقت طويل حول حديثهم عن الولاء.

- أتسمح لي يا سيدي بسؤال؟؟

- بكل تأكيد.

- حينما تأخذ منا كل شيء عن هويتنا وأموالنا ماذا سنفعل!!كيف سنعيش، كيف سنأكل؟؟

قهقه المساعد في سعادة شديدة ثم سأل جورج عن اسمه.

- جورج، اسمي جورج وهذه زوجتي وهؤلاء أطفالي.

- جيد، عليك أن تعلم شيئا هاما يا جورج، شيء لو أدركته سيستطيع عقلك تقبل أي شيء وكل شيء.

- وما هو!!؟؟

- الجميع في العالم الخارجي الموحش ينظر إلى مجتمعنا على أنه مجرد مدينة لقس له أتباع، ولكننا نحن نرى هذا المكان من وجه نظر أخرى، تختلف عن وجهة نظرهم.

- وما هي؟؟

- الجنة، جنة عدن يا جورج التي في كتابنا المقدس، جاهد الأب جونز ليعد لنا مثلها على الأرض بسبب الظلم والاستبداد الذي يجتاح العالم، والذي أنا واثق أنه قد كواك وأكل منك حتى شبع، فتوجهت إلينا بعدما سمعت عنا من أحد أصدقائك أو جيرانك أو ما شابه، أليس كذلك؟

- هذا بالفعل يشابه ما حدث معي!!

- أنا لا أعلم عنك شيئا ولكنني أعلم كل شيء عن العالم الخارجي الذي نبذنا وحرق كنيستنا في سان فرانسيسكو سلفًا، لم يتقبلنا كوننا مختلفين فصنعنا دولتنا الخاصة، أو كما أخبرتك من قبل جنتنا بعيدًا عنهم وعن ظلمهم الذي لم يتوقف، جعلنا هنا قواعد خاصة بنا لنعطِ لأفراد مجتمعنا انطباعا جيدا يعوضهم بعض الشيء عن تلك الأيام الصعبة التي عاشوها في الخارج، هنا لا وجود لتوقيت، لن ترى ساعة واحدة تُحدد لك الوقت.

- لماذا!!؟

قالها جورج وعيناه تتسع.

- لأنك في الجنة، لماذا تنسى ذلك يا جورج، لا يوجد في الجنة ساعة تُحدد الوقت ولا وجود لنقود ولا شراء ولا هوية ولا بطاقة، هنا أنت فقط إنسان تعمل وتتقاضى الأجر، وفي الوقت نفسه نوفر التعليم الجيد لأولادك ونوفر الطعام والملبس والمأكل لك ولهم وللناس أجمعين الذين جاءوا إلى هنا.

تتزايد عينا جورج اتساعًا وهو ينظر إلى المساعد دون كلام، يُحاول عقله تقبل الأمر وتخيل الكلام.

سأله المساعد ماذا هناك؟، كونه يرى تلك النظرات والإيماءات في وجهِه.

- لا أستطيع تصديق ما تقول، لا أقصد بأنك كاذبًا لكن لم أتخيل ما يحدث هنا.

- هذا طبيعي جدًا في البداية، لكن عليك أن تعلم بأنك في حياة أخرى غير تلك الحياة التي كنت فيها، هنا المعايير تختلف والنعيم يختلف لكن عليك الالتزام بالطاعة العمياء والولاء والثقة وبعض الشروط الأخرى التي سوف أخبرك بها بعد أن تقوم بتسليم كل متعلقاتك، على أن تستردها كاملة إذا طلبت الرحيل وأنا واثق أن هذا لن يحدث لأنه لم يسبق وطلب أحد الرحيل عنا.

نظر جورج إلى زوجته ثم وضع الحقيبة التي كان يحملها على المنضدة وأخبر

المساعد بأن هذه الحقيبة بها كل ما تبقى معهم من مال، وبها أيضًا كل متعلقاتهم الشخصية ولا يملكون سواها، مد المساعد يده وأخذها وهو يحذره بأن لا يكذب لأن هذا سببا من الأسباب التي ستجعله يُطرد من تلك الجنة إذا اكتشفوا ذلك، فأجابه جورج.

- أنا لا أكذب، هذه هي الحقيقة بعينها.

- أنا لم أقصد أن أتحدث عن الحقيبة بعينها، أنا أتحدث بوجهٍ عام، الكذب هنا محظور تمامًا.

- وأنا لا أكذب.

- سوف أعتمد على ذلك، والآن أريد منك أن تقص علي قصتك كاملة ولا تُخفِ عني شيئًا، وتُخبرني ما هي الأسباب التي جعلتك تلجأ إلى مجتمعنا ومن أين سمعت بنا.

أومأ له جورج ثم قص عليه قصته كاملة، لم يختزل منها شيئا ولم يقتطع شيئا، أخبره بأمر الشريف وبأمر جريمة القتل وكل شيء حدث معه، كان المساعد وباقي أعضاء اللجنة يستمعون إليه بإمعان شديد وبتركيز حتى انتهى، كانت قصة بها الكثير من المآسي والحزن الذي يدفعك للتعاطف معه فألقوا جميعًا على قلبِه الطمأنينة، خرج المساعد عن صمته.

- أنا لم أكن أعلم شيئا عن حياتك، ولكني كنت أتوقع ما هو أسوأ من ذلك، كما أخبرتك العالم في الخارج موحش ومحبط وغير عادل، لكن لا تبتئس بما كانوا يفعلون، هنا ستبدأ حياةً جديدة ومختلفة، هنا ستنسى كل شيء.

- أنا متوقع ذلك بعدما استمعت إلى كلامك.

- هذا حقيقي، المهم ألا تخل بالنظام.

- كنت قد ذكرت لي أن هناك شروط أخرى لضمان بقائي هنا.

- نعم هذا صحيح، أول شيء يجب ألا تعترض على أي شيء هنا في الجنة، هذا مُحرم وألا تتحدث مع أحد من جيرانك أو من الموجودين هنا بشكلٍ عام أحاديث جانبية بخصوص أي شيء سلبي، إن كانت هناك سلبيات فلتأتِ إلى هنا ولتخبرني عنها ولا تتحدث بها مع أحد، لأن هذا سينشر الروح السلبية بين أفراد المجتمع وهذا ما لا نرضى به.

- أنا لن أفعل أي شيء كهذا.

- هذا سيكون جيدا للغاية إن أردت البقاء معنا، علاوة على الطاعة العمياء والولاء.

أومأ جورج برأسِه فأخبره المساعد بأن هناك إنذار يُطلق ليُخبر الجميع بموعد الطعام، حينما يستمع إليه يذهب مسرعًا للقاعة المُخصصة للطعام ليأكل، أخبره أيضًا أن الأب جونز يتحدث إليهم بين الحين والآخر بكل ما يريد عبر مكبرات الصوت الموجودة في المنازل وفي كل جزء من الجنة، يخبرهم بما يود أن يخبرهم به، ويعلمهم لو كان هناك اجتماع أو لو كان هناك أمر طارئ ثم طلب منه أن يخرج ليلتقي بذلك الشاب الذي سيقوده إلى منزله الجديد، تهللت أسارير جورج وابتسم ابتسامة لم تزور وجهه منذُ وقت طويل، مد يده وصافح أعضاء اللجنة وعيناه تكادان تبكيان من الفرح، كان لا يصدق أنه سيمتلك منزلا بعد ما ترك منزله، هَمَ جورج بالخروج هو وأسرته فاستوقفه المساعد ليخبره بأنه بعد انتهاء اليوم سوف يكون هناك اجتماع مع الأب جونز ليرحب بالوافدين الجُدد، وأنه يجب عليه أن يحضر قبل أن يصل وأن يجلس في المقدمة، هز رأسه وعيناه تكادان أن تدمعا، خرج من المكتب فالتقى في الخارج بذلك الشاب الذي سيقوده إلى منزله الجديد، ظلت المناظر الخلابة والخضرة الطاغية والأشجار الجميلة ترافقهم حتى وصل بهم ذلك الشاب إلى المنزل، إنه منزل صغير، رائع، تحوطه الخضرة والمنازل المجاورة من كل جانب، وقفوا جميعًا أمام باب المنزل، فتح لهم ذلك الشاب الباب ثم أعطاه المفتاح وأخبره أن هذا قد صار منزله

الجديد، أخذ جورج المفتاح وراح ينظر إلى المنزل وقلبه يتراقص فرحًا، سدد لهم هذا الشاب ابتسامة خفيفة ثم انسحب، نظر جورج حوله ثم احتضن زوجته وراح يدور بها من شدة الفرحة وهي تحتضنه بقوة وتقبل وجهه، لم يسهوا أن يبادلا أطفالهما تلك الأحاسيس نفسها قبل أن يدخل جورج إلى داخل المنزل، إنه بيت صغير من طابق واحد يتكون من صالة متوسطة المساحة بها مقاعد نظيفة وجديدة ومنضدة تناسب حجم الصالة، ركض إلى غرفة النوم حيث السرير الجميل والدولاب الذي وجد فيه بعض الملابس المُعلقة، الحمام كان يشعره بالارتياح على الرغم من صِغر حجمه، شعر جورج أن ما يحدث أمامه الآن هو التعريف الموازي للنعيم وأن الشعور الذي يعتريه هو المرادف للحبور والبهجة، شعر أنها حقًا الجنة وأن مساعد الأب جونز لم يكذب عليه، شرع يركض في المنزل ويشعر باتساعه الشديد على الرغم من صِغر مساحته، دلف إلى الحمام ونزع ملابسه القديمة ثم تحرك إلى المكان المُخصص للاستحمام، أراد أن يغتسل، أطلق العنان للماء الذي راح ينهمر فوق جسده، كان يشعر وكأنها المرة الأولى التي يستحم فيها من فرط السعادة، كان يتصرف بعفوية طفل صغير عاد والداه بعد سفر قد استطال، فراح يدور حول نفسه ويخبط الأرض بقدميه ويغني والماء ينهمر عليه، راح جسده يتراقص تحت الماء كأنه يقدم عرضًا استعراضيًا في مسابقة عالمية، الماء ينزل على رأسه فيلين من خشونة لبدات شعره الذي راح ينسجم مع الوضع الجديد، انتهى من الاستحمام فأدبر عن المنزل ووقف خارجه على بعد أمتار ينظر إلى طبيعة هذا المكان الخلاب، كانت تحدثه نفسه وهو ينظر إلى المساحات الخضراء الواسعة أن هذه ليست الأرض، هذه حقًا هي جنة عدن التي ذُكرت في الكتاب المقدس، أول موطن للإنسان، شعر أنه تدريجيًا سوف يتنازل عن طبيعته البشرية ويتحول إلى هيئة الملائكة التي لن يحتاج فيها إلى طعام أو شراب أو حتى زواج، أحس أنه هنا سيبدأ حياة جديدة ومختلفة عن كل ما سبق، لم يتمالك نفسه، فراح يركض كحصان ويقفز كغزالة برية وسط أشعة الشمس التي تدفئ جلده ونسمات الهواء الباردة التي راحت تصطدم بوجهِه، ظل يفعل تلك الأفاعيل الصبيانية

حتى استمع إلى الإنذار الذي حدثه عنه مساعد الأب جونز فعاد إلى المنزل، أخذ عائلته وهم إلى قاعة الطعام، هناك وجد كل ما يريد، ظل يأكل ويأكل ليعوض تلك الأيام الماضية، كان لا يأكل بهدف الشبع بقدر ما يأكل بهدف الحرمان، استمر اليوم على تلك الشاكلة يتأرجح بين اللعب والأكل والراحة حتى استمع عبر مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان وفي المنازل بأن الاجتماع سوف يبدأ بعد قليل وعلى الجميع التوجه إلى القاعة الخاصة بالاجتماعات.

وصل جورج وأسرته إلى المكان المخصص للاجتماعات فكان مزدحما، معظم الأعضاء قد حضروا وكانوا يتجمعون بطريقة عشوائية وغير مرتبة، لاحظ جورج أن بمجرد ظهوره نال ترحيبا شديدا من الحاضرين وتهليل، والبعض راح يصافحه ثم طلبوا منه أن يذهب إلى حيث الصفوف الأولى التي يخصصونها للوافدين الجدد، تقدم جورج حتى جلس هو وأسرته في الصف الأول مباشرة الذي أمام المنصة المرتفعة قليلاً عن الأرض، والتي وضع خلفها عدد من الكراسي، في واجهة المنصة عُلقت صورة كبيرة للأب جونز بصحبة كتابه المقدس الذي لا يفارقه، المكان عبارة عن عدد من الكراسي مرصوصة بجوار بعضها البعض صُنع بينها طريق في المنتصف يشق تلك الكراسي إلى نصفين، مظلة كبيرة من الصاج مثبتة بأعمدة حديدية تحجب أشعة الشمس عن الحاضرين إن كان الاجتماع في الصباح، وسط هذه الكراسي المرصوصة هناك عدد من ذوي الاحتياجات الخاصة يجلسون على كراسيهم المتحركة، وبعضهم أمسك بلافتات عليها عبارات ترحيب، ظلت الغوغائية والضوضاء تسيطر على كل شيء، لاحظ جورج عددا من الأفراد يرتدون ملابس موحدة ومعظمهم كان متجهما، حاد النظرات، يتجولون بأعينهم في الحاضرين دون كلام، لاحظ جورج أن ذلك الزى الموحد الذي يرتدونه يُشبه تمامًا الزى الذي كان يرتديه الزنوج مفتولي العضلات عند البوابة فأدرك أنهم رجال الأمن المسئولين عن حفظ النظام والأمن داخل المدينة، لاحظ جورج أيضًا أن جميع الموجودين لا يتحدثون إلى بعضهم البعض إلا وكان صوتهم مرتفعا ومسموعا، وهذا لأن الأحاديث الجانبية ممنوعة كما ذكر له مساعد

الأب جونز في الاستقبال، ظل الوضع على تلك الشاكلة حتى صعد مساعد الأب جونز إلى المنصة، إنه ذلك المساعد الذي كان يتحدث إليهم في الاستقبال، وبدأ يتحدث إلى الناس عبر الميكرفون ومكبرات الصوت التي تحيط بالقاعة من كل جانب، طلب من الجميع الهدوء والالتزام بأماكنهم فبدأ الجميع بالحركة والتنفيذ لأوامره، كانت أعداد الكراسي لا تكفي لكل الحاضرين فاضطر البعض للوقوف ومتابعة ما يحدث، عاد ذلك الشخص ليتحدث إليهم.

- اليوم هو اليوم الموعود من كل شهر، الذي ينضم إلينا فيه بعض الهاربين مما يحدث في الخارج، هناك عالم شيطاني وانقسامات كبيرة وإلحاد شديد يستتر تحت عباءة الدين، أصبح المجتمع في الخارج مظلما يصيب الجميع بالرهبة والخوف لكننا هنا سنمحو من أذهان كل من ينضم إلينا هذه الأشياء السيئة، سنفتح للجميع أفق حياة جديدة، هنا لا شيء سوى الحب، هنا مدينة الأب جونز.

هناك شخص يحمل كاميرا كبيرة الحجم لتسجيل الفيديو ، حملها على كتفه وشرع في تصوير ما يحدث حتى أنهى المساعد كلماته فراح الجميع يصفق بحرارة ثم تعالى الصفير أكثر وتضخم حينما ظهر الأب جونز وحوله عدد بسيط من الحرس ومساعداه،الاثنان الزنوج والاثنان أصحاب البشرة البيضاء علاوة على ذلك المساعد الذي كان يتحدث معهم، أخذ الأب جونز يلوح بيده اليمنى للجميع وفي اليسرى كان يحمل الكتاب المقدس الذي لا يتحرك من دونه أبدًا، الجميع يصفق وبعضهم راح يبكي وهو ينظر للأب جونز وهو يلوح بيده لهم، هو شخص يتمتع بكاريزما عالية وحضور رهيب، ينتمي لهؤلاء الذين يستحوذون على إعجاب الناس وانجذابهم من الوهلة الأولى، انتظر حتى انتهى الترحيب فراح الأب جونز يتحدث عبر مكبرات الصوت وكان يتوسط المنصة، على يمينه من مساعديه شخص زنجي وآخر أبيض وعلى اليسار نفس الشيء، من خلفه وقف بعض الحراس، راح الأب جونز ينظر بعينيه للجميع وعلى وجهه تلك الابتسامة التي تتأرجح بين الخبث والسعادة، ظل يتجول

بعينيه في الصف الأول حيث الوافدين الجُدد، كانت شفتاه تتحركان بشكل لا إرادي ثم بدأ بهدوء يتحدث للجميع.

- منذُ أن استطعنا النجاة من ذلك المجتمع السادي الذي تتفشى فيه العنصرية وتختمر فيه الكراهية كأن هناك مرض خبيث يتحرك في أجساد سكانها، بلد تمثال الحرية التي لا تطبق شيئا من الحرية، ساعدنا أنفسنا وبنينا مجتمعنا وجعلنا هذا اليوم من كل شهر هو اليوم الذي نذهب فيه إلى مطار غيانا لنأتِ بالذين أراود أن يبتعدوا عن التعصب، قبل أن أتحدث إلى أحد نظرت إلى الصف الأول حيث الوافدون الجُدد فرأيت شيئا غريبا بداخلهم، رأيت في قلوبهم كم لديهم من ألم، أدركت كم أن العالم الخارجي بات مؤذيا وقد أضرهم بقسوة وبعنف، وقد حان وقت تعويضهم عن كل ما مروا به من أحداث مريرة، أريد أن أخبرهم أنهم مرحب بهم، نحن نحبهم كما هم ولن يحتاج أي منكم إلى إظهار عكس ما يدور بداخلِه، نريدكم كما أنتم، هنا ستجدون الطمأنينة، ستجدون المحبة، إنني أتيت إلى هنا لأن الرب قد اختارني، ورسالتي هي إطعامكم والاعتناء بكم بعيدًا عن ذلك العالم الموحش، رسالتي هي تقبل الغريب والمختلف، هدفي هو مساعدة الأرامل وأولئك المبتلون في الحياة، أنا هنا والدكم وأنتم هنا أطفالي.

انفجر المكان بالتصفيق والتهليل وراح بعض الناس يرددون اسمه بحرقة والبعض الآخر وقف وراح يفرد ذراعيه وينظر إلى السماء ويبكي، هناك من جثا على ركبتيه وضم كفيه أسفل ذقنه تقديسًا للأب جونز، حتى الوافدين الجُدد قد أصابهم من السعادة ما جعلهم يصفقون وأعينهم تتسع عن آخرها من هول الكلام، ومن بينهم جورج وزوجته كان لديهم نفس حالة الانبهار، فهذه هي المرة الأولى التي يستمعون فيها إلى أمر كهذا، أشار الأب جونز لهم ليكمل حديثه.

- هذا المجتمع لا ينضم إليه ويسعد به سوى من يستحقه، أنا أحبكم، أنا أهتم بكم، أنا أعتني بكم، أنا أعطيت لكل عائلة منكم منزلا وعملا، أنا جعلت معاناة كل

واحد منكم تنتهي، ولكن في المقابل يجب أن تدينوا لي بالولاء، أنا أبوكم فيجب عليكم احترامي وتقديس ولائي، يجب أن تحترموا أوامري وإلا....

سكت الأب جونز فخرج الجميع بصوتٍ جهوري قائلين في وقتٍ واحد "العقاب هو مصيرك"، هذا هو الشعار الذي قد اعتادوا عليه منذُ انضمامهم إلى هنا من اليوم الأول، ابتسم بسعادة شديدة وسط حالة الهياج التي صار فيها معظم الحاضرين ثم أشار إليهم ليكمل حديثه قبل أن يبدأ في استئناف الكلام.

- عندما لا تملك شيئًا في الحياة فعليك أنت تتذكر بأنك تملك محبتي وصداقتي، تملك مجتمعا مختلف الأعراق، تملك مدينة الأب جونز، أنت جزء منها، مالك لها ولست فقط عضوا فيها، لأني أحبك، والأهم أن الرب يحبك، هذا بالنسبة لنا يوم عظيم يجب أن يحمل قدرا من السعادة وقدرا من العبرة فلا يتوقف فقط عن هذا الحد الذي ينضم فيه إلينا من كتب لهم الرب النجاة، الرب راعي يعطي بلا حساب، الرب اليوم أذن لأُناس بالشفاء وهناك آخرون معاقبون، هكذا كانت رسالته الأخيرة لي، الرب لا يريد أن ينتشر الفساد هنا في مجتمعنا الصالح القائم على أسس وقوانين أنا سيدها.

رفع يديه الاثنين إلى السماء فراح الجميع يُهلل ويصفق وهو يتنفس بقوة كأنه يستمد قوته من أعلى، أغمض عينيه وراح يأخذ شهيقا وزفيرا بصوتٍ مرتفع، وقعت عين جورج على شخص زنجي من مساعدي الأب جونز، تحديدًا ذلك الشخص الذي يجلس عن يساره مباشرةً، هو شخص يتمتع ببنية قوية وملامح حادة وحاسمة توحي بالتوجس والريبة، وجده جورج ينظر إلى زوجته بنظرات غير مريحة، تبدو في ظاهرها نظرات عادية لكنها تحمل معانٍ ورغباتٍ أخرى في أعماقها، هكذا كان يشعر جورج علاوة على تلك الانقباضات الغريبة التي راحت تغزو قلبه، غلت الدماء في عروقِه وراحت عيناه تتأرجحان بينها وبينه فوجدها لا تدرك ذلك وعيناها معلقة على الأب جونز تتابعه، أمَّا هو فظل يثبت أنظاره عليها لكنه فضل ألاّ يتسرع في فعل أي شيء،

استأنف الأب جونز حديثه وأخبر الجميع بأن الرب قد كتب لواحد منهم الشفاء اليوم وأنه أخبره اسمه وهو يُصلي له بالأمس، شملت الجميع حالة من الترقب والانتظار حتى أعلن أنها السيدة مارجريت، سيدة بيضاء عجوز تجلس على كرسي مُتحرك، ترتدي عوينات كبيرة لضعف نظرها، أصابتها حالة من الانبهار حينما استمعت إلى اسمها، فاضت عيناها بالدموع حتى أنها رفعت تلك العوينات وظلت تمسح دموعها التي فاضت، الوافدون الجُدد لا يفهمون تحديدًا ما يحدث لكنه على دراية أنه شيء عظيم، من دون مقدمات ركض تجاهها عدد من الحاضرين ودفعوا الكرسي المُتحرك الخاص بها حتى وصلوا به إلى أمام المنصة مباشرةً بالقرب من جورج وعائلته، كانت تبكي بحرقة والأب جونز أغمض عينيه وراح يُحرك يديه وأصابعه تتلاعب في الفضاء، ارتفع صوته باسمها لكن لا تزال هناك حالة من الغوغاء العالية تجتاح المكان مما دفع الأب جونز ليُكرر اسمها مرات عديدة وبسرعة أكبر وبصوت أعلى حتى صمت الجميع والتزموا بالهدوء، فتح عينيه تدريجيًا وراحت عيناه تتأرجحان بينها وبين الحاضرين حتى استقر بعينيه عليها في النهاية، دقق الأب جونز النظر ثم ابتسم.

- مارجريت، أنتِ تحملين الكثير والكثير من العناء والإرهاق النفسي والبدني، صبرتِ كثيرًا على عجزك ولم ترتكبي الخطايا الظاهرة أو حتى الباطنة، لم تكفري بتعليماتي والتزمتِ بأوامري، كل هذه أشياء جعلت الرب يصطفيكِ للشفاء، ليس فقط الشفاء بل اختار لكِ يوما عظيما كهذا.

ازدادت في البكاء أكثر وراح الناس يهللون فرحًا وسعادة، أردف الأب جونز.

- مارجريت، أطلب منك أن تقفي فقد أذن الرب الآن، سوف نتحدى المرض بإيماننا.

حالة من الابتهاج ضربت المكان أكثر وراحت مارجريت تضع يدها على مسند الكرسي المُتحرك وتضغط بها في محاولة منها للنهوض، كان الموقف صعبا ويحتاج إلى مجهود كبير تجسد على ملامحها التي راحت تنكمش، ثم تراخت قواها ووقعت

على الكرسي دون حِراك فارتفع التذمر وبدا بعض الحاضرين مستائين، ارتفع صوت الجموع وراحوا يهتفون باسمها وهي تحاول الوقوف لكن انتهت كل المحاولات في النهاية بالفشل، فانهارت مارجريت وراحت تبكي بشدة ثم بدأ يشاركها بعض الأشخاص بكاءها حتى زوجة جورج راحت تبكي هي الأخرى تأثرًا بها، لم يكن هناك شخص يبتسم سوى الأب جونز، لم يتخل عن تلك الابتسامة التي تزين وجهه، طلب من الجميع الهدوء ثم شرع يتحدث إليها بعدما رفع الكتاب المقدس الذي يحمله في وجوههم جميعًا.

- مارجريت، يجب أن تساعدي نفسك وإلا لن تحصلي على شيء، يجب أن تتحلي بالإيمان، اليوم سوف تشفين هذا وعد الرب فعليكِ أن تؤمني بذلك، الإيمان مرتبط بالشفاء والاثنان مكانهما القلب، أعطي لنفسك الفرصة وحاولي ولا تفقدي إيمانك، الإيمان هو الثقة بالرب في الظروف الحالكة، الأمل الوحيد للعظمة يكمن بداخلكِ أنتِ.

أنهى كلامه ثم أمرها بالوقوف فراحت تتوقف عن البكاء ووضعت يدها على المسند مرة أخرى والجميع بدأوا ينادون باسمها تشجيعًا لها، ضغطت بيدها على الكرسي وارتفع نصفها العلوي وهي تحاول أن تضع قدميها على الأرض، الحركة كانت ثقيلة والموقف صعب فراح الجميع ينادي بصوتٍ أكثر قوة وحيوية، انضم إليهم الأب جونز وظل يردد اسمها بجنون في مكبرات الصوت، برزت عروق يدها وانكمش وجهها وهي تجاهد، صرخت بقوة وهي تنادي على الرب تطلب منه المساعدة، انخرط الجميع في حالة من الترقب حتى أن زوجة جورج راحت ترسم الصليب على رأسها وكتفيها وعيناها تتساقط منها الدموع، وضعت مارجريت قدمها على الأرض فظلت ترتعش وكذلك يدها، طفقت تترك يدها تدريجيًا حتى تمكنت من الوقوف، فضربت المكان موجة من التهليل والصياح ومارجريت العاجزة تقف أمامهم على أقدامها، كانت تعاني من عدم اتزان في البداية لكن ظل الأب جونز ينادي عليها حتى تمكنت من الحركة والمشي ومن ثم الركض، كان المشهد رائعًا ونهايته دفعت الكثير للصراخ، أشار الأب جونز إلى الجميع بالهدوء ثم نظر إليها وتحدث معها عبر مكبر الصوت.

- عطايا الرب لم تتوقف عند هذا الحد، الرب أمر أيضًا بأن تخلعي نظارتك ليعود بصرك كما كنتِ في شبابك.

نزلت الكلمات على الجميع كالصاعقة وهم في حالة من السكون كأن على رؤوسهم الطير، مدَّ الأب جونز يده في الهواء وراح يُحركها وهو يرشق بصوتِه كلمات بدت غريبة على الجميع فلم يفهمها أحد ثم طلب منها أن تخلع العوينات، رفع ثلاثة أصابع بيده وطلب منها عددهم فأخبرته بعددها دون النظارة ثم انهارت من البكاء كما أصابت الجميع حالة انهيار من شدة الفرح، ترك الأب جونز الحاضرين يتفاعلون مع الحدث ويهنئون مارجريت على شفائها، خرج أحد الحاضرين وعبر عن سعادته الغامرة لانضمامه لمكان كهذا المكان الجميل والمجتمع الفريد، رمق جورج المساعد الزنجي فوجده لا يزال ينظر إلى زوجته بتلك النظرات التي لا يستطيع هو تحديد هويتها لكنها لا تزال تترك بداخله ذلك الأثر ذاته وتجعل دماءه تغلي، في تلك الأجواء المحيطة بالمكان عاد الأب جونز ليستأنف حديثه وهو يشهر الكتاب المقدس للجميع.

- أبنائي،إن هذا المجتمع الصغير قد باركه الرب وجعله مختلفا عن كافة دول العالم التي يسيطر عليها الحقد والعنصرية، الرب قد اختارني لأكون أباكم المسئول عنكم وأنا وافقت على ذلك متحملاً مسئوليتكم، فهل يجوز لنا أن نعصى الرب من دون إذنه.

صاح الجميع بالرفض فأردف وأخبرهم أن من بينهم من فعل الخطية دونإذن الرب، وأن ذلك الفعل الأحمق قد يجلب لهم غضب الرب ولعنته، وأن عليهم تطهير ذلك العضو من الذنب وإلا باتوا جميعًا في خطر، خرج واحد وتحدث إلى الأب جونز من دون إذن.

- ما تقوله وتفعله الآن يشابه تمامًا فكرة صكوك الغفران التي اشتهرت بها الكنيسة الكاثوليكية من قبل، وهي السبب الرئيسي لثورة مارتن لوثر وأعوانه عليها، هنا في مجتمع مدينة جونز نحن نميل إلى المعتقد البروتستانتي الذي ينبذ فعلا كهذا.

حل الصمت على المكان وخيم بشكل يُشعر بالرهبة، انتبه الجميع إلى حديثه وظلّوا ينظرون إليه من دون كلام، ينتظرون ردًا من الأب جونز الذي راح يبتسم وينظر إليه بثبات قبل أن يشرع في الرد عليه.

- لن أستتر خلف فعلك العشوائي الذي ينبذه المجتمع وأخبرك بأنك تحدثت وأنا أتحدث وبدون إذن حتى لا يظن البعض أنني غير قادر على الرد على كلامك، ولكن بعد الانتهاء من الرد سيكون هناك حساب، هنا الوضع مختلف تمامًا عما قام به البابا ليو العاشر وبدعته الأشهر صكوك الغفران التي كانت بمثابة شعلة الحركة الثورية التي قام بها مارتن لوثر، نحن هنا لم نفعل ما فعلته الكنيسة الكاثوليكية آن ذاك، نحن هنا نفعل ذلك من أجل إرضاء الرب.

هنا بدأ الأب جونز ينفعل وأصبحت نبرة صوته أكثر حدة وهو يوجه أسئلته إلى ذلك الرجل.

- هل حدث ووعدتك بقطعة من جنة السماء؟

- لا.

- بالتأكيد لا لأننا هنا في جنة الأرض، هل حدث أن أحدا طلب منك خدمة أو مالا مقابل الغفران؟

- لا.

- أنا أعلم أنه لا، هل طلب أحد منك أن تعترف بأخطائك أمامه؟

- لا.

- هل طلب أحد منك أن تصلي أو تصوم تطوعًا؟

- لا.

- هل أمرك أحد بالذهاب للحرب مقابل الغفران؟

- لا

- إذا كانت كل الإجابات بـ لا فأين التشابه إذن، هنا أنت منعم وتجازى على عملك، ولكن حينما تخطئ يكشف الرب أمرك لتعاقب كما عُوقب أدم وحواء وطردا من جنة عدن، أليس هذا عدلاً؟

سكت الرجل ولم يتحدث فزعق فيه الأب جونز وانفجر.

- أجبني ولا تقف هكذا، هل ما نفعله هنا مشابه لصكوك الغفران؟

- لا.

- إذن ضع حذاءك في فمك واصمت ولا تتحدث دون إذن.

صمت الرجل وجلس مكانه فزعق الأب جونز وطلب منه الوقوف وأخبره أنه لم يأذن له بالجلوس وأنه سوف يتم حبسه في المأدبة بسبب تصرفه الأهوج وبسبب ظلمه وافترائه علي المجتمع، المأدبة هو مكان خصصه جونز حينما بنى مدينته هذه ليحبس فيه هؤلاء الخارجين عن قانونه أو من تسول له نفسه ارتكاب أي شيء، لا أحد يعلم ما يحدث بداخلها تحديدًا لأن هناك معلومات صارمة بألا يتحدث أحد عنها ولكن كل من كان يمتلك حظا سيئا وقام بزيارتها تظهر أثارها المرعبة على ملامحه لفترة بعد خروجه منها، بمجرد أن أنهى حديثه ظهر اثنان من الحرس واقتاداه وهو يصرخ ويحاول الخلاص منهما، في الوقت نفسه تبرع اثنان وراحا يهتفان باسم الأب جونز مرارًا وتكرارًا حتى بدأ بعض الحاضرين بترديد اسمه معهم ثم القاعة بأكملها أصبحت تهتف باسمه.

بدأ يذوب ذلك الإعجاب الشديد الذي كان يسيطر على جورج بالمكان وبدأ يشعر بأن هناك أمور أخرى، خاصةً أن ذلك المساعد الزنجي لا يزال يرمق زوجته بنظراته المريبة، الأب جونز قد صار غاضبًا بشدة وتضربه حالة من التوتر، أخبر الجميع بنبرة صوت حادة أن هذه المرة لديهم مذنب فضحه الرب، نادى على اسم ذلك المذنب فظهر شخص أبيض البشرة، يبدو على وجهه الإرهاق الشديد، عيناه زائغة وحولها هالة سوداء واضحة، مقيد اليدين ويُدفع دفعًا من قبل شخصين قويي البنية أسودي

البشرة، كان ذلك الأبيض مطأطئ الرأس في مذلة، لم يكن لديه أي نوع من المقاومة، فقط يسيطر عليه الحزن والكآبة، دفعاه حتى وقف أمام المنصة مباشرةً، تحدث الأب جونز.

- هنا وفي نفس ذلك المكان شُفيت مارجريت، لكن هذا المذنب قد كشف الرب أمره وأبلغ عنه رجل صالح أنه يشرب الخمر وبالتحقيق أُثبت ذلك، هذا المذنب لابد من عقابه عقابًا رادعًا حتى لا يعود إلى فعلته.

مالت زوجة جورج على زوجها وأخبرته بصوتٍ هادئ، لماذا يوجد خمر من الأساس داخل ذلك المجتمع إن كان ممنوعًا؟، جورج كان لا يملك رد ولا عقل يفكر به وهو ينظر للمساعد الزنجي الذي لا يزال يوزع النظرات على زوجته، سحب الأب جونز الحزام الجلدي الذي كان يرتديه وهبط من المنصة، راح يقترب من ذلك المُذنب الذي كان يفكر في الهروب لكن استطاع الحراس سريعًا السيطرة عليه ومنعوه من ذلك، انهال الأب جونز عليه بالحزام وأخذ يُزيد من الضربات واللسعات حتى بدأ الرجل يصرخ من الألم صراخا عاليا قذف الرعب في قلوب الحاضرين، خاصةً الوافدين الجُدد، لكن لم يتنازل الأب جونز عن تأديبه وضربه حتى أقعده على الأرض من شدة الضرب، وما إن سقط على الأرض حتى ألقى بالحزام ورفع يده وعينيه إلى السماء بتلك الحركة التي يفعلها دومًا والتي تشعر معها أنه يطلب رضا الرب، هلل الجميع وراحوا يهتفون باسمه ويندددون بذلك المخطئ الذي نال عقابه، رفع الأب جونز الكتاب المقدس إلى الجميع وهم يهتفون له، كل هذه الأحداث يتم تسجيلها بكاميرا فيديو بمهارة عالية، طلب منهم الأب جونز الهدوء التام والجلوس في أماكنهم، ثم طلب منهم جميعًا أن يُغمضوا أعينهم وأن يستمعوا إليه، فعلوا جميعًا ما أمرهم به، بدأ يتحدث إليهم بصوتٍ هادئ إلى حد كبير.

- هناك خارج سور هذا المكان أصبح الوضع في غاية السوء لأن الناس قد ابتعدوا عن إلههم، ابتعدوا عن الكتاب المقدس وتعليمات المسيح والرب فأصبحت الكراهية

تختمر، بشعوري بأنني منبوذ استطعت أن أشعر بمشاكل الأقلية والمنبوذين في المجتمع المريض الذي يريد أن ينال منا كوننا ناجحين بالبعد عنه، مجتمع لو تمكن لقتلنا وحرقنا ومثل بجثثنا، إنهم ينتظرون هناك في الخارج أي ثغرة كي ينقضوا علينا ويسحقوننا، لكننا لن نعطي لهم هذه الفرصة أليس كذلك.

أجاب الجميع وهم مغمضي الأعين "نعم"، فتح جورج عينيه ببطء دون أن يشعر به أحد ونظر إلى المساعد الزنجي فوجده لايزال يرمق زوجته بتلك النظرات التي لم ترق له فجز على أسنانه غيظًا، استأنف الأب جونز حديثه والجميع مغمض العينين.

- أنا أعطي لكم الفرصة للهروب من هذا العالم الموحش، أعطي لكم الفرصة لأنكم خائفون مما يحدث في الخارج داخل ذلك المجتمع المظلم الذي تسيطر عليه العنصرية، عالم مليء بالخداع والانقسام والكذب، إلحاد مقنع يريد أن يتمكن منكم، يريد أن يقتلكم، لكني لن أتركهم يفعلون بكم أي شيء من هذا لأنني والدكم، المسئول عنكم ولن أتخلى عن الدفاع عنكم، أنتم أولادي فلا تبتئسوا بما ينوي العالم فعله، لا تتركوني، تعلقوا بي حتى تمر هذه العاصفة.

أنهى كلامه ثم أمرهم بأن يفتحوا أعينهم جميعًا.

استمر اليوم على شاكلة مختلفة ثم انتهى بالغناء، فهذه هي عادة جميع الاجتماعات، يقف الجميع يصفقون ويشاركون بعضهم البعض في غناء تلك الأغاني التي خُصصت تحديدًا لمدينة جونز، انتهى اليوم وعاد جورج إلى منزله بصحبة أسرته التي كانت تكسوها السعادة لأول مرة منذُ فترة طويلة، أمَّا هو فقد كان يفكر في ذلك الزنجي الذي لم يتزحزح بعينيه عن زوجته، يفكر فيما عليه فعله حتى عاد وصل إلى المنزل ليجد ورقة على المنضدة التي تتوسط الصالة، ورقة قد تم تطبيقها ووضع عليها حجر صغير حتى لا تطير أو تبتعد وفي الوقت نفسه تلفت الأنظار والانتباه، وقعت عيناه عليها في الوقت الذي كان يقف فيه وحيدًا، فزوجته ذهبت لدورة

المياه وأطفاله صعدوا للنوم، أزاح الحجر بعد أن نظر إليه طويلاً ثم فتح الورقة ليجد مكتوب بداخلها "أنا سعيد بحضورك إلى هنا ولو كنت أتمنى أن تكون بعيدًا عن هذا المكان، اليوم هناك شيء مهم على وشك الحدوث، انتظر في غرفتك ولا تخلد إلى النوم" اتسعت عيناه ونزلت عليه الكلمات كالصاعقة، ظن في البداية أنه فخ قد صنعه القائمين على إدارة المكان لاختبار ولائه، في مؤخرة الرسالة كانت هناك رسمه عبارة عن دائرة بداخلها مثلث وبداخل المثلث مربع منتظم , جورج ينظر لها وتكاد عيناه أن تخرج من مكانها !!! هذه هي الرسمة التي اعتاد التحدي بها في صغره مع صديق طفولته ورفيق دراسته ديفيد !!! كانوا يتسابقون فيما بينهم ليروا من الذي يستطيع رسمها من دون شيء مستقيم فقط القلم والاعتماد على الأعصاب والثبات , كان دومًا يفوز بها ديفيد كونه قادر على التحكم بالقلم أمَّا جورج فكان دائمًا ما يرسم الدائرة شكلاً بيضاويًا , الرسمة التي أمامه الآن بها الدائرة بيضاوية كما كان يفعل هو في طفولته !!! هذه الرسمة تم اعتمادها بينهم على أنها ستكون الرسمة الأصلية إذا أرادا أن يتركوا بعضهم رسائل نصية من دون كتابة أسمائهم !! هذه رسالة صامتة من ديفيد يهبره قيها بأنه هو وهذا ليس اختبار للولاء !!! ديفيد هنا في جنة الأب جونز !! , وأنه هو من كتب هذه الورقة ويحاول تحذيره رفيق طفولته !!

- 11 -

برغم كل هذه الأحاسيس التي تزور جورج وعائلته للمرة الأولى منذُ فترة طويلة، وبرغم المسكن والملبس والاستقبال الحافل، وبرغم ذلك المكان الذي بدا لهم كالجنة، لم يستطع جورج النوم، يفرد جسده على السرير ينظر بعينيه المفتوحتين إلى السقف يتأمله، يركض بعقله في كل تلك الأحداث التي تشابكت خطوطها في رأسِه، رفيق دراسته وزميله في العمل ديفيد الذي لم يره منذُ فترة طويلة هنا في مدينة الأب جونز!!صدفة سعيدة لكن جورج يبحث في عدم ظهوره واستقباله له، عدم مصافحته له، بل إنه ترك له ورقة تحذيرية ولم يكتب اسمه بل وضع له تلك الرسمة التي تعاهدا في الماضي على وضعها لبعضهما البعض إذا أحبا أن يتناقلا أخبار في أوراق من دون كتابة أسماء،وكانا يفعلان نفس الشيء في العمل من قبل، هذه المرة وضعها على رسالة تحذيرية وجدها على المنضدة!! هل ديفيد هنا في جنة الأب جونز !! سأل نفسه ثم سرعان ما أجاب على نفسه كون لا أحد يعلم بأمر هذه الرسمة غيرهما !!! إذًا إن كان ديفيد هنا في الجنة لماذا يحذره بهذه الطريقة !!! تماوجت في رأسه الأسباب التي دفعته لكتابة هذه الورقة، ترددت نغمات رثائها في عقله الذي رفض تخيل أنها مجرد دعابة منه ليكون الاستقبال مختلفا!!ضربت جورج موجة أخرى من التفكير المنحصر بين أمرين، هل عليه إخبار زوجته بتلك الورقة أم يكتفي هو بالتفكير فيها حتى يفهم الأسباب التي أدت إلى ذلك، ظل يتقلب مع تلك الأفكار والأسباب والافتراضات حتى استمع إلى صوت اصطدام في الخارج ، شيء قد اصطدم بكرسي فتزحزح عن موضعه واصدر صوت احتكاكه بالأرض!!اتسعت عينا جورج وظل ينظر

بدهشة إلى اللاشيء يفكر فيما عليه أن يفعل، إلى أن سمع صوت الباب وهو يُغلق وتعمد من يفعل ذلك أن يبرز صوت انغلاقه كأنها رسالة صامتة أخرى ، هب جورج واقفًا وركض إلى الخارج ليجد على المنضدة ورقة أخرى وُضِعت عليها تفاحة ، فتحها بسرعة فوجد بداخلها نفس الرسمة، ركض تجاه الباب وهو لم يقرأ حتى ما فيها ليدرك ديفيد ويتأكد أنه هو، فتح الباب وخرج من المنزل وراح يبحث بعينيه في كل مكان حوله فلم يجد سوى اللاشيء، ظل يدور حول المنزل وينظر بعينيه في كل اتجاه فلم يصل إلى أية نتيجة ولم يلمح أحدا، عاد إلى الداخل وفتح الورقة وبدأ يقرأها "إذا أردت معرفة الحقيقة فسوف أنتظرك بعد قليل في القاعة التي كان يجتمع معكم بها الأب جونز، لا تتأخر وحاول ألا يرمقك أحد من الحراس لأن التجول بالليل هنا جريمة، وإن حدث وتم القبض عليك لا تخبر أحدا بأمر الورقة وأخبرهم أنك حديث الانضمام إلينا ولست على دراية كافية بالقوانين، تخلص من الورقة، ولا تأخذها معك"، أصاب جورج صدمة كبيرة لما وجده في الورقة، تحرك شغفه الشديد لمعرفة ما يحدث حوله وما هي تلك الحقيقة التي يقصدها ديفيد!!بسرعة البرق هَمَ بالخروج من المنزل وبدأ رحلته نحو القاعة ليعلم الحقيقة، كان يتحرك كلص يتحسس الخطى ويخشى أن يكشف أمره أحد بعدما أخبره ديفيد بأمر التجول في الليل، ينحني بنصفه العلوي ويتحرك وعيناه تنظران في كل مكان، هو لا يريد أن يرتكب أي خطأ حتى لا يُطرد من تلك الجنة التي وجدها بعد عناء طويل وتحمل وتجَلد، وصل إلى القاعة وهو يتحرك على تلك الشاكلة التي بدا فيها كجندي يتجول في أرض العدو، كان الليل والظلام يحط على المكان ولا يضيء سوى بعض الأماكن الحيوية في المدينة فتبدو كاللؤلؤ المنثور، هناك في القاعة كان الظلام هو سيد الموقف مما جعل الرؤية تتعذر بشكل كبير، حداثته في المكان لم تمكنه من معرفة القاعة بشكلٍ جيد، علاوة على أنها فسيحة وهو لا يعرف إلى أي مكان عليه أن يتجه، بهدوء بدأ يترجل داخل القاعة فلم يجد بها ضالته ولا أي شخص على الإطلاق، نظر حوله وحاول أن يستجمع تفكيره الذي اهتدى به بالتوجه إلى المنصة، تحرك على نفس الشاكلة وهو يتحسس المكان من

حوله حتى أدركها، بحث خلفها وأمامها ولا وجود لأحد، تعجب من ذلك ولم يستطع عقله التفسير، في الوقت نفسه هو يأبى العودة إلى المنزل ليقض ليلة توازي تلك الليلة التي قضاها في مزرعة السيد نيكولاس غارقًا في دوامات التفكير التي لا تنتهي، انتظر فترة بسيطة من الوقت لا يعلم مدتها تحديدًا في انتظار حدوث أي شيء يكسر ثبات الأجواء، لكن لم يحدث أي شيء فأُصيب بالإحباط وخيبة أمل شديدة وأدرك أنه لن يفلت من دوامات التفكير، طفق يتحرك إلى المنزل بصحبة ذلك الشعور الذي ينخر في صدره فشعر بأحد يضع يده على فمه ويسحبه بين المقاعد، هو لم يستمع إلى وقع أقدامه ولم يشعر بوجوده من الأساس، فقط وضع يده عليه بغتةً، التفت إليه سريعًا حتى لا يشرع بالمقاومة فوجده ديفيد صديقه، لم يشعر جورج بنفسه ولم يفكر في أي شيء سوى أنه يحتضنه بقوة غيابه عنه منذُ أن ترك المقهى والولاية بأسرها، لم يصدق عينيه،إنه يقف أمامه الآن ويتحدث إليه بعد طول المدة السابقة، احتضنه بقوة وكذلك هو، قبل رأسه ثم تذكر كل منهما تلك الذكريات التي جمعت بينهما في أماكن عديدة، كادت عينا جورج أن تفيضا بالدموع وهو يرى صديق طفولته أمامه، تذكر أمر الورقة التي تركها له والشغف الذي ألقاه في صدرِه بسببها فسأله بسرعة البرق عن ذلك، طأطأ ديفيد رأسه وتبخرت عن وجهه تلك الابتسامات التي كانت ظاهرة بقوة، تحدث في حزن شديد.

- الأمر خطير يا جورج، خطير إلى أبعد ما تتخيل، هذه ليست جنة عدن وليست جنة من الأساس، هنا جحيم مُسعر، هنا ديكتاتورية وظلم لم تره عيناك من قبل، هنا يوجد شخص قد قرر أن يصنع من نفسه إلها بعدما اغتر بما وصل إليه أو ربما ما كان يخطط له منذ البداية.

جورج ينظر له وقد جف ريقه على أثر ما تناولته أذنه، وقع الكلام لا يتناغم مع ما شاهده هنا بعينيه ولمسه بقلبِه، إذا استثنى ما صدر من المساعد الزنجي، أردف ديفيد حديثه ليكشف حقيقة الأمر.

- هناك أمور كثيرة قد أُزيح الستار عنها، أمور تجعل الولدان شيبا، لكن الوقت ليس كافيا الآن لأقصها عليك كاملة، لكن ما أريدك أن تعرفه جيدًا أن أية كلمة سوف أخبرك بها هي موثقة ويوجد دليل قاطع عليها حتى لا ترتاب في شيء يا جورج.

- ديفيد أنت أخبرتني في رسالتك بأن آتي إليك هنا لتخبرني بالحقيقة، هذا ما كتبته أنت في الورقة وهذا ما دفعني للمجازفة، من فضلك أخبرني ماذا هناك ولماذا تصف جنة الأب جونز بالجحيم!!

- أنا أخبرتك بأني سأخبرك الحقيقة وهذا ما سأفعله يا جورج، سوف أقتادك اليوم معي في مهمة صعبة لتر كل شيء بعينك قبل أن أتحدث في أي شيء.

- مهمة!!ماذا تقصد بمهمة؟؟!!

- أنا أعمل منذُ وقت على كشف أسرار مدينة الأب جونز لأن الوضع قد اختلف كثيراً عما سبق، أنا انضممت إلى معبد الشعب منذُ أن كان في سان فرانسيسكو بعدما تركت المقهى الذي كنا نعمل فيه، كانت الأمور هناك رائعة، ولكن حينما أتينا إلى هنا بدأ الأب جونز في التغير وبدأ يصيبه الجنون بسبب القوة والسلطة التي حصل عليها، الأمور بدأت تسوء هنا بشكل تدريجي حتى تمكن هو من مفاصل المدينة فتملكها وصار ينصب نفسه إلها عليها.

- ولكن أنا على علم بأنك تركت المقهى والولاية من أجل حصولك على عمل آخر!!

- نعم، ولكني تعرضت لحادث بشع بعد شهور قليلة في عملي الجديد أدي إلى عجز جنسي كامل نتيجة إصابة قد لحقت بي ولا داعي لنخوض في الحديث فيها، توقفت حياتي وانتهت وأصبحت غير قادر على العيش مع زوجتي فقررت أن أتركها هي وأطفالي وأن أترك لهم مبلغ التعويض الذي حصلت عليه، ساءت حالتي النفسية حتى التقيت يوما بقافلة من قوافل معبد الشعب، أعجبت بالأب جونز وبحديثه الرشيق وكلامه المنمق، لم أسمع رجلاً في حياتي يتحدث بحب مثل ذلك الرجل، وقررت الانضمام إليه لأنني شعرت بأن هذه الكنيسة هي المكان المناسب لي، هناك كان

كل شيء نابض بالحياة والروح والقوة، لم أشعر أنني غريب قط، هناك تعرفت على الأب جونز أكثر وقد أُعجبت بطريقته في الحديث وسحره في الكلام ومعاملته التي لم أجد مثلها من قبل وقد ازداد إعجابي به حينما أدركت أنه كان أول من تبنى طفلا أسود، هذا الرجل كان يحاول زرع بذرة حلم المساواة العرقية، وقد تعرض للاغتيال عدة مرات لكنها لم تنجح على يد "كو كلوكس كلان" وهي منظمة أخوية أمريكية قديمة تقوم على الإيمان بسامية العرق الأبيض، يكرهون الزنوج والجنس الأسود كما يكره رجال الدين الموبقات، لم ينته الأمر عند ذلك الحد بل إنهم أحرقوا كنيسة معبد الشعب في سان فرانسيسكو فبنينا مدينة الأب جونز هنا، ومنذ أن أتينا إلى هنا وكل شيء تغير، تغير بالكامل وأصبح جنونيًا كما أخبرتك.

- أريد أن أعرف شيئا من هذا الجنون، أنت قد حركت شغفي.

- أنا أخبرتك أن تأتي معي وستعرف كل شيء.

- ديفيد، أنا لن أتحرك إذا لم أفهم ماذا تقصد بهذا الجنون!!أنا هنا كالأعمى، يجب أن أُدرك شيئا عما تتحدث عنه!!!

زفر ديفيد في ضيق ثم شرع يتحدث معه بسرعة أكبر.

- الوقت ضيق ولكن سأخبرك سريعًا، أنا هنا أعمل في مخزن للفاكهة والخضروات التي تحتاج لثلاجات حتى لا تتلف، تأتي كل يوم سيارة من سيارات حراس المدينة لتأخذ بعضا من الفاكهة لتذهب بها لإطعام الناس المحكوم عليهم بالحبس في المأدبة لارتكابهم خطأ ما، وهذه من الأشياء التي ظهرت حديثًا هنا، وصلته مع الرب الذي يأمره بفعل أشياء بعينها، غير مسموح لأحد بالذهاب إلي هناك وحتى إن مكانها بعيد وغير معلوم للبعض، في يوم جاء السائق والحارس وقد خططت أنا لإصابة الحارس في قدمِه وقد حدث، كنت أخطط للذهاب إلى هناك فاضطر السائق لأخذي بدلا من الحارس الذي ذهب للمستشفى وبمجرد أن وصلنا نهره كبير الحرس هناك وأخبره أنه يجب ألَّا يحضر شخص غريب إلى هنا لكنه أخبره بإصابة زميله، طلب مني

كبير الحرس أن أنزل الفاكهة وأنصرف، لكني أبيت بعد الانتهاء من ذلك واختبأت في مكان ما وتحسست حول المبنى حتى ظهرت لي زاوية يمكن من خلالها الصعود إلى إحدى النوافذ لألقِ نظرة، وهنا كانت المفاجأة المدوية، رأيت أن المحجوزين هم أُناس طلبوا عدة مرات الرحيل عن المدينة وكان الأب جونز يرفض ذلك، لكنهم لم يتنازلوا عن ذلك الطلب وأخذوا يزيدون فيه ولم يملوا، حتى أنهم جاءوا في يومٍ وكان هناك اجتماع للأب جونز فقاطعوه وطلبوا منه الرحيل، يومها أنا أتذكر جيدًا أنه نهرهم بشدة وأخبرنا أنهم قد غضب عليهم الرب وأنهم مطرودون من الجنة وبالفعل قرر طردهم، أخذتهم سيارة إلى مدينة بورت كايتوما ومنها إلى المطار، وقد أعطاهم جوازات السفر الخاصة بهم وتحركوا أمام الجميع لكني وجدتهم في الداخل، هم لم يتركوا المدينة يا جورج، وهذا معناه أن الأب جونز لن يسمح لأحد بالخروج.

- لكن هناك في الاستقبال أخبرني مساعد الأب جونز بأنني بإمكاني استرداد جوازات السفر وقت ما أشاء الرحيل.

- وأيضًا العائلات المحتجزة في المأدبة أخبروهم بذلك، إنه فخ يا جورج، فخ، الأب جونز صار أكثر قوة وعدوانية، أصبح ديكتاتورا يحكمنا بلا رادع، ولا يجرؤ أحد أن يعترض، فهذه من المحرمات، كنت ألاحظ ذلك دومًا،إنه أصبح شخصا مختلفا عن ذلك الذي قضيت معه أيامً طويلة وكنت أظن أنه ضغط عصبي حتى أدركت كل شيء.

استمعا لصوت مروحية ترتفع في سماء المدينة، نظرا تجاهها وهي ترتفع ثم تتحرك مبتعدة عن المدينة، نظر ديفيد إلى جورج وأخبره أن الأب جونز يتحرك اليوم إلى أحد زعماء المافيا البرازيلية القريب من مساعده الزنجي اللزج لعقد اتفاق معه حول صفقة مشبوهة، وهذا التوقيت هو فرصة طيبة ليذهب هو إلى المخزن لروية البضاعة التي تحدث عنها الأب جونز ولذلك طلب من جورج أن يأتي معه.

- تحدث عنها، كيف؟؟

- هذا موضوع يطول شرحه، الوقت ينفد وعلينا أن نذهب سريعًا،لكني أعدك بأنني سأجعلك ترى كل الوثائق بعينك ولكن في الوقت المناسب.

- ومتى هو؟

- لا أعلم ولكن بالتأكيد ليس الآن.

استمعا سويًا لوقع أقدام تقترب من القاعة فأدرك ديفيد أنهم من حراس الأب جونز فطلب من جورج الاختباء سريعًا حتى لا يكشفوا أمرهما فالأحاديث الجانبية هنا محرمة وممنوعة منعًا باتًا كما أخبره مساعد الأب جونز في الاستقبال، تصلب جسد جورج وكذلك جسد ديفيد واستمعا لوقع أقدام هؤلاء الحراس وهي تقترب منهما حتى باتوا بالقرب منهما تفصل بينهم خطوات معدودة، وقف الحراس يتبادلون الحديث فأخبر أحدهما الآخر أن عليهم الانتشار في المدينة للحفاظ على كل تعليمات الأب جونز وحتى لا يستغل ضعاف النفوس غيابه، أنهوا حديثهم ثم انصرفوا بعيدًا فعاد ديفيد يتحدث إلى جورج بصوتٍ هادئ أن التحدث إلى بعضهما البعض أو خروجهما من المنزل يعتبر جريمة يعاقب عليها الأب جونز.

- ديفيد،إن ما تطلبه في غاية الصعوبة، لقد استمعت بنفسك لكلام الحراس علاوة على أنك لا تعلم كم عانيت أنا من أجل الوصول إلى هنا، ربما هذه العائلة متورطة في شيء ما وهو ينتقم منها.

- أنا كنت سأفعل فعلتي هذه من دونك، وطلبت منك ذلك فقط لأنك صديقي وأعلم كم تثق بي، أنا ذهبت وسرقت مفتاح منزلك من الاستقبال لأخبرك بأن تأتي، رفضت أن أتحدث معك في هذا الأمر في المنزل حتى لا يذاع سيطه وهذا ممنوع لكن أريدك أن تفكر في شيء، الأب جونز يمنع الناس أن تتحدث مع بعضها البعض وهذا إن دل فيدل على أن الأب جونز يخشى من الحديث لأنه يعلم أنه على باطل وأنه ظالم لا محالة.

- أنا أثق بك وأقدر جيدًا ما فعلته،ولكني في حالة يرثى لها، أنا تعرضت لمعاناة لا تعلم عنها شيئا، انتظر حتى نتأكد من الأمر سويًا وبعدها سأساعدك.

- لا يا جورج أنا سأهم بفعل ذلك الليلة.

- ولكن أنا أخشى عليك يا ديفيد.

- هذا شأني،اهتم أنت بشأنك وشأن عائلتك فقط يا جورج، والأيام ستثبت لك صحة كلامي، هناك أكثر من دليل ولكن لا وقت لذلك، الأيام القادمة سأجعلك ترى كل شيء بعينيك.

- وأنا أعدك أني سوف أساعدك إن ثبت ذلك، أنا أثق بك، ولكن أنت لا تعلم شيئا عن الأوقات الصعبة التي عشتها هناك في الولايات المتحدة.

- أنا لا أعرف عنها حقًا لكني أريد أن أخبرك بأنك هنا ستشاهد أسوأ ما قد تراه عيناك.

اغتم جورج لكلام ديفيد وشعر أنه لا يجد ما يُجيب عليه به، أدرك ذلك ديفيد جيدًا فأردف قائلاً.

- يا جورج، أنا لا أعلم ماذا سيسفر عن تلك الخطوة التي أنا مقبل عليها، ولكن ما أود إخبارك به هو ألّا تقيم هنا في المدينة، فكر في الهروب ولا تستسلم للإقامة هنا وإني لك من الناصحين، إن كنت معك فسوف أساعدك وإن حدث شيء آخر حاول أن يكون هذا هو هدفك، ترك المدينة، خطط من أجل ترك المدينة يا جورج.

كانت كلماته الأخيرة حادة إلى حد ما، ألقاها عليه ثم انصرف وسط نظرات جورج المتأرجحة بين المساعدة والخوف من فعل ذلك، ظل متيبسا ينظر إلى ديفيد وهو يبتعد عنه، يفكر فيما عليه فعله لكن لم يجد سوى العودة إلى المنزل، هو لا يريد الدخول في صراعات أخرى وهو بالكاد تخلص مما سبق، فضل ألا يشتري عداوة الأب جونز من اليوم الأول إذا تم الإمساك بهما وكُشف أمرهما، في الوقت نفسه هو يعلم أنه سيجني خصومة ديفيد لأنه بالتأكيد كان يأمل ألا يتركه صديق طفولته وحيدًا بلا

مساعدة، لكن جورج كان يخشى أي فعل سريع وغير مدروس، بصحبة تلك الأحاسيس المتداخلة عاد جورج إلى المنزل وقلبه مع ديفيد، يتمنى ألا يكشف أحد أمره أو يسجن داخل المأدبة، في الوقت نفسه يفكر في تلك الأحداث التي قصها عليه ديفيد، يحاول أن يجد مبررا لما يفعله الأب جونز ليريح به باله وقلبه، فدفعه ذلك التفكير للسقوط في دوامات إمعان النظر العميق في كل شيء حتى غلبه النوم بسبب الإرهاق الذي يعاني منه، سلب منه النصب والإجهاد وعيه فغط في النوم لساعات قليلة حتى بدأ ضوء النهار يشق ظلمة الليل الحالك، فاستمع الجميع عبر مكبرات الصوت التي في منازلهم لصوت الأب جونز وهو يتحدث إليهم بنبرة صوت حادة للغاية وقوية لم يعهدها أحد من قبل، يأمرهم بأن يجتمعوا في قاعة الاجتماعات الآن فهناك أمر في غاية الخطورة، أخبرهم الأب جونز بنفس النبرة التي كان يتحدث بها بأنهم ملك له، ولا يحق لهم البُعد عنه سوى أثناء نومه، وعليهم الاستيقاظ إذا احتاجهم، الصوت كان مرتفع وقوي فانتزع جورج من نومه العميق ليجد زوجته تجلس على السرير تنظر إليه بترقب وخوف، تخبره بأن قلبها غير مطمئن وتشعر بارتياب شديد مما يحدث، ابتسم جورج وأخبرها أنه مجرد اجتماع طارئ وألّا شيء يستدعي ذلك، أراد ألا يجعلها تحمل معه من الهم ما لا طاقة لها به، في الوقت نفسه كلمة "أنتم ملك لي" التي قالها الأب جونز جعلت جورج يشعر بأن الأمر يزداد سوءً وأن هذا الرجل يمتلك صفات أخرى تستتر خلف تلك الشخصية التي يظهر بها، ابتلع كل هذا القلق ولم يُظهر أي شيء منه حتى لا يعكر مزاجها،خاصةً أنه يعرف سبب هذا الاجتماع ويعرف أيضًا أن ديفيد قد كُشف أمره، احتفظ بذلك أيضًا وهَمَ يخرج إلى مكان الاجتماع وهو يدعي الجهل كباقي العائلات التي في طريقها إلى الاجتماع، هناك كان الجميع قد احتشد، يتحدثون إلى بعضهم البعض بصوتٍ مرتفع للغاية، جورج الآن بدأ يلاحظ ما أخبره به ديفيد وتأكد منه، لا أحد يتحدث بصوتٍ منخفض!!ديفيد على حق، توغل جورج من بينهم بصحبة زوجته ثم جلس بهدوء شديد، أراد ألا يخبرها بشيء حتى لا يلفت رد فعلها انتباه أحد، وحتى لا تتوتر فتفسد كل شيء، بعد دقائق

ظهر الأب جونز بصحبة مساعديه والحرس، صعدوا إلى المنصة فعم السكون أرجاء المكان، وقف الجميع حتى توقف الأب جونز في منتصف المنصة وأمسك بالميكرفون ثم أشار لهم بالجلوس ففعلوا ما أُمروا به، كان وجهه عليه الغضب متجسدا وملامحه تنذر بما هو ليس خيرا، احتدت قسمات وجهه وهو يتجول بعينيه في الجميع، الموقف كان صادما بالنسبة إلى جورج الذي راح يرتفع وجيب قلبه ويلهج لسانه بالدعاء إلى الرب أن يمر الأمر بسلام، بدأ يتحدث إليهم الأب جونز بنبرة صوت تترجم كل تلك الأحاسيس التي يشعر بها.

- كنا نعتبر يوم أمس يوما من أعظم الأيام لدينا في مدينة جونز، حيث وصول الوافدين الجُدد وشفاء لبعض المبتلين الذين أذن لهم الرب بذلك، لكن يبدو أن بيننا أُناس يريدونه يوما كالحا يحمل ذكرى كئيبة، يفعلون الأفاعيل كي نجنِ غضب الرب علينا، الرب الذي يحمينا ويحافظ علينا هنا بعيدًا عن العالم الخارجي الوحشي الذي يتقاتل فيه البشر ويقتل الأخ فيه أخاه، عالم لن تجد فيه شخصًا واحدًا يقول لك سوف أعطي لك منزلا نظيفا، سوف أعطي لك غذائك، سوف أوفر لك حياة كريمة، سوف أحملك على ظهري لنعبر تلك المحنة، ما يجب علينا الإيمان به هو أن ما تجده هنا في مدينة جونز لن تجده في مكانٍ آخر، لذلك يجب أن تحافظوا عليها، يجب أن تحافظوا على مدينة جونز.

صاح بعض الناس ورفعوا أيديهم إلى أعلى وطفق بعضهم يهتف باسم الأب جونز الذي رفع يده إليهم وأمرهم بالصمت كي يستأنف حديثه.

- نحن هنا بعيدًا عن العبودية، نحن هنا لا نتبع سياسة التفرقة العنصرية التي تمارس في العالم الخارجي على الأمريكان من أصول أفريقية، ولكن لا يزال بيننا من لا يشكر الرب على عطاياه، يأبى أن يكون شخصًا صالحًا، يرفض طائفتنا الدينية الجديدة التي تهدف إلى أن تكون كنيسة متعددة الأعراق والألوان، ما رأيكم في هؤلاء اللذين يتعاملون معنا بهذه الطريقة السيئة.

صاح الجميع بطريقة عشوائية، واختلفت أقوالهم فوصلت شظايا من بعضها إلى أذن جورج، على غِرار "نقتله، يُنفى، يُسجن، يُعاقب"، كلها كانت كلمات عدوانية جعلها الأب جونز إرادة مجتمع ولم يفرضها هو عليهم، بدأت تلك المنطقة المظلمة تنير في رأس جورج بسبب ذلك الفعل،انتابته لمحات من التفكير فأدرك أن الأب جونز يهيئ الأمور كما يريد ثم يفعل ما يريده هو بعدما تقرره أنت بنفسك، فقط هو يهيئ أبناء المجتمع نفسيًا ويجعلهم يشاهدون فقط الجزء الذي يريد هو أن يُريهم إياه، إنها نفس الاستراتيجية التي استخدمها هتلر مع شعبه أثناء الحرب العالمية الثانية، كان دومًا يخبرهم بأنهم معرضون للخطر وأنه يحاول حمايتهم من العدو الذي سيفتك بهم إذا وقعوا في أيديهم، كان دائم التخوين لكل من يعترض على أي من قراراته، ويذاع ذلك ليل نهار على مسامع الشعب مستغلاً الإعلام الذي كان في صالحه، هنا الأب جونز يمنع أي اتصال لأفراد مجتمعه مع العالم الخارجي، فالحياة هنا خالية من التلفاز والراديو وأي وسيلة اتصال أخرى، ليظل هو البوق الوحيد الذي يذيع لهم ما أراد وقت ما أراد، إنها نفس السياسة والإستراتيجية الممنهجة للتضليل، لم يبق منها سوى الأكاذيب التي يكسب منها ثقة وولاء أفراد المجتمع الخاص به، كان وجه الأب جونز يتهلل بالبشر والحبور حينما يسمعهم يهتفون بهذه الكلمات القاسية، انتظر الأب جونز ولم يشرع في الحديث إلا بعد دقائق ترك فيها التعبير لأفراد مجتمعه ثم استأنف حديثه معهم وأخبرهم بنبرته الحماسية التي يبرز من خلالها ضيقه الشديد بأن هناك شخص أمريكي من أصول أفريقية قد ارتكب جريمة في حق الإنسانية، وقع هذه الكلمات كان قاسيًا على جورج الذي زاوله الخوف وتأكد أنه يتحدث على صديق طفولته ديفيد، راح ينظر إلى الأب جونز بعينين مذعورتين يكاد بؤبؤيهما ينفران من المحجرين بسبب اتساعهما، أشار الأب جونز بيديه إلى فتاة شقراء فدخلت إلى الجميع وتوقفت أمام المنصة وولت وجهها شطر الحاضرين، كانت عيناها حمراء تمتلئ بالدموع وشعرها تشعث وعلى وجهها آثار حمراء لأصابع وأظافر يبدو أنها حاولت العبث بها، وقفت أمام الجميع وهي تطأطئ رأسها فزعق فيها الأب

جونز وأمرها أن ترفع رأسها وهي تتحدث إلى الجميع، فهي ضحية وليست مذنبة، بدأ جورج يشعر بالراحة حينما أدرك أن الأمر بعيد كل البُعد عن ديفيد صديقه، زفر بأريحية شديدة قبل أن يشرع في الاستماع إليها وهي تتحدث عن شاب زنجي تسلل إليها بالأمس وقام باغتصابها رغمًا عنها وأنه أيضًا حذرها بأنها في حالة إبلاغ أي أحد بما حدث فسوف يقتلها أو يسيء إلي سمعتها حتى تُطرد خارج ذلك المجتمع الناجح، تعالت الأصوات المحتجة على هذا الفعل المُشين، دفنت تلك الفتاة رأسها بين كفيها وراحت تنخرط بالبكاء فراح بعض الحاضرين يتعاطفون معها ليخففوا ذلك الضغط ويرفعون عنها الحرج حتى لم تتمالك نفسها وتركت المكان وركضت خجلاً، تأثرت زوجة جورج وكذلك زوجها بما حدث لهذه المسكينة، تعالت الصيحات وأخذوا يطالبون بالقصاص من هذا الحيوان الأعجم، أخذوا يطالبون بقتلِه، يرددون هذه الكلمة بقوة وبسرعة وحماسة شديدة، وجد جورج نفسه يهتف مثلهم، تحركه تلك المشاعر والأحاسيس التي التهبت بداخلِه، وقف الأب جونز وأردف حديثه.

- واحدٌ من هؤلاء المحسوبين على جنتنا قد صورت له نفسه فعل ذلك الفعل الفاضح، وهذه الفتاة المسكينة التي تم اغتصابها ظلمًا وقهرًا لم تجد أمامها سوى أن تضربه على رأسِه بساق حديدية أدت إلى وفاتِه، وإن الرب قد عفا عنها لأنها كانت مضطرة لذلك، لحسن حظ ذلك الحيوان أنه قُتل، وإلا كان سيلقى عذابًا شديدًا منا نحن المحافظين والمتمسكين بإنسانيتنا وديننا.

أنهى كلامه فصاح الجميع يهتف بتأييد هذا القرار السليم، لكن جورج توقف عن ذلك واتسعت عيناه عن آخرهما حينما أخبرهم الأب جونز باسم هذا المتهم فاكتشف أنه صديقه ديفيد، نزل عليه الاسم كالصاعقة فثبت مكانه كالتمثال، ولو أن شخصا أطلق عليه الرصاص في هذه اللحظة لما شعر بسبب الحالة التي تعتريه، كان الأمر أكبر من الدهشة وأبعد عمقًا من أي كلام، الناس من حوله يهتفون بقتلِه وهو يكمن عذابه في مقاومة عدم البوح بما يعرفه ليرد هذا الافتراء، ديفيد أخبره أنه عاجز وبات لا يشعر بشهوة تجاه النساء وبالتأكيد لن يَهم بفعل أمر كهذا، بالتأكيد قد كشف

ديفيد أمورا قد تطيح بمُلك هذا الأب المُدعي إذا ظهرت للجميع، يهتفون منددين بما فعله ذلك الزنجي ويؤيدون ما فعلته تلك الفتاة، ابتلع جورج ما كان يعلمه على مضض وفضل ألا يتسرع في أية ردة فعل، ولكنه في الوقت نفسه عزم على استكمال ما بدأه ديفيد لأن الصورة قد اكتملت أمامه وأضاف الأب جونز ما كان ينقصه من سياسة هتلر وهو التضليل والكذب، لفق تهمة وحدث، وطوعه ليخدم ما أراد، وهذا ما جعل الاشمئزاز يستفحل بداخل جورج بعدما أُضيف حزن آخر إلى قلب جورج بعد حزنه على المرأة المُسنة وجاره مايكل الذي انتحر، جاء حزن فراق ديفيد بعد مدة قصيرة من لقاءه بعد غياب دام لوقتٍ طويل، لكن هذه المرة الحزن مختلف يختلف عن سابقه، بعيدًا عن كونه صديق الطفولة إلا أنه يعلم جيدًا أنه مظلوم وأنه اتُهم بالباطل بفعل فاحشة بات غير قادر على اقترافها، هو قُتل لأنه كشف الستار عن شيء ما، شعر جورج بعدم الأمان داخل هذه البيئة التي تبدو من الخارج جنة ولكنها بدأت تتضح أنها ليست كذلك، بدأ يخشى على أطفاله من أن يكبروا في هذا المكان فلا يكون لديهم ضمير قوي ورادع قادر على محاسبتهم قبل أي شيء في هذا المكان، لن تتكون لديهم شخصية قادرة على تحمل أي شيء، هنا لن يعرفوا شيئا سوى قداسة الأب جونز، ظلت تلك الأفكار تتصارع في رأسِه حتى انتهى الاجتماع والنور الذي كان يتلألأ في عينيه ينطفئ شيئا فشيء، وجعل الأب جونز كل أفراد المجتمع يشعرون بالرضا تجاه قتل ذلك المسكين، أمر الأب جونز الجميع بالذهاب إلى العمل ومتابعة كافة الأمور، أمَّا الوافدين الجُدد فعلى الأطفال الذهاب إلى المدرسة والأمهات والآباء إلى الاستقبال لتوزيعهم على الأماكن التي تحتاج إلى عمالة، انتشر كل أعضاء مجتمع جونز في أعمالهم وراح كل شخص يذهب إلى المكان الذي عُين فيه، أمسك جورج بيد زوجته وقبل أطفاله قبل أن تأخذهم المعلمة إلى المدرسة الموجودة داخل المدينة، أراد جورج ألّا يبدو عليه شيء حتى لا يلفت الأنظار، وأن يتصرف بطبيعته حتى تختمر خطته في الخلاص من هذه المدينة بأقل خسائر، عدم عرض الأب جونز صورة القتيل أو حتى ظهور الجثة حتى لا يتعاطف معه أحد جاء

في صالح جورج حتى لا تراه زوجته وتتعرف عليه، ذهبوا جميعًا إلى الاستقبال، انتظر جميعهم في الخارج،إنهم نفس الأشخاص الذين كانوا بالأمس سويًا في نفس المكان، ولكن هذه المرة من دون أطفال، انتظروا جميعًا وبدأ يدخل كل شخص منفردًا على حدة، ظلوا على تلك الشاكلة حتى جاء دور جورج، أخبره مساعد الأب جونز الذي كان قد تحدث معه بالأمس وأخبره ببعض التعليمات أنه سيعمل مكان ديفيد، ذلك الشخص الذي قتلته الفتاة وهو يغتصبها فالمكان بات فارغًا، لا يعلم أحد بأن جورج وديفيد أصدقاء، لكن لسوء حظه وضعوه هو دونًا عن باقي الأفراد الآخرين للعمل مكانه، كانت نفسيه جورج وقتها خارج التصنيف والتوصيف، كان عليه ألا يعترض أو يظهر أي ردة فعل لمساعد الأب جونز حتى لا يرتاب في الأمر، ابتلع الأمر وحاول ألا يتأثر، لكن هبطت على رأسه صاعقة ذات خدر غائم حينما باغتته زوجته وأخبرته أنهم قاموا بتوزيعها ضمن قسم النظافة المسئول عن نظافة مكتب ومنزل الأب جونز ومساعديه، ارتبك جورج وشعر أن هذا الأمر مدبرٌ وأنهم فعلوا ذلك بأمر من ذلك المساعد الزنجي الذي كان ينظر لها بتلك النظرات الغريبة، تكالبت الأحداث فوق رأس جورج وشعر أن عليه التصرف سريعًا للخروج من تلك المدينة قبل أن تسوء الأمور أكثر من ذلك.

- 12 -

انتهى توزيع الوافدين الجدد على أماكن عملهم واستلم جورج مكانه في المخزن الخاص بالفاكهة، تحديدًا مكان ديفيد صديقه، وزوجته ذهبت مع الطاقم المسئول عن التنظيف، استلم المكان بصحبة مرشد من الاستقبال ألقى عليه التعليمات وأخبره بطبيعة العمل وعن السيارة التي تأتي من المأدبة لتأخذ الفاكهة والخضروات، جلس جورج يُفكر في المصير الذي ينتظر زوجته وهي ذاهبة إلى ذلك المكان الذي سيجمع بينها وبين ذلك المساعد الزنجي، قاده تفكيره إلى أسوأ النهايات بعدما شاهد بعينيه ما حدث لديفيد!!فبدأ يشعر بصدرٍه يضيق وبدأ يتوتر فيجوب المخزن ذهابًا وإيابًا يبحث فيما عليه أن يفعل، كلما هدأ وجلس قليلاً تذكر نظرات مساعد الأب جونز الزنجي الذي كان ينظر بها إلى زوجته فتهيج مشاعره مرة أخرى ويتخيل أنه ربما قد يحاول التعرض لها أو التحرش بها، وفي حالة رفضها أو الاعتراض عليه سيُفعل بها ما رآه اليوم من الأب جونز تجاه صديقه، سوف يلقون عليها التهم والادعاءات الكاذبة، سيحيك خطوط التهمة جيدًا بالطريقة التي يصدقها الجميع، هو بالتأكيد قادر على ترتيب الأوراق بالشكل الذي سيجعلك تقتنع بما يريد، ويجعلك تنظر من تلك الزاوية التي يرغب بها، في الوقت نفسه سيجعلك تعرض عن الحقيقة ذاتها، استفحل شبح القلق بداخله كلما مرَّ الوقت وهي بعيدة عن أنظاره، من حين لآخر يخرج جورج إلى باب المخزن يلقي نظرة على المكان في الخارج فلا يجد سوى اللون الأخضر الخلاب والذي يعطي للمدينة سحرا خاصا ويُلهي الانتباه عن تلك الأحداث التي تحدث في الأعماق بعيدًا عن الأنظار والإدراك!!كل حين يخرج عليهم الأب جونز عبر مكبرات

الصوت المنتشرة في كل مكان في المدينة ويلقي عليهم ببعض الجمل الإنشائية التي لها طابع خاص في النفوس ليحفزهم ويحثهم على العمل، يخبرهم بأنهم يعملون هنا في مكانهم ويصنعون مجدهم ومستقبل أولادهم، يخبرهم بأنها الجنة التي يجب أن يحافظوا عليها ولا يسهو عن ذكر الماضي الأليم لكل فرد هنا، يخبرهم بوحشية وقسوة العالم الخارجي وكم هم وحوش من يعيشون فيه، يجعلهم من خلال كلماته يتشبثون أكثر بالمدينة ويزرع الرعب القاتل بداخلهم من فكرة الخروج أو الطرد منها، هذا الكلام كان سيكون له وقع جيد على جورج لولا أن رأى بعينيه ما حدث لصديقه ديفيد، بسبب ذلك الحادث أصبح يرى الأمور من زاوية مختلفة، وهو لم تمر عليه ساعات طويلة في المدينة!!

مرَّ الوقت على شاكلة بطيئة حتى انتصف النهار وأصبحت الشمس عمودية، استمع جورج إلى حشرجة موتور سيارة تأتي من بعيد، التقطت أذنه الصوت ثم ظهرت أمام عينه سيارة تأتي من بعيد، توقفت أمام المخزن مباشرةً، كان في صندوقها الخلفي المكشوف رجل نحيف ذو شعر طويل يصل إلى بداية كتفه ولحية قد استطالت بشكلٍ غير منمق، كان متجهمًا، حاد القسمات، لا يتحدث ولا تلين ملامحه في أسعد اللحظات، نزل من السيارة ودلف للداخل، فتح الثلاجة وأخذ منها ما أراد ووضعه في السيارة ثم خبط بيده عليها لينطلق السائق الذي لم يختلف كثيراً عنه والذي لم يتحرك من السيارة، هذه هي السيارة التي حدثه عنها ديفيد والمرشد هذا الصباح، إنها ذاهبة إلى المأدبة وهذا هو موعدها، حينما ينتصف النهار، هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها جورج شخصا لا يبتسم منذُ وصل إلى هنا، وصل إليه شعور بأن هذه المأدبة هي الجحيم ولا يحرسها سوى قساة القلوب، بدأ يصل إليه يقين بأن كل كلمة أخبره بها ديفيد كانت صحيحة وأن نصيحته له كانت نصيحة حقيقية!!بدأ يفكر بأن عليه بالفعل سرعة الخروج من تلك المدينة قبل فوات الأوان.

مرَّ الوقت على نفس الشاكلة البطيئة إلى أن استمع إلى تلك الصافرة "الإنذار" التي تخص الطعام، أغلق جورج باب المخزن سريعًا وانطلق تجاه قاعة الطعام ليطمئن

على زوجته وليعلم منها هل تعرض لها ذلك المساعد الزنجي أم أن كل شيء على ما يرام، ركض بسرعة كبيرة كمن سيحرم من الركض لبقية حياته حتى وصل إلى القاعة المخصصة للطعام، القاعة كبيرة ومقسمة إلى أماكن عدة بسبب العدد الكبير، بحث في المكان الأول، ثم الذي يليه، لم يكن لها أثر، لكن ما كان يخمد النيران في صدره قليلاً أن العدد لم يكتمل بعد، ولازال الناس يصلون شيئا فشيء، هو من وصل مبكرًا بسبب ركضه، لكن لم يمنعه ذلك من التجول في الأماكن كلها يبحث عنها، تزايد العدد وتداخلت الأصوات بالحد المسموع، برز رجال من الأمن من كل جانب، كانوا يتجولون بأعينهم الواسعة في الجميع كأنهم يراقبونهم، توجس جورج خيفة وبدأ يخترق الجميع بحثًا عن زوجته التي لم تظهر بعد، خُيل إليه أن المُساعد الزنجي قد ألحق بها الأذى وسيخرج الأب جونز بعد تناول الطعام ويزف للجميع خبرا كاذبا ثم يأمر بحبسها أو قتلها ليسلمها إلى مساعده وسيصفق الجميع، توترت أعصابه وشرعت بالانهيار، وضع يده على رأسه وبدأ يدور حول نفسه، تسارعت دقات قلبه وقدمه ترتعش بلا هوادة، يبحث في كل مكان عنها لكنه كان بحثًا فاشلاً لم يسفر عن شيء، لاحظ أحد الحراس ما فيه جورج فهم إليه يسأله عما أصابه فأجابه جورج بكلمات غير متناسقة أنه بخير، فقط يبحث عن مكان لتناول الطعام، أراد أن يسر ما بداخله في صدره ولا يبديه له حتى لا يرتاب في أمره، كان يريد أن يُنهِ كل شيء بسلام حتى لا يتهمه أحد بعدم الولاء للمدينة، ظل جورج يبحث عن زوجته حتى سقطت عيناه على تلك الزاوية التي كانت تأتي زوجته من عمقها وتدفع إحدى السيدات التي تجلس على كرسي مُتحرك والتي كانت تفرد ذراعيها في الهواء وتغمض عينيها وتستنشق الهواء الذي يرتطم بوجهها وزوجة جورج تدفعها، كانتا في طريقهما إلى قاعة الطعام، وجد جورج نفسه يركض تجاهها من دون تفكير، يركض مندفعًا وحينما وصل إليها سلبها ذلك الإحساس الذي كانت هائمة فيه، وقع أقدامه كان مزعجا وصوت أنفاسه المتلاحقة جعل زوجته وتلك السيدة ذات الشعر الأبيض تنظران إليه بدهشة شديدة، سألته زوجته ماذا هناك؟ فحاله ينُمُ بأنه يحمل أسوأ الأخبار على

وجه الأرض، لم يُجبها بل بادلها السؤال بآخر، سألها عما أصابها وهل تعرضت لأي أذى أم ماذا حدث!!، اتسعت عيناها وبدا عليها عدم الفهم، أخبرته أنهم في الجنة، وفي الجنة لا يمكن أن يكون هناك أذى!!، مط شفتيه إلى الأمام وهز رأسه دون كلام، هي كانت تشعر بأن هناك شيء غريب قد بدأ يحدث مع جورج، لكنها أرادت أن تُبدد هذا الإحساس فشرعت في تقديم السيدة التي كانت تجلس على الكرسي، أخبرته أنها إليزابيث وهي مسئولة الفريق الذي انضمت إليه اليوم والذي يعمل على نظافة منازل ومكاتب الأب جونز ومُساعديه، أخبرته أيضًا أنها امرأة جميلة وجذابة، هز رأسه لها مجاملاً قبل أن ينصرف وهو يشعر بأريحية مؤقتة حتى يجد حلا نهائيا لهذا الكابوس الذي بات يعيش فيه، لن يستطيع الاستمرار بهذا الكم من الضغط النفسي والقلق الذي سيحول حياته إلى جحيم مُستعر، تركهما وانصرف من دون كلام، سألت إليزابيث زوجة جورج عنه فأخبرتها أنه زوجها.

- لكنه رجل غريب الأطوار، يتصرف بغرابة شديدة.

- هذه ليست طبيعته، هو غير ذلك على أي حال، ولكن يبدو أنه لم يعتد على الجنة بعد.

مرَّ باقي اليوم على نفس الشاكلة حتى حل المساء وانتهت مواعيد العمل الرسمية بانطلاق صافرة الانتهاء فعاد الجميع إلى منازلهم بعد يوم شاق، كانوا جميعًا يشعرون بالتعب والنصب الشديد، خلد الأطفال إلى النوم بعد يوم طويل في المدرسة وإنهاء بعض النشاطات المطلوبة، أمَّا جورج فقد ظل يستمع إلى زوجته وهي تقص عليه كيف كان يومها الجميل وكم هي نشيطة مديرة فريق التنظيف إليزابيث، رغم كونها قعيدة إلا أنك لا تشعر بذلك من فرط نشاطها، علاوة على روحها الجميلة التي تتسلل إليك من دون الشعور بذلك، جورج كان يستمع إليها وهو يهز رأسه لكن عقله كان يفكر في كيفية الخروج من هذا المكان الذي بدأ يرتاب بشدة في أمره خاصةً بعدما استمع إلى ابنه الأصغر اليوم وهو يتحدث معه عن الأب جونز واتصاله بالرب، بل

وإنه قادر على تحقيق أي شيء لك إذا كنت تدين له بالولاء الكامل، تحدث عنه أنه المسيح في أيامه الأولى فبدأ ناقوس الخطر يرن في أذن جورج ويشعر بالريبة الشديدة التي بدأت تُضاف إلى تلك التي يشعر بها من بعد حادث ديفيد والقلق الذي يعتريه على زوجته، شعر أنها كلها علامات تنذر بالخطر الحتمي فشرع في التخطيط لشيء هام الليلة، لكنه انتظر حتى نامت زوجته وذهبت في غياهب الأحلام فبدأ بهدوء يتحرك من جانبها وينهض من السرير، خرج من الغرفة يتحسس وهو ينوي تنفيذ ما خطط له، سيحاول اكتشاف البوابة في تلك الساعة المتأخرة من الليل وكذلك السور ليرى هل بإمكانهم الهرب في ذلك التوقيت أم لا، بهدوء خرج من منزله، نظر إلى الأعلى فوجد القمر ينير كبد السماء، الهدوء كان يسيطر على المكان ويعم كل ركن فيه، جورج لا يعلم كم الساعة لكنه يظن أنها منتصف الليل أو يزيد عنه قليلاً، نسمات الهواء كانت باردة ولا يوجد ثمة حركة واحدة، ظل يتلفت حوله حتى تأكد ألّا أحد يراقبه، بهدوء بدأ يتحرك بين البيوت التي تنتشر حوله في كل جانب، يعبر بينها من دون أن يراه أحد، انحنى جورج وانكمش جسده ثم بدأ الركض تجاه الطريق الذي يتذكره ليقوده إلى بوابة مدينة جونز، هناك على مسافات بعيدة بعض اللافتات الخشبية التي كتب عليها أسماء بعض الأماكن التي يقودك إليها الطريق مع أسهم توضح نهايته، تحرك على تلك الشاكلة التي بدا فيها كلص حتى وصل بالقرب من البوابة فوجد عددا من الحرس يزيد عن العدد الذي يقف في المعتاد هناك، لم يكن الأمر قاطعًا بسبب ضعف الإضاءة، لذلك كان يحتاج منه أن يتقدم إلى الأمام أكثر حتى يستبين الأمر ولا يترك للشك طريق، أخذ يتحسس الحركة وينتبه جيدًا حتى لا يصدر أي صوت يتسلل إلى أذن أحد فيلفت انتباهه، اقترب أكثر وأكثر ثم نظر إليهم من تلك الزاوية التي أتاحت له رؤية ما يريد، كانت بالفعل أعدادهم كبيرة بالحد الذي لا يمكن تخطيه بسهولة من دون أن يراك لكن المفاجأة لم تكن في أعداد الناس بل كانت فيما رأته عيناه، هناك عدد من هؤلاء المتمركزين عند البوابة يحملون في أيديهم بنادق آلية، الحرس هنا مُسلح!!، الصدمة كانت كبيرة خاصةً أن

تلك الأسلحة لم تظهر حينما وصلوا إلى هنا ولم تظهر طوال النهار ظهرت فقط في الليل دون علم الجميع، ظهرت في الوقت الذي منع فيه الأب جونز أي أحد من التجول في المدينة!!راح جورج يفكر في كل هذه الأشياء المتداخلة لكنه لم يصل إلى تفسير منطقي يستطيع به إخماد عقله، تأكد بما لا يحمل أية ذرة شك أنهم داخل أزمة حقيقية قد استفحلت واستطالت أنيابها ولا يوجد أمامهم حل سوى الرحيل السريع، لكن لن يكون عن طريق تلك البوابة لأنه من المستحيل تخطيها، هَمَ جورج يتحرك بعيدًا عنها، يبحث عن طريقة أخرى للهروب، سيكون عن طريق تخطي السور الخاص بالمدينة، السور مرتفع إلى حد ما، لن يكون تخطيه بالأمر السهل لكن عليه في البداية اختيار المكان المناسب، مضى يبحث بعينيه وهو يتحرك حول السور متخفيًا ومستترًا خلف الأشياء حتى وجد ضالته، هذا المكان مناسب، اقترب من السور فاكتشف أنه سيحتاج إلى الصعود على شيء حتى يدركه، بحث بعينيه فوجد دلوا مُلقى بإهمال، ركض تجاهه وأمسك به ووضعه على الأرض بحيث تكون فتحته مواجهة للأرض، صعد عليه ولم يُدرك نهاية السور، عليه القفز قليلاً، استجمع قواه وراح يقفز ليصل إليه، نجح الأمر بعد ثلاث محاولات، وصل إلى السور وهو يحاول أن يقنع عقله أنه سيستطيع فعلها وهو بصحبة زوجته وأطفاله، أستند بيديه على السور وصعد بنصف جسده العلوي ليلق نظرة على المكان بالخارج، كان الظلام دامسا والسكون يعم المكان الكثيف والمليء بالأشجار التي تتحرك أوراقها على نسمات الهواء التي تداعبها، شعر بشيء قد فزع حينما استمع إلى صوت صعود جورج ففر داخل الأشجار، نظر جورج بعينيه إلى الخارج فاكتشف أن الوضع مقبض للغاية داخل تلك الغابة الكثيفة، لم ينتهِ من ذلك الافتراض حتى سمع صوت صراخ حيوان يُؤكل ثم زمجرة حيوان مفترس يُعلن انتصاره وحصوله على وجبة عشاء، أدرك جورج أنه من الصعب أن يجازف بحياة أسرته وسط تلك الغابات المجهولة، عاد مرة أخرى إلى الأرض وهو يحاول البحث عن طريقة أخرى بعيدًا عن السور والبوابة، السكون الرهيب مكنه من الاستماع إلى حشرجة موتور سيارة تتحرك فأدرك أنها سيارات مراقبة، لو أمسكوا به

فسيكون الوضع سيئا، هو يقف في منطقة شبه فارغة والاختباء فيها سيكون صعبًا، عليه التحرك سريعًا تجاه أي منطقة بها مباني ليستتر خلفها، انحنى بجسده وشرع في الركض إلى أقرب منطقة بها منازل، ظل يركض وهو يستمع إلى أكثر من حشرجة موتور إلى أن وصل إلى أقرب منطقة له، لكن في الوقت نفسه كان صوت السيارة قريبا أيضًا منه فكان عليه أن يختبئ، توغل في الطرق وسط الظلام الذي يجعل الرؤية تتعذر ويختلط عليه الأمر فيدخل في طرق ملتوية ثم يكتشف أنها مسدودة فيضطر للعودة مرة أخرى ليكمل هروبه من طريق آخر، استمع إلى حشرجة الموتور وقد باتت قريبة جدًا منه، توترت أعصابه وحشر نفسه بثبات بالقرب من أحد المنازل، استند بظهره وصدره يعلو ويهبط بقوة، ضوء السيارة كان يضرب في المكان فأدرك أن السيارة باتت في المنطقة المليئة بالمنازل، ضوء السيارة يتزايد قبل أن تقف السيارة ويهبط منها شخص، أخبر زملاءه بصوتٍ مرتفع أنه سيجوب المكان لير هل الوضع مستقر أم لا، كان يمسك في يديه مصباحا يضيء به المكان، صعد الدم في رأس جورج وشعر أنه بات على شفا القبض عليه، عليه أن يتحرك بسرعة وبحرص حتى لا يصدر أي صوت، ما زاد من صعوبة الموقف أنه استمع إلى شخص آخر أراد أن ينضم إلى زميله، الموقف يزداد صعوبة، على جورج أن يتحرك بسرعة، هَمَ بسرعة البرق حتى تعثرت قدماه في الأرض وسقط فارتطم بمجموعة من الأخشاب كانت قد وضعت بالقرب من المنزل تمهيدًا لعمل صيانة فأصدرت صوتا مرتفعا تسلل إلى أذن المجموعة التي تقف بجوار السيارة فصاح أحدهم بأن هناك صوت، ركضوا جميعًا إلى الداخل، ارتفع وقع أقدامهم في الوقت الذي هَمَ فيه جورج بالركض بوضع القرفصاء وبخفة لا تصدر صوتا، لا يعلم إلى أي طريق يتجه لكنه الفرار، وصل الجميع إلى مكان الخشب فوجدوه قد تزحزح عن مكانه فارتفع صوت أحدهم يخبر الجميع بأن هناك من مر من هنا وهو لم يبتعد بالتأكيد عن تلك المنطقة، طالبهم آخر بأن ينتشروا في المكان وفي كل اتجاه حتى يضيقوا عليه المساحات وينكشف أمره، جورج كان يستمع إلى تلك الجمل التي تزيد من معدل التوتر وتجعل الأدرينالين يتضاعف بشكل كبير جدًا، ظل يتجه إلى حيث لا

يعلم حتى وجد نفسه بالقرب من باب له مقبض من الخارج، في المدينة هذه الأبواب صنعت خصيصًا من أجل المعاقين غير القادرين على الترجل، حتى إذا أصاب أحدهم مكروه وهو وحيد يتمكن الناس من فتح الباب من الخارج، خطرت فكرة في رأسِه فقرر أن يستغل تلك الثغرة في صالحه وأن يدخل إلى ذلك المنزل يختبئ فيه حتى تمر العاصفة، مد يده إلى المقبض وراح يفتح الباب ببطء فاستجاب له، فتحه بهدوء بحيث لا يصدر صوتا يلفت الانتباه، اتسعت فرجته حتى تمكن من العبور، أغلق الباب بهدوء شديد، التقطت أذنه صوت وقع أقدام تقترب وتتعاظم حتى باتت أمام الباب مباشرةً زفر جورج وشعر أنه كاد أن يُكشف أمره، استمع إلى وقع أقدام مرة أخرى ولكن هذه المرة كان يأتي من داخل المنزل، تعجب جورج وظن أن هنا يعيش شخص عاجز فقط بسبب المقبض الموجود خارج المنزل لكن لا مجال للجدال الآن، هرع ودلف أسفل المنضدة الدائرية التي تتوسط صالة المنزل، قبع هناك أسفلها متكوما على نفسه وأصوات وقع الأقدام تتعالى حتى ظهرت أقدام سيدة تتحرك تجاه الباب، موقعه من أسفل المنضدة جعله يرى ساقها فقط، إنها سيدة ترتدي شيئا أشبه بفستان، وصلت إلى باب المنزل لكنها لم تفتحه، حركه شغفه ليلق نظرة ليُدرك ماذا تفعل فضربته صاعقة أخرى لا تقل قوة عن تلك الصواعق التي تضرب رأسه بلا هوادة، إنها إليزابيث تلك السيدة العاجزة التي كانت زوجته تدفعها على الكرسي المُتحرك، إنها تتحرك وتستطيع المشي!!شحب لونه وشعر بذلك التنميل الذي غزا رأسه وجسده، اتسعت عيناه واحتل الذهول كل ركن في وجهِه حتى أنه تيبس مكانه ولم يتحرك من هول المفاجأة، فقط ظل ينظر إليها وهي تتحرك وتتهادى في مشيتها البطيئة الخفيفة تحاول أن ترى ما يحدث في الخارج، جورج بات في حالة لا توصف من الصدمة، تحرك معها بعينيه حتى اختفت عن الأنظار في الداخل ولا يزال هناك صوت يتصاعد، عادت مرة أخرى وهي تجر الكرسي المُتحرك ووضعته أمام باب المنزل ثم جلست عليه كأنها عاجزة غير قادرة على الحركة ثم تحركت به وشرعت في

فتح الباب وخرجت تنظر لما يحدث في الخارج، موقع جورج جعله يشاهد كل شيء بعينيه، ربما لو كان أخبره أحد بما حدث لشكك في الأمر!!

انتظر جورج حتى هدأت الأجواء بالكامل وعادت هي إلى الداخل، لم يعد يستمع إلى وقع الأقدام فطفق بالخروج عائدًا إلى منزله، كان يتحرك كأنه آلي فإذا نظرت إليه لا تظن أنه بشري يتحرك من فرط الحالة التي تسيطر عليه، عقله يبحث عن سبب لما رآه، لماذا تدعي إليزابيث أنها عاجزة في حين أنها غير ذلك!!تماوجت الظنون في رأس جورج وشعر بالخوف الشديد على زوجته لأنها بالقرب منها دائمًا، أمواج هائجة من التوتر والقلق تضرب كوحش مجنون لا يهدأ بداخله حينما تشابكت الخيوط بعقله بين الزنجي الذي كان ينظر لها بشهوة وتلك السيدة التي تدعي أنها عاجزة، تأكد بما لا يحتمل الشك أنهم يحفرون فخا لزوجته، لا يدرك هل يخبرها حتى تأخذ حذرها أم يظل يكتم ذلك في صدره حتى لا تتوتر أعصابها ويكشف أمرها، وجد جورج نفسه قد سقط أسفل وابل من المشاعر والضغوطات المختلفة التي ينوء بحملها، توصل إلى أنه لا بديل عن ترك المدينة ولا بديل عن المغادرة، لكن لابد أن تكون على علم وتتم بحكمة شديدة حتى إذا كُشف أمرهم لا يتعرضون لما هو أسوأ من ذلك.

وصل جورج إلى المنزل فوجد زوجته كما هي تغط بالنوم، نظر إليها وزفر ثم شرع بالبكاء فقد ضاق صدره بما يحمل وأصبح غير قادر على التحمل لكن لا سبيل سوى ذلك حتى يجد الخطة المناسبة، الإرهاق والصدمة قد وصل كل منهما إلى الحد الأقصى لهما فلم يستطع جورج المقاومة لأكثر من دقائق معدودة حتى غرق في النوم الذي لم يخل من الكوابيس حتى الصباح.

- 13 -

" أبنائي الأحباب،إنه يوم جديد، مُشرق، وهبنا الرب إياه، علينا أن نستيقظ جميعًا ولا نترك أنفسنا للكسل والنصب، الرخاوة لا تمسك صيدًا أمَّا ثروة الإنسان الكريمة فهي الاجتهاد، الاجتهاد في كل شيء بداية من النهوض من السرير وحتى العودة إليه في نهاية اليوم من أجل إعمار جنتكم، جنة عدن التي وهبنا الرب إياها، يجب أن نتحلى بتلك الصفات التي وصانا بها الأب سان بول (غير متكاسلين في الاجتهاد، حارين في الروح، عابدين الرب) هنا في جنة عدن يمكنكم تربية أبناءكم بعيدا عن الظلم وبعيدا عن العنصرية التي أكلت العالم الخارجي وحولته إلى رماد وهباءً منثورًا، في الخارج، العالم تحول إلى جحيم، لذلك منعت عنكم متابعة الأخبار والاستماع إلى الراديو والتلفاز حتى لا تصابوا بالإحباط واليأس، لكن قريبًا سيصل رسلنا من هناك ليحكوا لنا عن أبشع ما شاهدوه، انهضوا واجعلوا أولادكم يذهبون للمدارس التي أُعدت خصيصًا لهم بعيدًا عن التعليم المؤدلج الذي يغزو العالم ويشوه أطفاله، قضيتم جميعًا حياتكم في الخارج تدرسون ذلك التعليم، وكانت النتيجة أنكم كنتم تحيون في مجتمع لا يعرف شيئا عن الحب أو عن الإنسانية، عالم لم يتقبلكم ويتقبل اختلافكم، لم يفعل التعليم شيئا في إصلاح ذلك، لكن التعليم الذي وضعته لأبنائكم سيعلمهم كيف يتعاملون مع المختلف عنهم، سيعلمهم ألا ينبذوا أحدًا ولا يظلموا أحدًا ولا يأخذوا من العنصرية الفكرية سبيلاً لهم، هنا كل شيء جيد ومختلف عن العالم الخارجي، هنا مدينة الأب جونز الذي وهبنا الرب إياها، لكن علينا أن نكون على هذا القدر من المسئولية وألا نتهاون حتى لا تضيع منا وتعودوا مرة أخرى إلى

الولايات المتحدة العنصرية فيستضعفكم أصحاب البشرة البيضاء ويجعلون منكم عبيدًا لهم تخدمون مصالحهم، تمسكوا بجنتكم، تمسكوا بها ولا تبتعدوا عن طاعتي فتهلكوا، هيا فليأتِ الجميع لتناول وجبة الإفطار".

هذا كان الخطاب الذي ألقاه الأب جونز على الجميع في صباح اليوم التالي ليستيقظوا جميعًا، هو يلقي عليهم خطابًا كل حين، لا يمر يوم من دون أن يستمعوا إلى خمسة خطابات على أقل تقدير، نهض الجميع وبدءوا يتحركون تجاه قاعة تناول الطعام، حاول جورج أن يظهر عاديًا من دون أي تأثير لما شاهده البارحة، فضل أيضًا ألا يخبر زوجته بشيء وأن يظل ما حدث سرًا حتى يجد الوقت المناسب.

انتهى الطعام وأمر الأب جونز، وتحرك كل فرد إلى الشأن الذي يغنيه، تحرك أطفال جورج إلى المدرسة الخاصة بهم، هناك التعليم مقسم إلى مراحل أقل بكثير من التعليم الذي اعتاد العالم عليه وكان معظمه تعليمًا دينيًا بحتًا بالإضافة إلى بعض العلوم البسيطة التي لا فائدة منها حقيقية، جلست ابنة جورج بجوار أقرانها ينتظرن وصول المعلمة، هناك في الفصل الذي أُعد خصيصًا كانت هناك صورة كبيرة للأب جونز وهو يقف ويمد يديه بالكتاب المقدس أبيض اللون، الذي لا يفارقه كلما ظهر أو تحرك أمام الجميع، لا يمكن أن يتحرك إلا وهذا الكتاب يكون في صحبته , كان يحاول أن يُظهر في الصورة كمًا من البراءة والطهارة أمام الجميع، ابنة جورج لاحظت أن صديقتها التي تجلس بجوارها تنظر بثبات شديد نحو صورة الأب جونز، تنظر وقد اتسعت عيناها وتيبست عليها، سألتها ابنة جورج عن سر ذلك التيبس فأجابت بأنها تُمني النفس بأن تنجب طفلاً من الأب جونز وأنها تريد أن تتزوجه، واقع الكلمة كان قاسيا على مسامع ابنة جورج ولم تتقبله بالشكل العقلاني فبدا ذلك على وجهها، مما دفع تلك الفتاة الحالمة بأن تسألها هل هي لا تريد ذلك فكانت إجابة ابنة جورج بأنها بالفعل لا تريد ذلك، كانت إجابة غير متوقعة وغير مرضية لها فدفعتها لدفعها في كتفها ونهرها بأقذع الألفاظ، في الوقت الذي دلفت فيه المعلمة إلى الداخل فلم تنتظر الفتاة حتى أن تجلس ووقفت وأخبرت المعلمة بما حدث وأخبرتها بأنها مستاءة

من تلك الطريقة التي تحدثت بها عن الأب جونز، الأب الإله!!فما كان من المعلمة إلا أنها استدعت ابنة جورج وراحت توبخها أمام الجميع ثم طلبت منها أن تقف بالقرب من صورته كي تشعر بذنب ما فعلته، طلبت المعلمة من الجميع التصفيق لتلك الطالبة على الواشية.

- أبنائي التلاميذ، أريدكم أن تهنئوا زميلتكم المجتهدة التي نالت مكانة رفيعة عند الرب وعند الأب جونز أبانا المقدس، لأنها وشت بزميلة لكم قد تحدثت بشكلٍ غير لائق عن الأب جونز المقدس وهذا يعتبر خطأ فاضحا سوف تعاقب عليه، أريدكم أن تعلموا أن قداسة الأب جونز يجب ألاّ نتعامل معه إلا باحترام شديد جدًا وألا نذكره بشيء سيء حتى وإن وجدناه، نغض بصرنا عنه لأنه ليس مثلنا هو يتلقى تعليماته من الرب، إن جاء في يومٍ من الأيام وطلب من إحداكن أن يغتصبها فلا تعترض ولتدرك جيدًا أنه الخير لها، وأي اعتراض أو رفض سيعرضها للعقاب والهلاك، الطاعة العمياء، الطاعة العمياء هي الخلاص من كل شيء.

***

يجلس جورج في المخزن الذي يعمل به ينتظر وصول السيارة في منتصف النهار، عقله يفكر فيما رآه أمس، يفكر أيضًا فيما استمع إليه اليوم في الصباح، يتساءل لماذا يكرر الأب جونز تلك الكلمات عليهم ليل نهار!!لماذا يذكرهم في كل خطاب يلقيه عليهم بأنهم في الجنة وأنهم يجب أن يحافظوا عليها، يخبرهم دائمًا بأنهم إذا أهملوا في شيء فسوف يعودوا إلى أمريكا ليعيشوا في التفرقة العنصرية والعبودية من جديد، شعر جورج أنه يتعمد إخافتهم وأن يُشعرهم بالمن الذي يمنه عليهم، جورج لا يفهم تحديدًا ما يرمي إليه الأب جونز لكنه متأكد أنه ليس شيئا جيدا بعد كل ما رآه وسمعه بداخل تلك المدينة، لم ينته من تفسير تلك الأحداث والتصرفات الغريبة حتى تذكر المُساعد الزنجي وتلك المرآة التي تُدعى إليزابيث والتي هي بالتأكيد على صلة وطيدة بالأب جونز وإذا أرادوا بها ضرا فلا مانع لهم ولا رادع، كل هذه

الأحداث تتحرك داخل رأس جورج وهو يجلس في المخزن وحيدًا بصحبة الملل والرتابة والروتين الذي لا يكسر وحشته حتى الاستماع إلى الراديو، فتشعر أنك في زنزانة ولكنها داخل حديقة كبيرة، ملل يعطي البيئة المناسبة لعقله لتخيل كل السيناريوهات ذات النهايات الشنيعة والتي أدت إلى توتره الشديد وعدم القدرة على الجلوس بهذه الكيفية الهادئة، فهَمَ يقف ويتحرك داخل المكان ليُهدئ من الاضطراب الذي يجتاح كل شيء بداخله، حاول أن يُله نفسه بالعمل ليهرب بعيدًا عن تلك الأحاسيس التي تعتريه، حاول أن ينظف المكان ويعيد ترتيبه حتى يأت موعد السيارة لكنه لم يفلح، لم يستطع أن يتخلص من تلك الأحاسيس التي كلما تجمعت عليه يجزع، لا يوجد حل سوى الخروج من هذا المجتمع، ولن يستطيع إلا إذا وافق الأب جونز على ذلك، ظل جورج يفكر في طريقة العرض حتى لا يكون خروجًا عاديًا كهؤلاء الذين سبقوه، وضع يده على جبهته وظل يحركها كأنه يحلب أفكاره حتى استمع إلى صوت تلك الفكرة التي أتت من بعيد، استمع إليها بتريث، بل إنه أعطى لها المجال لتتضخم وتستفحل بداخلِه، بدت له مقنعة للغاية ومناسبة ولن تصيب بضرر إن تم رفضها، هب واقفًا وراح ينظر إلى الشمس فوجدها لم تنتصف في السماء وتصبح عمودية بعد على رأسِه،إذن فهناك وقت قبل أن تأتي السيارة، أغلق المخزن وذهب إلى مكتب الأب جونز.

كانت أقدامه ترتعش في البداية كأنها تخشى ذلك اللقاء لكن حاول أن يقضي على هذا بتشجيع نفسه عن طريق بعض الجمل والكلمات التي تعيد له توازنه مرة أخرى، يحاول أن يُذكر نفسه بأسرته وأنه الآن على موعد مع خلاصهما لكن حدث شيء قلب الأحداث رأسًا على عقب، مع اقترابه من المبنى ومن تلك الزاوية التي ظهر منها وجد زوجته تخرج من المبنى الذي فيه مكتب ومنزل الأب جونز وتدفع أمامها إليزابيث وهي جالسة على الكرسي المُتحرك وكان معهما اثنان من النساء اللاتي وصلن ضمن الوافدين الجُدد!!كانت إليزابيث تجلس على الكرسي المُتحرك باستسلام شديد ويبدو على وجهها الضيق والضجر الشديد، تدفعها زوجته وسيدة أخرى تربت على كتفها،

تحاول أن تهدئ من روعها، ازدادت حالة الارتباك بداخل جورج، خاصةً وأنه لا يعرف ماذا حدث هناك، ازاد إصراره في مقابلة الأب جونز فوثب في الاقتراب من المبنى حتى استوقفه أحد الحراس،وكانا اثنين من الزنوج مفتولي العضلات يقفان عند البوابة، أخبرهما جورج بأنه يريد مقابلة الأب جونز وحينما سألاه عن السبب أخبرهما أنها مسألة في غاية الأهمية تخص مدينة الأب جونز، لكنه فضل ألا يفصح عنها ليتحرك شغف الأب جونز ويسيل لُعابه ليتحدث إليه وقد حدث ما خطط له، رافقه أحد الحارسين إلى الداخل حتى مكتب الأب جونز والذي كان يوجد في الطابق العلوي من المبنى ، فتح الحارس الباب وطلب من جورج الانتظار في الداخل، بهدوء دلف جورج إلى الداخل، كانت مساحة المكتب كبيرة، أكبر من أي غرفة أو منزل داخل المدينة، في الواجهة مكتب خشبي كبير عُلقت فوقه صورة ملونة كبيرة تخص الأب جونز، يقف فيها مبتسمًا ويمد يده بالكتاب المُقدس الذي لا يفارقه أبدًا، أسفل الصورة كرسي وثير يتأرجح في حركة دائرية كاملة بأقل مجهود، يشعرك بالراحة بمجرد النظر إليه، بجواره خزنة حديدية كبيرة، تقبع بهدوء ورصانة تعكس ما تحتويه بداخلها من ملفات ومستندات في غاية الأهمية، المكتب يحتوي على كل شيء حُرِم على أفراد مجتمع جونز، يحتوي على هاتف وتلفاز وراديو، هناك أيضًا ظهر ذلك "الميكروفون" الذي يتحدث منه إلى الجميع عبر مكبرات الصوت، لا يعرف جورج لماذا شعر بأن هناك شيء غريب في تلك الخزنة يشد انتباهه، شعر أن بها سر أو ربما تحتوي على شيء ما نفيس أكثر من المال والذهب، اقترب منها وجلس أمامها القرفصاء، إنها خزنة حديدية لها مقبض يلتف على تروس لتحديد الرقم السري لفتحها، ظل يتفقدها بعينيه لكنه لم يُطل النظر خشية أن يدخل الأب جونز، عاد سريعًا إلى الكرسي الذي كان جالسا عليه، وما إن لامست مؤخرته المقعد حتى استمع إلى وقع أقدام ثم انفتح الباب على مصراعيه فجأة وظهر الأب جونز أمام جورج الذي إذا تأخر لثواني معدودة لانكشف أمره، دلف الأب جونز إلى الداخل بتلك الحركة البطيئة التي اعتاد التحرك بها أمام الجميع، كان يُمسك في يده الكتاب المُقدس الذي لا يفارقه أبدا ولا يظهر أمام أحد

من دونه، دلف وعيناه معلقة على جورج الذي شعر وللمرة الأولى بهيبة وحضور ذلك الرجل ذي الكاريزما الخاصة والإجلال الذي أجبر جورج على الوقوف لا إراديًا، لم يبتسم الأب جونز ولم تهش ملامحه لوهلة بل ظل ينظر في عين جورج بتيبس غريب ومقبض حتى بدأ جورج يبتعد بعينيه عنه وقد طأطأ رأسه في استسلام، فابتسم الأب جونز ثم خبط بيده بلطف على ظهرِه قبل أن يجلس على كرسيه الوثير، ينظر إليه بثبات والكتاب المُقدس في يده لم يتركه بعد، طلب منه أن يُسمعه ذلك الأمر الهام الذي يخص مدينة جونز، ابتلع جورج ريقه وقلبه يوشك أن يثب من فمِه.

- أنا انضممت إلى مدينة جونز منذُ ثلاثة أيام، واستطعت في خلال تلك الفترة القليلة أن أعرف لماذا كان يلح علي أصدقائي بأن آتي إلى هنا، وأدركت لماذا كانوا يصفون المكان هنا بجنة عدن، هنا شيء كبير أكبر من احتياج أي شخص في العالم، هنا الحاضر والمستقبل، أي شخص في العالم يتمنى أن يكون جزءً من هذا المكان، لقد عدت إلى صوابي عندما قررت في الماضي عدم التعامل مع الناس، هنا الجنة وأنت من صنعها، أنت رائع وعظيم أيها الأب جونز.

هشّ وجه الأب وابتسم بهدوء يحفظ هيبته، وأومأ برأسِه قليلاً.

- هذا جيد، جيد للغاية، ولكني لم أر في ذلك أمرا في غاية الأهمية يستدعى مجيئك إلى هنا، كان من الممكن أن تقول ذلك في الاجتماع وسط إخوتك.

- أنا لم أخبرك بما قد أتيت من أجلِه بعد، أنا لم آتي لألقي عليك بعض كلمات الإطراء وأنصرف، أنا أريد أن أرد على معروفك بشكلٍ عملي، أنت لا تعلم ما قد مررت به في الولايات المتحدة من ظلم وعنصرية، ولولاك لبقينا في العذاب المُهين.

- ماذا تريد أن تفعل؟؟

- حينما وصلنا إلى هنا أخذوا منا كل ما نملك من مال وبطاقات هوية، وكنت لا أدرك السبب وكيف لنا أن نحيا بدون مال ثم اكتشفت أنها الجنة، نحن هنا لا نحتاج إلى مال، نحن نعيش ونحيا من دون مال ولكن في الوقت نفسه أنتم تنفقون الأموال

على البذور والحصاد والكهرباء وشراء كل المستلزمات، وأنا أريد أن أشارك في تلك المنظومة لأن المال الذي أُخذ مني زهيد لا يُغني ولا يُسمن من جوع، أريد المشاركة بأموال حقيقية، فأنا قادر على العطاء.

جورج اندمج في الحديث، فراحت يداه وأقدامه تتحرك بمبالغة لإقناع الأب جونز الذي ظل ينظر إليه بثبات دون حِراك حتى انتهى فسأله هل يمتلك المال الكثير فأجاب جورج بلهفة وبسرعة كأنه لا يريد لأحد أن يسبقه بالرد.

- نعم، لدي الكثير والكثير، لو وضع المال الذي بحوزتي على سطح المكتب هنا لغطاه بالكامل.

- ولماذا تركت كل هذا المال خلفك وأنت تأتي إلى هنا؟

- أنا لم أتركه، المال كما هو، فقط كنت أود أن تظهر معالم حياتي الجديدة، وقد ظهرت في وقتٍ قصير، لذلك سأعود إلى هناك وأبيع المنزل وآتي بالأموال إلى هنا، فأنا لست في حاجة إليه الآن، أنا في الجنة.

- أنت رجل صالح، نعم رجل صالح، ليت كل الوافدين الجُدد مثلك.

- هذه شهادة عظيمة أيها الأب العظيم.

ابتسم له ولم يعط أي رد آخر، شعر جورج أنه قد اجتاز نصف المسافة فيما قد خطط له، الآن هو يريد الإذن بالرحيل وسبب مقنع لوجود زوجته معه.

- ماذا تريد تحديدًا يا...، ما هو اسمك؟؟

- جورج،اسمي جورج، وقد أخبروني أنني لا يحق لي فعل أي شيء هنا إلا بإذن منك، وأنا ألتزم بقوانين المكان، لذلك أريد أن تعط لي الإذن بالرحيل أنا وأسرتي لأبيع المنزل وأعود إليك بالمال، المنزل ملك لي ولزوجتي ويجب أن تحضر بيعه ليكون قانونيًا.

- هذا أمر بسيط، لا مانع بأن تذهب أنت وزوجتك وتعودا لنا بالمال الذي نحتاجه ثم سنقيم لكما حفلاً صاخبًا حين تعودان إلى هنا.

شعر جورج بالسعادة البالغة وأنه قد نجح في وضع خطة محكمة للهروب وقام بتنفيذها، لكن باغته الأب جونز بسؤاله هل يملك أطفالا فأخبره جورج بالحقيقة فأردف الأب بأن الأطفال لن تخرج من هنا بحجة أن لا حاجة لهم معهما ولا طاقة لهم بالسفر، كان الأمر مفاجأة بالنسبة لجورج خاصةً أنه لم يتوقع ذلك، بدا أمام الأب جونز مخطوف اللون شارد الذهن يفكر في إيجاد حل للخروج من هذا المطب الذي وقع فيه، ظل الأب جونز ينظر إليه ويدقق النظر وجورج صامت تمامًا كتمثال من رخام، حتى سأله الأب جونز عن سبب ذلك.

- كيف لي أن أترك أطفالي!!؟

- أنت تتركهم في الجنة، أليس هذا المكان هو الجنة وأنه أفضل مكان للعيش كما أخبرتني، أم كنت تدعي ذلك؟

قالها بخبث شديد فلم يكن جورج يمتلك أي ردة فعل سوى الصمت والسكوت فأردف الأب جونز.

- ألا تثق بنا!!؟

- لا، أنا أثق بكم وبمجتمعكم هذا.

- إذن فلتترك أطفالك في رعايتنا حتى تعود إليهم، هذا هو الحل الأمثل إن كنت تريد حقًا العودة ولا تحمل بداخلك نية مبيتة بترك المكان.

- لا لا لا من أخبرك بهذا!!؟

- ردود أفعالك هي من أخبرني.

- لا، هذا تفسير خاطئ.

ابتسم الأب جونز ابتسامة بسيطة قبل أن يترك مكانه واقفًا وفي يده الكتاب المُقدس،

ترجل بهدوء حتى وصل إلى جورج الذي يجلس أمامه، وضع يديه على كتفه فراح جورج ينظر إليه في خيفة قبل أن يجلس على الكرسي المقابل له، ويرفع الكتاب المُقدس في وجهه.

- هل لاحظت منذُ قدومك إلى هنا أنني لم أترك ذلك الكتاب قط من يدي؟

- نعم لاحظت ذلك.

- هل سألت نفسك عن السبب وراء ذلك؟

- في الحقيقة لا.

- أنا متأكد من ذلك، ومتأكد أيضًا أن لا أحد لاحظ ذلك، لكني سأخبرك بسرٍ هام سيجعل عقلك يفكر بشكلٍ مختلف، أنا أتمسك بالكتاب المقدس لأنه يحتوي على قوانين الرب التي سنها لنا في هذه الدنيا إن أردنا أن نحيا حياة جيدة، أتمسك به دائمًا لأنني اكتشفت أن الضياع يكمن في الابتعاد عنه وعن تلك القوانين التي تنظم الحياة، منذُ فترة، تحديدًا حينما وصلنا إلى هنا، أردت أن أبتعد قليلاً عن قواعده وعن قواعد الرب وقوانينه فأمرت الناس بممارسة الزنا وقتما شعروا بالشهوة، الأمر أعجب الكثيرين والكثيرين، ولقد رأيت سعادة في وجوههم لم ألقها من قبل، ولكن كان يكمن في ذلك خطر شديد لم نشعر به وهو يتسلل إلينا، بعد فترة من الزمن اكتشفت أن لدي عدد من الأبناء مجهولي الأب، حتى أن الأم لم تتذكر من أي رجل حملت، فأوقفت الأمر فورًا ومنعت الزنا، ثم تذكرت أنه ممنوع في الأصل في الكتاب المُقدس، ولو كنت التزمت به لما عانيت هذه المعاناة الشديدة، أنت أيضًا يا جورج يجب أن تحترم القوانين وتحترم قواعد المكان التي وضعها الرب وكتابه المقدس حتى لا تهلك، ولا تخترع حُجة وهمية من أجل ترك المكان، نحن لسنا بحاجة لأموالك، نحن بحاجة إليك أنت وأسرتك، أمَّا المال فهو مهمتنا نحن.

بُهت جورج ولم يعُد قادر على الرد أو الكلام!!تصارع في ذهنه كلام الأب جونز ووضعه تحت طاقة هائلة من الضغط، حاول إنكار ذلك وإثبات أنه ينتمي إلى هنا

ولا ينوي الرحيل وأن كل هذه الافتراضات وهمية، ابتسم الأب جونز ابتسامة خفيفة صفراء وبدأ يداعب ما تبقى له من أعصاب ويخبره أنه يشعر بجسدِه يرتعش و يهتز كأنه مُصاب بنوبة برد شديدة أو ما شابه.

- إذا سمحت لك بالخروج من هنا أنت وأبنائك وزوجتك، كيف ستتعامل مع الشريِف وجريمة القتل التي أنت متهم بها.

لو كانت للصدمة هيئة لما كانت أوضح من تلك التي ارتسمت على وجه جورج وهو ينظر إلى الأب جونز، يريد أن يسأله كيف علم ذلك، لكن الخبرة التي يتمتع بها جعلته يرى هذا السؤال في عين جورج فأجابه.

- أنت من أخبرنا بذلك، لقد تحدثت مع مساعدي في الاستقبال بكل شيء وهذه الوثائق تعرض علي، أنت من أعطيت لنا الطُعم الذي نصطادك به علاوة على أنك شخص كاذب، مُضلل وهذا كان واضحًا في لغة جسدك منذُ أن شرعت بالحديث عن الجنة، المشكلة التي يواجهها الإنسان أن الكثير من الكلام الذي يخبر به من حوله يكون غير حقيقيٍ، هذه الحقيقة التي أدركتها مؤخرًا منذُ أن أذن لي الرب برؤية الناس من الداخل، أنا لا أستمع إلى الناس يا جورج بقدر ما أنظر في قلوبهم، وأنت تمتلك قلبا خائفا يرتعش ورأس تمتلئ بالكثير من الهواجس الخاطئة، هنا أنت حقًا في الجنة كما أدعيت ولكن عليك أن تكون على يقين بذلك، أنا لا أريدك أن تُردد الكلمات دون أن تقتنع بها، أعط نفسك الفرصة لاكتشاف الأمر والمكان، يجب أن تؤمن بأن الرب صنع لنا جنتنا على الأرض وجعلني أمثل مبدأً إلهيًا هو المساواة الكاملة، العالم في الخارج يحترق، العنصرية وصلت إلى أقصى مدى لها، الظلم والجوع يأكل الجميع، هنا الوضع مختلف، مختلف للغاية يا جورج حيث لا وجود للفقراء والأغنياء ولا وجود للأعراق، هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه كل شيء، لذلك هناك مكافأة لمن يحافظ عليه.

احتد وجهه وبدا أكثر جدية وقوة.

- وعقاب رادع لمن يخالفه، من أراد الخطيئة فليأتِ إلى هنا ليطلبها مني وأنا أسأل الرب، إن وافق فله فعلها وإن رفض فليس له أن يفعلها، هنا أنا من يحدد كل شيء، هنا أنا همزة الوصل بينكم وبين الرب، هنا لا يحق لأحد الاعتراض.

- ولكن هذا الأمر مخالف للكتاب المقدس أيها الأب!!

- هذا للبشر العاديين أمَّا أنا فيختلف الأمر معي.

- ولماذا لا يختلف معنا!!

- هل تتحدث مع الرب؟؟

- لا.

- إذن استمع إلى الذي يتحدث معه، ومهما يقل لك من شيء يجب أن تطيعه حتى لا تقع في ذنبٍ وكفرٍ لا يغتفر، هذا النقاش يود الكثيرون أن يتحدثوا معي حوله، ولكني فضلتك على العالمين، ولكن لكل تفضيل عقاب مُهين إذا أخطأ صاحبه، هذه هي المرة الأخيرة التي تتحدث معي فيها حول ذلك الشيء، لا أريد منك أن تتحدث معي أو مع غيري عن الرحيل عن مدينة جونز وإلا سأذيقك ما لن تستطيع عليه صبرًا، هنا لا شيء سوى الطاعة العمياء، هنا لا مجال للأحاديث الجانبية، هنا لا حديث عن ترك جنة عدن، لا أريدك أن تأتي إلى هنا إلا إذا أردت ارتكاب خطيئة، ولا تظن أننا نترك الأمر هباءً، نحن نستطيع أن نقيم كل شخص في مجتمعنا لنعرف من هم اللذين يستحقون الخدمات الممتازة ومن هم الذين لا يستحقون، هذا التقييم ناتج عن عدة أشياء، هل يتكلم في الخباء!!هل يتحدث مع أحد من أقرانه عن سلبيات!!هل يفعل الخطايا والذنوب دون علمنا، هل يتستر على أحد يفعل الخطيئة، كلها تقييمات ودرجات يكتسبها من أجل أن يصبح شخصا يستحق التمييز، عليك أن تصبح مميزا يا جورج إذا أردت أن تحيا هنا حياة كريمة.

شعر جورج أن اللقاء لن يسفر عن شيء سوى أن تسوء الأمور أكثر لو اعترض، ظل يهز رأسه ويوافق على كل كلمة تُقال له حتى انتهى الأب جونز من حديثه، أيقن

أن مدينة جونز ما هي إلا فخ كبير، كلما تأخر في الرحيل عنه كلما انغرز فيه أكثر، توصل جورج بما لا يحتمل الشك أن عليه مغادرة المدينة في أسرع وقت، عاد إلى عمله واستمر اليوم على تلك الشاكلة البطيئة المملة وهو صيد سهل وفريسة للقلق والتوتر والعذاب الذي ظل ينخر فيه حتى إنذار الانصراف في الليل، انطلق جورج إلى المنزل حيث أنه لا يوجد اجتماع اليوم، عقله بات يعمل بكل قوته من أجل البحث عن حل لهذه الأزمة، وصل إلى المنزل وكان يريد أن يعرف ماذا كانت تفعل زوجته في مكتب الأب جونز بصحبة إليزابيث، انتظر حتى خلد الأطفال إلى النوم وقد استمع من ابنته لما حدث معها في المدرسة،ووجد أن الأم نهتها عن فعل ذلك وبدأت تخبرها بأن تتوقف عن التهكم على الأب جونز لأنه هو مُخلصهم ومنجيهم، كان الرد غير مقنع بالنسبة للبنت فراحت تخبرها ثانيةً بأمر الاغتصاب الذي تحدثت عنه معلمتهم فأخبرتها أنه مجرد تمثيل تشبيهي ليس أكثر، جورج ينظر إلى زوجته وقد اغتم بكلامها وشعر أن تلك الأفكار الأخطبوطية قد بدأت تتمكن منها وتؤثر عليها، أسر ذلك في نفسه وانتظر حتى خلد الأطفال للنوم ثم دنا من زوجته التي كانت تستعد للنوم وبدأ يسألها عن يومها كيف كان، هذا هو السؤال القريب إلى أي أنثى مهما كانت جنسيتها، بدأت تشعر بالسعادة وتبتسم قبل أن تَهم بالحديث والكلام عما حدث معها، وجورج يهز رأسه ولا يتدخل في الحديث حتى ذهبت به إلى المنطقة التي يريد سماعها، أخبرته بأنها ذهبت إلى الأب جونز واثنتان من الوافدات الجُدد بصحبة إليزابيث ليطلبوا منه ويترجوه أن يطلب من الرب شفاءها، انعقد حاجب جورج وشرع يخبرها أنه رآها وهي تتحرك على أقدامها لكن فضل الصمت في آخر لحظة وأصر على عدم البوح بذلك السر حتى يأتي موعده المناسب، فهو على يقين بأنها لن تقتنع الآن بأي شيء كونها مولعة بشخصية الأب جونز.

- وبماذا أخبرها؟؟

- أخبرها أن تقييمها لم يسمح بذلك الآن وأن عليها المزيد من الطاعة له وللمدينة حتى ترتقي ويصبح قادرًا على سؤال الرب عنها.

- وبماذا أجابته؟؟

- حاولت في البداية الإنكار ثم الجذع لكنه كان صارمًا معها وأخبرها بأنها لن تنال أي شيء من دون الطاعة العمياء ثم نظر إلينا وأخبرنا بالشيء نفسه ثم طلب منا أن نخبر الجميع بما حدث اليوم حتى يعلموا أن الخلاص هنا في الطاعة والقداسة له.

- وهل فعلت ذلك؟

- نعم أنا أريد أن أنال البر وتلك الدرجات الرفيعة، حتى إذا كانت لدي مسألة أجابني من دون شك، والآن أنا أريد أن أنام،فغدًا يوم شاق.

أنهت كلامها وغاصت في السرير، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى ذهبت في النوم وتركت جورج وحيدًا مع تلك الهواجس والأفكار السيئة التي تأكل فيه دون رحمة.

- 14 -

مرت سبع ليالٍ سوية ولم يحدث أي شيء سوى تلك الأحداث الروتينية اليومية المتعاقبة، لم يشرع جورج في اقتراف أي شيء لأنه أدرك أن الأب جونز سيضعه تحت المجهر عن طريق أحد حراسه ليراقب تصرفاته بعد تلك المقابلة ليقرر ماذا عليه أن يفعل معه، جورج ظن هذا الظن وتصرف على أنه أمر واقعي فالتزم الصمت والهدوء التام، لكن لم يتوقف عقله لحظة عن التفكير في الهروب من هذه القرية، كان قد استأذن الأب جونز في أن يصطحب كتابا معه من المكتبة ليقرأ فيه طوال فترة تواجده داخل المخزن فسمح له بذلك، ذهب إلى المكتبة المتواضعة، وكان هناك عدد بسيط من الكتب والروايات لكنها كانت كتب وروايات تختلف عن تلك الكتب التي توجد في العالم الخارجي، مؤلفون لم يسمع عنهم يكتبون في مجالات وتاريخ لم يقرأه أحد من قبل، معلومات معظمها مغالط لما هو متعارف عليه حتى في التاريخ!!استعار جورج رواية وذهب بها إلى مكان عمله، جلس داخل المخزن وبدأ يقرأ فيها، وها قد وصل إلى منتصفها ولم يفهم ما المراد منها، كانت حبكتها ضعيفة خالية من أي شيء جمالي وكانت خاوية من أي فكر أو عمق حتى أنها افتقرت إلى التسلية التي بمثابة الهدف الأسمى للرواية، لم يُكملها وأعادها إلى المكتبة، أخبر القائمة عليها هناك بأنه لم يشعر أنه يقرأ عملا أدبيا ولم يشعر أنه يقرأ من الأساس بسبب هذا العمل الرديء!!، الغريب أنه وجدها تثني على العمل وتخبره أنه أفضل ما لديهم وأن هذا الكاتب المغمور قد تفوق على الجميع!!كان الرد صادمًا لجورج بالحد الذي جعله لا يجد ما يقول!!هذا هو الأفضل!!بكل هذه السطحية والضعف!!كان هذا ما يدور في خاطرِه

لكنه لم يفصح عنه، لم يفعل سوى أنه طلب رواية أخرى، أخذها وانصرف، حينما قرأ فيها اكتشف أنها أسوأ من تلك التي لم يُكملها!!لم تخدعه الفتاة القائمة على المكتبة حينما أخبرته بأن العمل الذي كان بحوزته كان الأفضل، حاول جورج أن يجد رواية أخرى لكن وجد أن الجميع على نفس الشاكلة، مترهلة وضعيفة بالحد الذي جعله يبتعد عن القراءة من الأساس!!حينما وجد أن كل المعروض لا يرتقى إلى مستوى القراءة!!، حتى الكتب الوثائقية والتاريخية والعلمية كانت خاوية من أي معرفة وقد كتبت بطريقة تشعر أن كاتبها تعمد ألا تُكمل قراءتها مما دفعه للابتعاد عن القراءة من الأساس واستسلم إلى ذلك الملل الرهيب حتى أعلن الأب جونز أن مساء اليوم في تمام الساعة السابعة سوف تقدم فرقة التمثيل مسرحية للمدينة، وعلى جميع أفراد المجتمع الحضور إلى المسرح المكشوف لمشاهدة العرض وتشجيع الفريق، نزل هذا الأمر على جورج بردًا وسلامًا، تحفز للحضور وشعر أن هذا العرض سيُخرجه من حالة الملل التي يعيش فيها، علاوة على أنه يحب المسرح ويقدسه ويعلم تأثيره الشديد على حياة الفرد، المسرح يحل الكثير من المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع، فهو يكشف الغطاء عنها ويقدم للناس الحلول المباشرة وغير المباشرة، يُعد فن المسرح نوعًا من التسلية والترفيه عن النفس علاوة على التوعية وفتح آفاق جديدة وتوسيع الأفق والرؤية ووجهات النظر، يؤمن العالم بدور المسرح ويُكرر بشكل دائم "أعطني خبزًا ومسرحًا أعطيك شعبًا مثقفًا"، وقد جُمع بين الخبز والفن لأن المعدة الفارغة لا تتقبل أي شيء من الأساس!!حل المساء وقد تجمع كل أفراد المجتمع كما أمرهم الأب جونز، جلسوا في أماكنهم ينتظرون بدء العرض، تجمع جورج وعائلته وجلسوا أيضًا في انتظار بدء المسرحية، كان الوقت ملول بالنسبة له فأخذ يتحدث مع أبناءه عن قيمة المسرح وأنه كان يتسلل في صغره إلى المسرح الذي كان يقام بشكل دوري ليشاهد المسرحيات التي تُجسد على خشبته، مسرحيات تحمل كما كبيرا من المعاني، كـ "عُطيل، والملك لير" وغيرها من الروايات العميقة التي تحمل معانٍ كثيرة في باطنها، كان جورج منسجما في الحديث معهم ولكنه لاحظ أن ابنه الأصغر مهموما، يحمل

بداخلِه ما جعل ملامحه تنقبض بتلك الطريقة الملحوظة، جورج لا يعلم ما يحدث لكنه فضل ألا يتحدث إليه الآن حتى تكون هناك زاوية مناسبة للاقتحام، هنا لن يبوح ابنه بشيء!!!، هدأت الأنوار وبدأ العرض المسرحي بالتجسد، كان عرضًا تافهًا خاويا من أي معنى أو من أي عمق، كانت قصة خاوية من كافة المقومات التي تساعدها على الظهور، قصة لا تقدم أي شيء سوى الملل!!حتى الكوميديا التي كان يقدمها كوميديا ضعيفة لا تنتزع الضحكات ولا تُخرج أحدا من محنته، كان عرضًا مثله كمثل الروايات التي قرأها يبتعد كل البعد عن المعاني الأساسية والأهداف الخاصة به!!استمر ذلك العرض السمج في بث سخافته حتى انتهى، انبعجت ملامح جورج وأفراد أسرته على أثر ما شاهدوا، كانوا جميعًا قد أجمعوا على أنه عمل لا يرتقى بالفن، لكن ما وجدوه غريبًا هو أن عددا من العائلات كانوا منسجمين جدًا مع العرض، بل إنهم اتحدوا معه وراحوا يضحكون دون توقف!!لم تتوقف الدهشة عند هذا الحد بل إنهم كانوا يقسمون بأن هذا العمل رائع وجميل وأنهم في انتظار المزيد والمزيد من نفس الشاكلة والأعمال الجيدة!!ما يحدث أمامه الآن لا ينُمُ إلا على شيء واحد فقط هو انحدار الذوق العام لأفراد المجتمع القدامى، أمَّا الوافدين الجُدد فلم ينسجموا معه، من المعروف أن الفن يؤثر كثيرًا في وعي الأفراد وينعكس على تهذيب سلوكهم، ما شاهده جورج اليوم وقرأه سلفًا يضع علامات استفهام كبيرة أمامه ويجعله يتأكد من أن ما يحدث ليس صدفة، هناك شيء ما وراء ذلك!!انتهى العرض وعادوا جميعًا إلى منازلهم وجورج لم يتوقف لحظة عن التفكير فيما وجده أمامه اليوم، يحاول تفسير ذلك، هل حقًا لا يوجد نصوص جيدة للعرض أم أن الفقر الأدبي والعلمي لما وجده في المكتبة اليوم هو السبب الرئيسي لانحدار الفن على تلك الشاكلة التافهة، سرح بعقلِه وأخذ يُفكر في الروايات والكتب التي تحمل أسماء مجهولة وبعضها لا يحمل أسماء ،كتب بها مغالطات لا تغتفر!!، لا يعلم لماذا ذهب ذهنه إلى المواد الدراسية التي يدرسها أبناءه في المدرسة، أراد أن يلقِ نظرة على ذلك الطعام الذي تأكل منه عقولهم كل يوم ليُدرك على أي شاكلة يتشكل وعيهم، خاصةً

بعد ذلك الموقف الغريب الذي قد قصته ابنته عليهم سلفًا، نظر إلى زوجته فوجدها تغط في النوم، بهدوء بدأ يتحرك من جوارها، نهض من الفراش، ألقى نظرة عليها، بعدها تركها وترجل إلى حيث غرفة أولاده فوجدهما يتجولان في أحلامهما، بحث بعينيه عن الحقيبة التي يأخذونها فوجدها قابعة هناك، بهدوء دلف إلى الغرفة وأخذ إحداهما والتي كانت تخص ابنه الأصغر وخرج بها إلى الصالة، جلس أسفل النافذة التي يتسلل من خلال زجاجها ضوء بسيط من القمر وبعض الإضاءة الخارجية، جلس على الأرض وفضل ألا يضيء الإنارة حتى لا يلفت الانتباه، فتح الحقيبة ومد يده الضريرة وأخذ يقلب في الكتب التي بداخلها ثم أخرج كتابا صغيرا مطبوعا، لم يكن يملك اسما مُحددا بل إنه طبع عليه من الخارج صورة للأب جونز وهو يمسك بالكتاب المُقدس ويمد يده به فيشعر من يُمسك بالكتاب أنه يعطيه له، كُتب أسفل الصورة قداسة الآب جونز، الاسم كان صادمًا للحد الذي دفع جورج ليفتح الكتاب بسرعة لتسقط عيناه على الصفحة الأولى والتي بها تحذير شديد بألا يصطحب أي طالب هذا الكتاب إلى المنزل أو يخبر به أحدا وإلا تعرض للعقاب!!كانت تلك الكلمات عنيفة بالحد الذي جعل عيني جورج تتسعان ويفكر في الأمر، هل لهذا السبب كان مهمومًا!!نظر تجاه الغرفة الخاصة بهما وظل يُفكر لثواني قبل أن يعود للقراءة مرة أخرى، يفكر كيف اصطحب ابنه هذا الكتاب وهو يملك ذلك التحذير! هل كانت صدفة أم كان أمرًا مقصودًا، بدأ يتصفحه سريعًا ليدرك ما يحتويه فوقعت عيناه على صفحة تقع في الربع الأول من الكتاب، صفحة بها عدد من السطور بها كلمات وجُمل تحمل أشد الآفات خطرًا على البشر، آفة رفع فرد فوق مرتبة البشر، جمل صغيرة تضع البذور الأولى لحرث فكرة تقديس الأب جونز الذي استخلفه الرب وجعله ظله على الأرض، الجُمل كانت صادمة لعقل ووعي جورج لكن لم يكن الارتطام بها أشد قسوة من ذلك الاصطدام الذي جاء بعد ذلك، تعمد مؤلف هذا الكتاب أن يضع النعوت والأوصاف للأب جونز حتى أنه ارتقى به إلى أمرٍ كارثي على نحوٍ ساحق وهو قداسته واقتراب مكانته إلى مكانة الرسل والأنبياء، حتى أن جورج حينما أعاد قراءة الكتاب من بدايته التي كانت تتحدث عن نشأة الأب جونز وجد أن المؤلف

قد ذكر أن الرب قد رأى أن الشر قد كثر في الأرض والاضطهاد والتفرقة والظلم يزداد يومًا بعد يوم فكان عليه أن يكون له ظلٌ على الأرض فخلق Apostle جونز، Apostle تعني الرسول!!هنا في تلك المنطقة وضع المؤلف مكانة جيم جونز لتصل إلى مكانة سان بول أو "بولس الرسول"، وقع هذه الكلمات على جورج أصابه بما يُشبه الشلل المؤقت فظل متيبسا أمام ذلك الكلام المسموم الذي يحشون به رؤوس الأطفال ويشكلون به وعيهم الطري القابل للخضوع لأي شيء، من المتعارف عليه أن أكثر من نصف شخصية وإدراك الطفل يتكون من خلال المدرسة والمواد الدراسية والمعلمة، بعد قراءة هذه الصفحات القليلة كُشف له على أي طريق يتشكل وعي أبنائه، سيتشكل على تلك المعلومات المسمومة وستجعلهم في الكِبر لا يتقبلون سوى الأب جونز وربما لن يتقبلوا الرب ذاته إذا استمروا على هذا النهج!!

انتقل بعينيه إلى مدينة الأب جونز، أو جونز الرسول كما هو مذكور،إنها مدينة مقدسة كتلك المدينة التي تحدث عنها القديس أُغسطينوس في كتابه "مدينة الله" إن هناك مدينتان، إحداهما أرضية وأخرى سماوية، الأولى تمثل الشر المرتبط بالأرض والأخرى في السماء وهي التي تخص الأخيار،ولقد تكرر الأمر في هذه الأيام ثانيةً فخلق الرب مدينتين فجعل العالم الخارجي كله فيه الشر ومدينة الأب جونز بها الأخيار!!لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم يحذرونهم من التعامل مع كافة البشر الموجودين خارج حدود هذه المدينة، استُغل في ذلك تحذير بولس الرسول في رسالته لأهل كورنثوس "لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيَّةُاتِّفَاق لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ" أصيب جورج بحالة من الصدمة المزدوجة، الصدمة الأولى أن أطفاله يُرددون ذلك الكلام المسموم الذي يريد القداسة لنفسِه بالضلال، والصدمة الثانية أنهم لا يزالون هنا داخل ذلك المجتمع، المدينة المريضة التي تشوه بداخلهم كل شيء حتى المعتقدات الدينية، ما حدث زاد من توتره أطنانًا وجعل العزم على الرحيل أمرا لا ريب فيه، ما عليه الآن هو تدبير الخطة المناسبة!!

قضى تلك الليلة مُسهدًا لم يذق طعم النوم، قضاها بين صفحات ذلك الكتاب المسموم حتى إذا أشرق الفجر راح الأب جونز يتحدث إليهم كعادته عبر مكبرات الصوت الخارجية وتلك التي تتسلل إلى منازلهم بأن يستيقظوا جميعًا فقد أخذوا ما يكفي من النوم، ثم راح يثني على المدينة وعلى الجنة التي يعيشون فيها ثم راح يتجه بحديثه عن أهمية التعليم والذهاب إلى المدارس والعمل، نهض الجميع، ولكن لاحظ جورج أن ابنهما يزال يحمل ذلك الإصر ويتجسد الخوف على ملامحه، سأله جورج عن ذلك مدعيًا أنه لا يعلم فحاول الطفل مراوغته، لكن أصر جورج على الأمر حتى لم يجد ابنه مجالاً للفرار فأخبره أنه سها وأخذ معه كتابا في حقيبته!!أخبره أنا لمعلمة كانت مشغولة بالعرض المسرحي كون عدد من طلابها يشاركون فيها وسهت أن تذكرهم بأن يتركوا الكتب الممنوع اصطحابها، وهو أيضًا لم يتذكر فأخذه معه، كان يتحدث إلى جورج عن ذلك وجسده يرتعش ويشعر بالخوف، أخذه جورج في أحضانِه وحاول أن يتخط به ما حدث وأن يعرف منه ما هذا الكتاب المزعوم أو يُلقِ عليه نظرة لكن الطفل رفض تمامًا وأخبره أنه لو صرح له باسم ذلك الكتاب فستصيبهم صاعقة من السماء، أخفى جورج في نفسه ما سمعه ولم يضغط على ابنه ويطالبه برؤية الكتاب لكن زادت عزائمه بما كان ينوي فعله، فقط أخبر ابنه بأن الأمر عاديًا وأن يذهب إلى المدرسة مبكرًا ويترك الكتاب هناك من دون أن يشعر أحد، أنهى الأمر سريعًا وذهب إلى مقر عمله بعد تناول وجبة الإفطار، جلس في المخزن وحيدًا بصحبة تلك المشاعر المختلطة والقاسية التي تضغطه يومًا بعد يوم، ظل يفكر ويفكر حتى حل الليل وأخبرهم الأب جونز أن يذهبوا إلى منازلهم وما إن دخلوا حتى حدث ذلك الحدث المفاجئ الذي قلب الأجواء رأسًا على عقب، ارتفع دوي إنذار غريب لم يستمع إليه جورج من قبل ولم يستمع إليه أيضًا معظم سكان المدينة، إنذار تشعر معه بأن هناك حريق قد اندلع في المكان، تحرك جورج إلى خارج المنزل بصحبة زوجته وأطفاله كما هو حال الجميع بعدما انتزعهم ذلك الصوت، لم يفهم أحد ما يحدث لكن الرعب كان يسيطر على الجميع فجأة حينما شرع الحراس في تفتيش البيوت،

وجد جورج اثنين ظهرا أمامه من اللاشيء ثم طلبا من جميع أفراد العائلة الدخول قبل أن يشرعوا في تفتيش المنزل بعناية شديدة، تذكر جورج ما حدث في نيومكسيكو لكن هذه المرة لم يتعمد أحد تحطيم المنزل، اقترب جورج من أحدهم وسأله على استحياء ماذا يحدث!!لكن لم يجد منه سوى التجاهل كأنه نسمة هواء عابرة لا تُغني ولا تُسمن من جوع، بل إنه دفع جورج في كتفِه حينما أدرك أنه يعرقل حركته في المنزل، تذكر جورج الكتاب الذي كان بصحبة ابنه وظن أنه هو سبب ما يحدث، اقترب منه ومن دون أن يشعر أحد انحنى على أذنه يسأله هل أعاد الكتاب الذي كان معه أم لا؟، أومأ له الصغير برأسِه فسأله جورج بصوتٍ هادئ هل علم أحد بذلك فأومأ هذه المرة بالنفي، زفر جورج وشعر بالراحة النفسية وانتظر حتى انتهى هذان من تفتيشهم وانصرفا دون كلمة واحدة، امتلأت رأسه هو وزوجته بعلامات الاستفهام التي ذابت بمجرد أن استمعا إلى صوت الأب جونز وهو يتحدث إليهم بصوتٍ كان يحمل اضطرابا وغِلظةً لأقصى حد ممكن، كان يحمل احتقانا لم يعهده أحد منه من قبل.

- أطفالي!!هناك شخص خائن بيننا تسلل إلى مكتبي وقام بسرقة جزءً من مذكراتي التي كنت أود نشرها ليعلم هؤلاء اللذين يعيشون في المجتمع الظالم كم السعادة التي نعيش فيها، سرقها وأخفاها حتى يطمر الحقيقة عن عيون العالم الموحش، ليس سوى غدار ومُخادع يعيش بيننا والرب سيصب غضبه علينا بسبب ذلك المخادع، علينا أن نكشف أمره، علينا أن نعرفه حتى لا نهلك بسببه، إنه ينتمي إلى ذلك العالم الظالم ولا ينتمي إلى مجتمعنا الذي يتربص به الأعداء، سيكون هذا العمل الإجرامي سببا في عودتكم إلى بلاد الظلم، سيفعل بنا الأمريكان مثلما فعلوا في فيتنام!!إن ظهر هذا اللص واعترف فسنسامحه، وإذا لم يفعل سنكشف أمره وسنجعله آية للعالمين.

تبادل جورج مع زوجته النظرات ولا يدري أيا منهما ماذا عليه أن يفعل، ارتفعت الهمهمات في المكان وشرعت حالة التوتر في الظهور فأُعلنت حالة الطوارئ داخل المدينة، سمح الأب جونز للجميع بل إنه أمرهم بالتصنت على بعضهم البعض،

أمرهم أن يصبحوا جواسيس على بعضهم البعض بحجة الحفاظ على المدينة وعلى المجتمع، صنعهم الحاكم المستبد على عينه فأصبح كل شخص لا يقوى أن يقول ما في نفسه، هذا الأمر كان موجودا في السابق كونه مجتمعا ديكتاتوريا لكن لم تكن هناك الجرأة للإعلان عنه، الآن اختلفت الأمور وأصبح من الوقاحة والوجه المكشوف إعلان ذلك!!سيطرت على المدينة حالة من الغمامة والترقب، الجميع بدأ يشك في بعضه البعض، بل ويلقي بعضهم على بعضهم التهم بالخيانة والعمالة وهم يتبادلون النظرات غير المريحة، هربت من وجوه الجميع الابتسامة ورجال الحرس يتجولون حولهم كل حين، بل إنهم كانوا يدخلون إلى المزارع وأماكن تربية الحيوانات والمدارس ويقومون بالتفتيش العشوائي، تحولت المدينة لحالة من الذعر وعدم الأمان، شعر كل فرد أنه هو المتهم على الرغم من يقينه أنه لم يفعل، استمر الوضع على تلك الشاكلة لأيام حتى إذا كان صباح أحد الأيام وبعد تناول وجبة الإفطار طلب منهم الأب جونز التجمع في قاعة الاجتماعات، كان يود أن يُلقي عليهم خطابا، استجاب الجميع للأمر وهموا إلى القاعة، هناك ظهر الأب جونز على المنصة كعادته يمسك في يده كتابه المقدس الذي لا يفارقه وفي اليد الأخرى الميكرفون وراح يتحدث إلى الجميع.

- يبدو أنني أخطأت حينما اعتقدت بأنكم أطفالي، لقد فعلت من أجلكم ما لم يفعله لكم أحد، لقد خاطرت بنفسي من أجلكم، أتيت بكم إلى هنا لأحميكم لكن يبدو أنني أخطأت، لم يكن لكم تلك الحياة الكريمة التي تحيونها لولا أنني مددت لكم يدي، ماذا فعلت لكم ليتسلل إلى مكتبي أحدكم ويسرق جزء من مذكراتي التي أكتبها ليأت إلينا كل من أراد النجاة، لماذا؟؟ هو بالتأكيد عميل للعالم الخارجي ولكي، تثقوا في كلامي قد وصل اليوم رسولنا إلى الخارج، وكان يتسلل ليأت إلينا بالأخبار وليخبرنا كيف أصبح العالم الموحش.

أشار بيده تجاه رجل نحيف كان يقف بالقرب من المنصة، به من الإصابات ما ينُمُ أنه كان في حربٍ طاحنة، تقدم على تلك الشاكلة البطيئة التي تظهر فيها تلك العرجة الصريحة في قدمِه، تحرك حتى وصل إلى المنصة ونظر إلى الناس الذين

ظلّوا يتأملون الإصابات والانتفاخات التي يعاني منها وجهه، أمسك بالميكرفون وراح يتحدث عن تلك الأهوال التي شاهدها في الخارج وكم أن هذه الأهوال لن تخطر على عقل بشر، أخبرهم بأن العالم الخارجي يُخطط لغزو مدينة جونز والانتقام منهم لأنهم يرون فيهم أنهم يعيشون حالة من السعادة النادرة التي شحت من العالم، أخبرهم بأن كل الدول تتربص بهم وما يشغلهم هو أن يسقطوا مجتمعهم والأب جونز نفسه، لأنه يتجه بهم إلى نمو فكري واقتصادي غير مسبوق، أخبرهم بأنه تعرض لهذه الإصابات وهو يتلصص على أحد الاجتماعات ليستمع إلى ما يخططون له، إنهم متعجبون من النظام الاقتصادي الرهيب الذي وصل إليه الأب جونز في سنوات قليلة، لقد ابتعد عن مساوئ الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وأخذ من كل واحد منهم محاسنه ليصبح في النهاية هذا النظام خاص بهم ويليق بمكانتهم الكبيرة، أخبرهم أن العالم كله في الخارج يتآمر عليهم وأن من بينهم من يسمح بذلك، أنهى كلامه ثم أعطى الميكرفون للأب جونز الذي راح يتهم الجميع بالاشتراك في هذه العمل الإرهابي إذا لم يتم الإبلاغ عن مرتكبه.

- على الأب أن يبلغ عن ولده وعلى الابن أن يبلغ عن والده وعلى الزوجة والأم نفس الشيء لأنه إذا تم القبض على أي فرد سوف يصب العقاب عليه وعلى أسرته وعلى جيرانه، كلكم مسئولون أمامي عن القبض على هذا الإرهابي المُخرب وأنا أعطي له حتى تلك اللحظة فرصة أخرى إذا جاء مستسلمًا يعترف بخطئه، وإن لم يفعل فلا يلُم إلا نفسه، ولو استطاع شخص منكم القبض عليه فسينال جائزة كبيرة لم يكن يحلم بها من قبل.

أنهى كلامه ثم ألقى الميكرفون على الأرض في غضبٍ عارم، تبادل الجميع النظرات في الوقت الذي أدرك فيه جورج أن الأمور صارت أسوأ وأن أي محاولة فاشلة منه للهروب سوف يُتهم بسببها بارتكاب هذا الفعل الذي لم يعرف عنه شيئًا!!

***

ساد المدينة حالة من الوجوم والكآبة بعد تلك الحادثة التي دفعت الأب جونز للظهور بهذه الحالة التي لم يروها من قبل، ومرت الأيام على تلك الشاكلة المقبضة التي يشعر فيها كل فرد بأن المدينة بأسرها تراقبه فلا يهم بفعل أي شيء سوى الالتزام بقواعد المدينة وقوانينها الصارمة، حتى أن بعضهم بدأ يفتش يومًا في منزله ومحل عمله ليعلم هل تلك المذكرات مع أحد من أسرته أم لا.

اختفت البسمة من المدينة، حتى الضحك المصطنع لم يعد له وجود، الحراس في حالة ترقب دومًا ونقاط تفتيش في الطرقات ودوريات للتفتيش المفاجئ على حين غفلة للمنازل وأماكن العمل، جورج يجلس في المخزن يأكله الملل والضيق الشديد، يشعر أن الوقت بات لا يمر والشمس مستقرة لا تتحرك إلا بعد ساعات طويلة ولا يوجد ما يفعله، علاوة على أنه غارق في كل الأمور التي تثاقلت على كاهله كلما مر يومٌ في هذه المدينة، برزت في رأسه فكرة ستأكل الوقت، سوف يُعيد ترتيب المخزن ويقوم بتنظيفه لتمر الساعات سريعًا وليبتعد قليلاً عن ذلك الضغط المستمر الذي سيقوده حتمًا إلى الجنون، بدأ يُزحزح الثلاجة الصغيرة من مكانها وينظف ما خلفها من أتربة تكاثرت حتى باتت عائلتها الكبيرة تغطي على أرض المكان، بدأ بتنظيفها ثم وضع عليها المياه القليلة قبل أن يهم بزحزحة الثلاجة الكبيرة وبدأ ينظف ما خلفها من تراب أيضًا لكنه لم يكن بالكثيف، زحزح جميع الثلاجات عن أماكنها حتى انتهى تمامًا من إزالة التراب، الغريب أن الثلاجة الصغيرة فقط هي ما كانت تحوي هذا الكم من الأتربة، كأنها لم تُنظف قط !! هَمَ بإزالة المياه التي سكبها، أحضر الأداة التي سيزيح بها الماء ووضعها خلف الثلاجة الصغيرة وبدأ بإزاحتها، لكن هذه الأداء كان عليها كم من الأتربة جعل الماء يتعكر، زفر في ملل وراح يخبط بها على الأرض لعله يزيل كل ما يتعلق بها، خبطها على الأرض عدة خبطات لكن جاء صوت الخبطة الأخيرة مختلفا عن صوت باقي الخبطات حينما تزحزحت من مكانها، صوت غريب ينُمُ عن أن الأرض خاوية هنا في تلك البقعة، صوت أشبه بالطرق على قطعة خشب مثبتة وخلفها فراغ!!دفعه ذلك الصوت إلى الاقتراب من ذك المكان الذي بالكاد تستطيع الدخول إليه بسبب صِغر المسافة بين الثلاجة والحائط،

جلس القرفصاء وراح يخبط بأصابعه التي قبض عليها على تلك البقعة فاستمع إلى نفس الصوت الذي ينُمُ عن الفراغ الذي يوجد أسفل البلاطة!!ألقى نظرة إلى الخارج ليعلم هل هناك من يراقبه أم لا، لم يكن هناك ما يستدعي الخوف ولكن عليه أن يُسرع في الأمر، عاد إلى هناك وجلس القرفصاء وراح يستكشف الأمر فوجد أن تلك البلاطة غير مثبتة في الأرض ويمكن إزالتها، بهدوء بدأ ينزعها عن مكانها، كان الأمر صعبا لأنها كانت تحتاج إلى آلة رفيعة السمك لنزعها مما دفعته للمحاولة عدة مرات حتى استجابت، وجد أسفلها حفنة من الرمال الصفراء لكنها كانت رمالا صافية غير مختلطة بمواد ربط إسمنتية مما جعل الشك يأكل قلبه ويتأكد من أن هناك شيء غير طبيعي، أزاح الرمال حتى وجد كيسا أسود بلاستيكي، بسرعة البرق رفعه وراح يتفقده، إنه كيس أسود محكم الغلق من كل الاتجاهات بلاصق عريض وحازم، راح يتفقده بيده فوجد بداخله شيئا ما لكنه صعب عليه تخمينه، أعاد التراب مرة أخرى ثم وضع البلاطة مكانها هب واقفًا وفي يده ذلك الكيس وراح يفك الشريط اللاصق شيئًا فشيء حتى تمكن من فتحه، مد يده بالداخل فوجد أنه يحتوى على أكثر من شيء أشبه بكراسة أو مفكرة، سحب واحدة لتكون المفاجأة، إنها مذكرات الأب جونز التي يبحث عنها!!هربت الدماء من عروقِه وتيبس مكانه دون حِراك، توقف عقله عن تفسير ما وجده أمامه، في الوقت نفسه استمع إلى صوت وقع أقدام تقترب من المكان، إنها دورية تفتيش جاءت تلقي نظرة على المكان الذي لمحوا من الخارج أنه غير مستقر، توترت أعصاب جورج ولم يجد أمامه سوى أن يضع ذلك الكيس الأسود في الحيز الذي يقع بين خصره وبنطاله، وضعه بسرعة البرق في الوقت الذي شعر فيه بواحد يقف خلفه، كان عليه الثبات وأن يتعامل مع الأمر دون توتر حتى لا ينكشف.

- ماذا تفعل هنا؟؟!!

قالها الحارس لجورج وهو يولي له ظهره، حاول جورج الحفاظ على أعصابه هادئة، وبهدوء بدأ يلتفت إليه لكن جسده كان يميل قليلاً إلى الأمام خشية أن يسقط الكيس وينفضح الأمر.

- المكان متسخ للغاية يا سيدي ويحتاج إلى نظافة لذلك شرعت في تنظيفه حتى يليق بجنتنا.

أجابه جورج وعيناه تتحركان بشدة من فرط التوتر، لاحظ الحارس الآخر أن جورج يميل بجسده إلى الأمام بشكل مبالغ فيه فسأله عن ذلك؟؟!!

- أشعر ببعض الألم في معدتي.

- وهل من المنطقي أن تفعل ما تفعل وأنت تشعر بذلك الألم!!

- أردت أن أنشغل بما أفعل لعلي أتناسى الألم.

- ما هذا؟!!

قالها الحارس الأول بشكل مفاجئ وبطريقة قذفت الرعب في قلب جورج الذي ارتعدت وشعر أن أمر البلاطة غير المثبتة قد انكشف، بدأ الحارس يتقدم إلى الأمام في الوقت الذي بدأ جورج يفكر في الرد المناسب، سوف ينكر كل شيء ويدعي أنه وجدها هكذا وأنه حينما نزعها لم يجد خلفها شيئا، لكن ماذا إن أمروا بتفتيشه!، سوف ينكشف الأمر، هذا ما جال في خاطره فضغط أعصابه أكثر وجعله يتوتر بصورة أكبر، طلب منه الحارس أن يبتعد عن طريقه فاستجاب جورج للأمر من دون جدال وضربات قلبه تكاد تُسمع من بعيد، دلف الحارس إلى الداخل حتى وقف بكعبه على تلك البلاطة المزعومة وعين جورج لم تتزحزح عنها حتى اكتشف أن الحارس ينظر إلى أعلى ثم أخرج من جيبه قماشة وأزال بها خيوط عنكبوت كانت في الزاوية التي يلتقي فيها الحائطان، أزالها ثم نظر إلى جورج وطلب منه أن ينظف المكان كما ينبغي فعار على الجنة أن يكون بها شيء كهذا، زفر جورج وشعر بالراحة، أومأ له برأسِه ووعده بأن يهتم بالأمر، تفقد الحارسان المكان بعيونهما ولم يلتفت أحد منهم الأمر البلاطة، أنهيا تفتيشهما ثم رحلا إلى مكان آخر في الوقت الذي يتأهب فيه جورج لقراءة مذكرات الأب جونز وليعلم لم كل هذا الفزع الذي يعتريه لضياعها.

- 15 -

قضى جورج ساعات من الترقب والرعب الحقيقي وهو يحمل معه تلك المذكرات التي لو كُشف أمرها لانتهى أمره وأمر عائلته إلى الأبد، كان يتحاشى الجميع سواء بالكلام أو السلام أو حتى النظر، كان كمن يحمل إصرًا، كل حين لآخر يمد يده ويتحسس المذكرات، كان يخشى أن تسقط منه أو ينكشف أمرها، في الوقت نفسه لم يرد التخلص منها لأنه كان يريد أن يعرف من خلالها كل شيء، ولماذا حالة الهلع والفزع التي انتابت الأب جونز لاختفائها!!، استمر لباقي اليوم على هذه الشاكلة التي حاول بقدر المستطاع ألا يظهر فيها شيئًا غريبا ومختلفا عن المعتاد حتى لا يرتاب أحد في أمرِه، استمر حتى عادوا جميعًا إلى المنزل، أخذ المذكرات ووضعها أسفل المنضدة حتى يُنهى جلسة النقاش المعتادة مع أسرته قبل النوم، يتحدث فيها كل شخص عما مر به من أحداث اليوم ويطرح سؤالا إن كان يلزم الأمر ذلك، هذه المرة جلس جورج صامتًا يستمع إلي أطفاله، حتى أنه في بعض الأوقات كان يغيب عنهم بعقله وانتباهه ليتفاجأ بأن أحدهم ينتظر منه ردًا في أمر ما لم يستمع إليه فيطالبه بإعادته، كان جورج غريبا وقد لاحظت زوجته ذلك فراحت تسأله لتستفسر عن الأمر لكنه راوغها ولم يخبرها بالحقيقة، أراد أن يؤجل كل شيء حتى يُدرك بنفسه ما الذي بداخل تلك المذكرات، استمر النقاش المتقطع في رأس جورج حتى طلب من أطفاله أن يخلدوا إلى النوم ثم ذهب بصحبة زوجته إلى غرفتهما، جلس على السرير نصف جلسة وراحت هي تجلس أمام المرآة لتفعل ما تفعله السيدات قبل الخلود إلى النوم، كان جورج يجلس معها بنصف وعي يُمني النفس بأن تخلد إلى النوم ليشرع هو في قراءة

المذكرات، كان ينظر إليها بعينيه البادي بها ذلك الاصفرار المختلط مع الاحمرار الناتج عن ندرة النوم، نظرت إليه عبر المرأة وهي تبتسم وتستفسر عن سر تلك النظرات قبل أن تخبره بأنها تشفق بشدة على إليزابيث التي تعيش حالة نفسية سيئة للغاية.

- لماذا؟؟؟ هل حدث شيء جديد؟!

- لا، إنها تود أن يشفع لها الأب جونز في الشفاء وهو يطالبها بالصبر والطاعة وهي أصبحت غير قادرة على تحمل ذلك.

جورج ينظر إليها ويود أن يخبرها بأنها تدعي ذلك وأن كل ما يحدث ما هو إلا تمثيلية هزلية لكنه فضل الصمت الآن حتى ألقت عليه تلك القنبلة غير المتوقعة، أخبرته بأن حالتها النفسية ساءت لدرجة أنها لم تعد قادرة على العمل، أخبرته أنها طلبت منها ألّا تذهب معها غدًا لأنها تحتاج إلى الراحة والهدوء.

- تذهبي إلى أين؟؟

- التنظيف، غدًا كنا سنذهب أنا وهي من أجل تنظيف أحد المنازل الخاصة بمساعدي الأب جونز ولكنها اعتذرت عن ذلك.

- أنتِ وهي فقط!!أين باقي السيدات؟؟

- قد تم توزيعهن على أماكن أخرى. هذا الأسبوع تم وضعنا أنا وهي فقط سويًا، وها هي قد اعتذرت وأنا لا أريد أن اضغط عليها بالرفض فقبلت ذلك.

- أي منزل ستنظفين غدًا؟

كانت الصدمة رهيبة حينما أخبرته أنه منزل المُساعد الزنجي!!هو كان يشك في الأمر منذُ أن بدأت الأعذار الوهمية لكن الأمر الآن أصبح حقيقيا!!يأتي ذلك الخبر ليتمم تلك المشاعر والأحاسيس التي تتلاعب بأعصاب جورج وتضعه تحت ضغط هائل، تشتت ذهنه وأصبح يفكر في الأمرين، أمر المذكرات وأمر زوجته التي ستذهب وحيدة إلى منزل الرجل الذي كان ينظر لها تلك النظرات المريبة التي تفضح أمر شهوته، فكر في أن يمنعها من الأمر ويطلب منها ألا تذهب إلى هناك لكن فكر قبل

ذلك في السبب الذي سيقنعها به!!لن يكون سببًا عاديًا، يجب أن يكون مقنعًا لإدارة المدينة قبل أن يكون مقنعا بالنسبة لها وهذا سيدفعه لقضاء الليل كله في النقاش، وإذا لم تذهب في الصباح سيرتاب الأب جونز أكثر في أمرهم، خاصةً بعد طلبه بالرحيل عن المدينة وسيكون التفتيش أسطوريا ولن يتمكن من قراءة أي شيء، فضل أن يترك كل شيء كما هو حتى ينتهي من قراءة المذكرات لعلها تكون منجية مما يعانيه.

انتظر جورج حتى خلدت زوجته إلى النوم ثم نهض من السرير وخرج إلى الصالة، أخذ الكيس الأسود من المكان الذي كان يتحفظ عليه فيه، أخذه وذهب إلى ذلك المكان القريب من النافذة ليبحث فيه ويقرأ كما فعل مع الكتاب سلفًا، جلس على الأرض ووضع الكيس على قدمه ثم فتحه وبدأ يُخرج ما فيه، كانت هناك مفكرة كبيرة إلى حد ما كُتب عليها من الخارج مذكرات الأب جونز، إنها هي المذكرات التي كتبها بخط يده والتي تسببت في تلك البلبلة كلها، وضعها جورج بجواره ثم هم يبحث عن باقي الأشياء التي يحتويها الكيس، إنها مفكرة أخرى ولكنها تقل عن تلك التي أخرجها من حيث أبعاد الطول والعرض لكنها كانت سميكة جدًا عن مفكرة الأب جونز، المفكرة كانت تحمل على وجهها اسم معبد الشعب، من الواضح أنها قديمة منذُ أن كان أتباع الأب جونز في سان فرانسيسكو، هذا ما توقعه جورج وظنه، فتحها جورج وبدأ يتجول فيها بعينيه، إنها كُتبت بخط اليد، إنه خط مختلف عن الخط الذي كتبت به مذكرات الأب جونز، دقق النظر أكثر فاكتشف أنه خط صديقه ديفيد، نعم إنه خط ديفيد هو يعرفه جيدًا ويتذكره منذُ أن كانا زملاء دراسة، بدأ يقرأ ما كتبه فوجد أنه يتحدث عن كل شيء رآه داخل مدينة جونز، هذا يُعد كنزًا ومن الواضح أن الأب جونز لا يعرف شيئا عن تلك المذكرات كونه لم يذكرها، هو تحدث فقط عن ما سُلب منه، إذًا عليه أن يبدأ بمفكرة الأب جونز نفسه كونها يجب أن يتخلص منها في أسرع وقت ممكن، أمسك بالكيس وبحث فيه عن شيء آخر فلم يجد سوى ورقة صغير كُتب عليها ثلاثة أرقام، لم يفهم ما هي فتركها الآن وعاد يمسك مفكرة الأب جونز، فتحها وبدأ يقرأها من بدايتها لكنه فوجئ أن جيم جونز يتحدث في هذا الجزء

عن تجارته غير المشروعة التي شرع في العمل بها لأنه يحتاج إلى نفقات وإلى أموال تساعده على تحقيق الأمان له وللمدينة حتى إذا حدث ما تحدث عنه في البداية يستطيع أن يتصرف، كان يذكر أن هناك من يساعده في ذلك لأنه على علاقة قوية بمافيا السلاح البرازيلية!!توقف جورج عن القراءة وبدأ يقلب في المذكرات مرة أخرى ليتأكد أنها الصفحة الأولى!!نعم إنها هي، فكر في الأمر ثانيةً ليدرك ذلك الشيء الذي تحدث عنه في البداية!!صمت قليلاً ثم تذكر خطاب الأب جونز حينما قال أن جزء من المذكرات قد اختفى!!جزء، انتبه إلى حقيقة الأمر الذي استبان ليكتشف أن ما بين يديه الآن مجرد جزء من سلسلة شرع في كتابتها!!أمسك بالمفكرة التي بخط ديفيد وبدأ يقرأها من بدايتها، فكانت صادمة حزينة يتحدث فيها أنه شرع في كتابتها ليلخص كل الأجزاء التي قرأها والتي تخص الأب جونز وبخط يده، الآن اكتملت الصورة في رأس جورج وفهم ما كان يحدث، صديقه كان يسرق المذكرات ويقرأها ثم يكتب عنها حتى لا يسهو عن شيء ثم يعود ويسرق جزء آخر!!اللقاء الذي جمعه بديفيد يوم وصوله كان يتحدث عن تجارة غير مشروعة يقوم بها الأب جونز!!هذا يعني أن هذا الجزء قد قرأ فيه عن تلك التجارة وكان يسعى لإثباتها!!هذا يعني أن الجزء الذي بين يديه هو آخر جزء تمكن من سرقته وهو ذاته الذي اكتشفه الأب جونز!!بدأت الأمور تتضح في رأس جورج وتتشابك الخيوط، شعر بدوار بسيط في رأسِه دفعه ليغمض عينيه لثواني قبل أن يبدأ في قراءة ما كتبه ديفيد بخط يده، كانت كلمات تجسد بها الألم والشجن.

"الشر لديه العديد والعديد من الأقنعة، ولكن القناع الذي يرتديه الأب جونز هو القناع الأسوأ على الإطلاق، إنه قناع الفضيلة التي استطاع به خداع الجميع بذلك الغزو الفكري الذي بدأ دينيا ثم شرعت المواقف في تعريته وفضح ممارساته ونواياه الخبيثة، إن الأب جونز يظهر أمامنا يرتدي رداء الدين ويتقمص شخصية القس الصالح ليجد الجميع أنفسهم في النهاية أمام شخص استطاع تمثيل هذه الشخصية ببراعة شديدة، شخصية لم يعرف حقيقتها إلا القليل فتم إقصاؤهم بعيدا عن المجتمع، ثم بدأ يزرع في رؤوس الباقين كم هم أُناس خائنين يريدون التعامل

مع العدو!!العدو الوهمي الذي جعله فزاعة للجميع وفي نفس الوقت شماعة يُعلق عليها كل شخص لا يميل لأفكاره أو يحاول أن يُفكر فيما يحدث حوله، يُتهم سريعًا بالخيانة والإرهاب!!استطاع الأب جونز التوغل إلى كل هؤلاء من الجانب الضعيف المكسور، واستغل حاجة العوز التي يميلون إليها بسبب الاضطهاد الذي يتعرضون إليه ليل نهار في بلادهم، الاضطهاد والعنف الذي دفعهم للحاجة الشديدة إلى الكلام المعسول والمعاملة اللطيفة، استغل الأب جونز هذه الثغرة ولا أخفي القول أنه يمتلك شخصية رائعة وحضور أروع وكلامًا يدل على المداهنة يستطيع به السيطرة على الجميع وتملقهم دون أن يشعرون، لقد قرأت ذلك بأم عيني في مذكراته، لقد تحدث عن ذلك واعترف أنه استغل حالة الافتقار والبؤس والحرمان التي يعاني منها معظم الزنوج في أمريكا، وثق بأن هؤلاء لا يحتاجون سوى لوطنٍ يحتضنهم ويد تمد إليهم المساعدة فبدأ بتكوين كنيسة معبد الشعب ليلوح بذلك الحلم الذي كان من الصعب تحقيقه في أمريكا بأكملها، على الأقل في الوقت الحالي وهو عبارة عن كنيسة مختلفة الأعراق، اعترف أنه أتخذ من البروتستانتية مذهبا له لأنها هي العقيدة التي يتبعها كافة الزنوج في أمريكا، أقر بأنه فعل كل شيء سواء كان شرعيا أو غير شرعي فقط لجذب الناس إليه، أراد أن يضع بداخلهم الثقة اللازمة التي تجعلهم يستمعون لكلامه من دون تفكير!!ثم شرع في استخدام التأثير على العقول من خلال ما يعرف "بالشمولية" تحديدًا منذُ أن أسس مدينته أو مدينة الأب جونز، لم تكن هذه هي العقيدة الظاهرة في سان فرانسيسكو أو في معبد الشعب بوجهٍ عام لأنها كانت البداية والفترة التي يحتاج فيها إلى زرع الثقة ثم شرع في ذلك حينما أصبح لديه مجتمع منغلق يحكمه!!والشمولية هو مصطلح ومفهوم يستخدم سياسيًا لوصف الإدارة أو الحكومة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع وتعمل للسيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة حتى أنها تسعى للتحكم في الاقتصاد والتعليم والفن وأخلاقيات المواطنين، ولكن لن تأتي تلك الشمولية دفعة واحدة فلابد في البداية أن ينجذبوا جميعًا لكنيسة الشعوب وأن يشعروا أنها طوق

النجاة الذي ينتشلهم من تلك المحن والمستنقعات التي لا ترحمهم، يجب أن يتأكدوا أن الأب جونز هو مخلصهم وأنهم من دونه سيتعرضون لكل ما هو سيء، وبالتالي يضعون هذه الثقة في كل ما يفعله الأب جونز ومن ضمنها بالطبع مدينته، مدينة الأب جونز، ليبدأ بعد ذلك التأثير بشكلٍ صحيح، لقد كتب الأب جونز تلك الكلمات بيده، نعم كتبها بخط يده، يعترف بنواياه الخبيثة في تأسيس مجتمع قمعي قائم على نظام ديكتاتوري بحت!!أدرك كيفية التأثير عليهم فصار الأمر في غاية السهولة، وأرض خصبة لتطبيق الشمولية، كان يحتاج إلى فزاعة يلوح بها إن أراد أحد الخروج عن طوعه فادعى أن هناك دائمًا خطر يُهدد أمنهم ويريد قتلهم وتعذيبهم وهو العالم الخارجي المليء بالحروب وأن هؤلاء الأمريكان والقوات الخاصة يتربصون بهم ويريدون أن يقتلونهم، واستدل على ذلك بالحريق الذي حدث لمقر الكنيسة في سان فرانسيسكو ومحاولات اغتياله أكثر من مرة!!كان دائمًا يذكر في اجتماعاته أن حال وصول ذلك العدو إلى هنا سيمزقون أبنائهم أمامهم ثم يمزقونهم واحدًا تلو الآخر، كان يحاول أن يرعب الجميع حتى يبتعدوا عن فكرة مغادرة المدينة، أخبرنا القس جيم في مذكراته أنه ليصل إلى هذا العلم والتأثير على العقول فحص ودرس بعناية شديدة حياة هتلر وماو وجوزيف ستالين السكرتير العام للحزب الشيوعي ليستخلص في النهاية مدرسته الخاصة التي أخذمنها ما يراه صالحًا من كل هؤلاء، اعترف الأب جونز أنه يفعل ما فعله " يوزف غوبلز " وهو وزير الدعاية السياسية في عهد أدولف هتلر، تبنى الأب جونز ما فعله في خداع الشعب الألماني عن طريق وسائل الإعلام والميديا المتاحة وقتها ونشر الأخبار غير الصحيحة التي تسبب الإرهاب والتخويف في نفوس أولئك الذين لم يستجيبوا لهتلر، جعلهم يرون في العالم كله باستثناء دول الحلفاء أنهم خطر شديد على ألمانيا،وأن الابتعاد عن هتلر أو عدم الانصياع إلى كلامه وأوامره يُعد خيانة عظيمة للدولة، القس جونز استغل نفس النظرية هنا في مدينة جونز تاون بأن هناك خطر يُهددهم وأنه على اتصال مع الرب لأن غالبًا ما كان النازع الديني هو المحرك لأي شيء لذلك أراد النظام الشيوعي التخلص من الدين

أولاً حتى لا يجد ما يقاومه، هنا فعل الأب جونز العكس، استغل الدين في تطويع كل شيء علاوة على أنه يحميهم من ذلك الخطر الوهمي الذي يخبرهم به، أراد ألا يروا غيره وألا يسمعوا غيره، أراد أن يوجه بصيرتهم إلى فكرة واحدة فقط هي الخيانة بل الكفر إذا لم يستمعوا إلى كلامه وأوامره، الأب جونز تعمد في نظامه الذي وضعه في المدينة أن يُكَوِن نظامًا ديكتاتوريًا محكومًا فأمسك بمفاصل المدينة وتعمد أن يدعم رجال الحرس ويفضلهم على الجميع، جعلهم يفعلون ما يفعلون ولا يحاسبون ليكون ولائهم له، في الوقت نفسه ضمن الإعلام وجعله بوقا لا يذيع سوى صوته هو فقط ليضمن ألا يبتعد الناس بفكرهم عما يريد هو فقط، أراد أن يعمي الجميع عن رؤية الواقع، الدليل القاطع والظاهر للجميع لإدراك أن هذه المدينة مدينة ديكتاتورية هو أن رجال الأمن والحراس لا يتعاملون مع أفراد المدينة على أنهم يخدمون مصالحهم بل يتعاملون معهم على أنهم عبيد لهم، الحراس ليسوا في خدمة الأفراد بل إن الأفراد هم من في خدمة الحراس بحجة الحفاظ على المدينة".

رفع جورج عينه عن تلك المذكرات التي كان يقرأها وهو في حالة يرثى لها، حاجبه قد ارتفع وعيناه قد جحظتا إلى الخارج من هول ما قرأه في المقدمة فقط التي تثبت بما لا يحتمل الشك أن الأب جونز ليس هو ذلك الشخص الملائكي الذي نزل من السماء لإنقاذ الجميع!!

عاد جورج يقرأ ما كتبه صديقه ديفيد بعد المقدمة فوجده يُؤكد دائمًا على أن كل كلمة ذكرت هنا هي موثقة وأنه فعل ذلك بعدما ارتاب في أمر الأب جونز منذُ أن وصلوا إلى هنا وبدأت تلك التغيرات تظهر عليه فاتبعه ديفيد وظل يبحث حتى وصل إلى الخزينة الحديدية التي تقبع في مكتبه وأنه استطاع الوصول إلى الرمز السري لها وهناك وجد تلك المذكرات التي يحكي فيها عن كل شيء ولا يعلم لماذا فعل ذلك!!لكن كانت هذه المذكرات عبارة عن أجزاء فكان يأخذ الجزء كأنه يستعيره ثم يعيده إلى مكانه ويأخذ الذي يليه حينما تسنح له الفرصة لفعل ذلك، قال إنه قرأ من خلاله كل شيء عن جيم جونز وعن طفولته وأنه كان يحلم منذُ الصغر بأن يكون حاكمًا أو

واعظًا دينيًا لذلك شرع في تأسيس ما عُرف بمعبد الشعب وكان مشروعًا في جوهره دينيًا حتى كبر الحلم بداخله واستفحل وبدأ يشعر بتلك الأحاسيس الاستبدادية والدوافع للحكم، فبدأ يحلم بمجتمع يكون هو فيه ديكتاتورًا له الكلمة العليا فأخبر الجميع وأوهمهم بأنه ظل الرب على الأرض، وليؤمن الناس بذلك كان عليه استخدام الكثير من الحيل والألاعيب الكثيرة لإقناعهم بذلك فاخترع فكرة الخطيئة والإذن بها وفكرة الشفاء من العجز فجاء بعدد من الممثلين ليقنعوا الناس بفكرة العجز وأنه قادر على شفائهم إذا التزموا بأوامره ليرسخ فكرة الطاعة العمياء!!هنا أمسك جورج رأسه وقد فهم تفسير ما تفعله إليزابيث!!ولم تتردد على الأب جونز وتطلب منه الشفاء مع الوافدين الجُدد من النساء ومن بينهم زوجته!!أعاد جورج القراءة وظل يتعمق في المذكرات ويقطف منها كل ما هو غريب ومفاجئ حتى وصل إلى نهايتها وكان صديقه يذكر فيها أنه قرأ في تلك المذكرات التي أخذها منذ يومين أن الأب جونز قد شرع في تجارة غير مشروعة مع مافيا برازيلية وأنه سيذهب لعقد اتفاق معهم بصحبة مساعده، كان ديفيد يكتب أنه سوف يتوغل الليلة إلى المخبأ الذي يرتاب في أمرِه ليكتب عن كل ما رآه هناك!!توقفت هنا المذكرات ولم تكتمل، أدرك جورج أن ذلك هو اليوم الذي أتى فيه إلى المدينة وأتى إليه ديفيد وكان يريد أن يأخذه معه إلى ذلك المخزن وقد أخبره بذلك لكنه أبى أن يأتِ معه ورفض!!عَلِم الآن لماذا تم تلفيق هذه التهمة له، لأنه رأى ما لم يكن عليه رؤيته وعَلِم ما ليس له به علم فقرر الأب جونز أن يتخلص منه، لكنه أراد أن يأتي القرار من أفراد المجتمع فلفق له تلك التهمة البغيضة وجاء بتلك الممثلة التي استطاعت كسب تعاطف الجميع معها!!

شعر جورج بذلك التنميل وهو يجوب جسده بالكامل، أغمض عينيه وقد تأكدت كل شكوكه وأيقن بأنه قد وقع هو وأسرته في شباك هذا العنكبوت ولن يخرجوا بسهولة!!كمية الأسرار التي تم الكشف عنها في الأيام القليلة التي قضوها هنا كثيرة ومبالغ فيها بالحد الذي يجعل الولدان شيبًا!!

الوقت لا يحتمل الكثير من إضاعته، عليه أن يقرأ باقي المذكرات التي كتبها جيم

جونز بيديه والتي لم ينته من قراءتها صديقه ديفيد، أمسك بها وراح يفتحها ويتطلع إليها، كان يتحدث عن الصفقة والتجارة غير المشروعة مع مافيا البرازيل وهذا كله من أجل المال، أخذ يتحدث عن المال بأنه المحرك لكل شيء وأن بدونه لن يستطيع تحقيق ما يريد، كان يرى أن المال كل شيء، وحينما يتكلم المال يصمت الصدق، وذكر أيضًا أنه ليس عصب الحرب فقط كما ادعى تشرشل بل إنه عصب كل شيء وأنه يسعى لجمع ما يستطيع منه، ولولا المال ما كانت هناك مدينة جونز، ذكر أيضًا أنه خسر الكثير من المال في حريق كنيسة الشعب في سان فرانسيسكو لكن كان لابد من حرقها لأن الاغتيالات التي كان يصنعها ويدبرها ويخرجها بنفسه ولنفسه لم تعد تأتي بثمارها فكان علية تدبير الحريق المفتعل لإقناع الناس بترك الولايات المتحدة الأمريكية وأن يأتي بهم إلى غيانا لإقامة "مدينة جونز" أو مدينة الأب جونز!!

ضرب جورج بيده على رأسه حينما أدرك أن الحادث الذي ذكره ديفيد له من قبل كان حادثًا مدبرًا وبالتأكيد لم يكن ديفيد يعلم هذه المعلومة لأنه كان يتحدث على أنه حادث حقيقي نجو منه، إذن لم يتعمق ديفيد إلى تلك النقطة في المذكرات، لم يدرك أن الحادث كان لإقناع الناس أنهم يخطون على الطريق الصحيح وأن هناك أعداء تتربص بهم ليضمن ولاءهم ولا يتجرأ أحد وينقلب إليه، ويكون لديه الدافع والذريعة لتكفير وتخوين أي أحد، كان الأب جونز يمهد الطريق لحكم ديكتاتوري، استغل الأب جونز كل شيء حوله وطوعه لخدمة أغراضه، لم يعد قلب جورج يتحمل مزيدا من المفاجآت، أراح رأسه إلى الخلف وهو يفكر في شيء واحد فقط، وهو إعادة تلك المذكرات إلى مكانها أو التخلص منها لأنه يحمل جريمة إذا كُشف أمرها فلن يرحمه أحد، غدًا سيذهب لدفنها بعيدًا في مكان ما لكنه تذكر شيئًا هامًا، غدًا ستذهب زوجته لتنظيف منزل ذلك المساعد الزنجي الذي كان ينظر إليها وهو يرتاب في أمره، استمع إلى صوت يأتي من الخارج، شعر جورج بالخوف فوضع المذكرات كلها داخل الكيس الأسود بسرعة ثم وضع أذنه على الباب حتى مرَّ الصوت من أمام الباب مباشرةً، إنه وقع أقدام اثنين من الحراس يتحركان في المدينة للتفتيش، كان أحدهما يخبر الآخر بأنهم يودون أن يجدوا

تلك المذكرات حتى تنتهي فترة قانون الطوارئ التي فُعلت خصيصًا من أجل السماح لهم باقتحام أي مكان حتى يجدوا المذكرات المزعومة، انتظر بهدوء دون أن يفعل شيئا حتى مرت العاصفة بسلام واطمأن على أنه لا يوجد في الخارج أي أحد، فتح الكيس الأسود وبدأ يخرج محتواه مرة أخرى فسقطت على الأرض ورقة لم يرها من قبل!!كانت مستترة داخل إحدى صفحات المفكرة التي كتبها ديفيد بخط يده وسقطت حينما أخرج هو محتوى الكيس مرة أخرى، سقطت على الأرض فجذبت انتباهه!!وقعت عيناه عليها ومد يده وأخذها بهدوء، فتحها وبدأ يقرأ محتواها، إنها خطة للهروب من مدينة جونز!!نعم خطة لم تكتمل لكنها فتحت الطريق لعقله بتحديد الزاوية التي سيقتحم منها، يذكر ديفيد أن الحاكم الديكتاتور يلعب على وتر واحد فقط هو جهل الناس، بل إنه يتعمد تجهيلهم، وأن الشيء الوحيد الذي يكرهه هو العلم والمتعلمين والمثقفين، لذلك يقضي على هؤلاء حتى لا يستنير بهم أفراد المجتمع وهذا الطريق صعب جدًا لأن الأب جونز يمنع الأحاديث الجانبية والتعاملات التي يطال فيها التحدث والعلاقات لأنه يعلم أن القوة في التفرقة بينهم، ولن تكون التفرقة صريحة، ربما تكون عن طريق الانتماءات لأي شيء حتى ولو كان شيئًا تافهًا، المهم ألا نتفق جميعًا لذلك من الصعب أن أسلك هذا الطريق، ولا يوجد أمامي سوى طريق واحد وهو فضح الأب جونز، الديكتاتور لا يخشى سوى الكاميرا والإعلام المضاد الذي يفضح أعماله والخوف الوهمي الذي يزرعه في قلوب أفراد المجتمع، لذلك فالحل الوحيد للخروج من مدينة جونز هو ليس الهروب بل أن يأتي من هم بالخارج إلى مدينة جونز!!ليفضحوا أمره أمام الجميع، الهروب من هنا صعب، صعب للغاية، رفع جورج عينيه عن الورقة وبدأ يفكر في ذلك الكلام الذي قرأه، بدأ يربط الأحداث وتتشابك الخيوط في رأسِه، ليدرك ماذا عليه أن يفعل، مد يده في الكيس الأسود وراح ينقب عن شيء آخر ربما سها عنه فلم يجد سوى تلك الأرقام الثلاثة المكتوبة في الورقة المنفصلة، راح ينظر إليها ويفكر فيما هو مدلولها فتذكر أجزاء المذكرات التي كان يتسلل لسرقتها!! إنها الأرقام السرية الخاصة بالخزينة المعدنية الموجودة في مكتب الأب جونز!!

- 16 -

ظل جورج يقرأ في مذكرات الأب جونز حتى ظهر أول خيط للنهار ليشق كحل الليل الأسود، كان يشعر بكل كلمة قرأها ويحفظها عن ظهر قلب وهي تضربه على رأسه فيذهب فيما يشبه الغيبوبة، هو كان يرتاب في كل شيء، وهناك ما ظهر أمامه ينم عن ما كان يتوقع، لكن لم يذهل عقله لتلك النقاط البعيدة التي ذهب إليها بعينيه وهو يقرأ مذكرات الأب جونز وما نُقل عنها، استمع إلى الأب جونز وهو يشرع في النداء للجميع كي يستيقظوا، منذُ أيام كان لا يعلم لماذا يتغير موعد الاستيقاظ، مرات يكون قبل ضوء النهار ومرات أخرى يكون بعد سطوع الضوء الآن قد أدرك السبب وعلم لماذا يحدث ذلك!!هو ديكتاتور يريد أن ينفذ الجميع ما يشاء وقت ما يشاء، نهض جورج ووضع الكيس الأسود بمحتواه داخل ملابسه في تلك المنطقة الواقعة بين خصره والبنطال، راح يمحو أي أثر على وجهه لما قرأه حتى لا يلفت الانتباه، عليه أن يخفي كل شيء، انتقل بصحبة أفراد عائلته لتناول وجبة الإفطار ثم هم كل منهم للذهاب إلى عمله في الوقت الذي استوت فيه الخطة في رأسه وأصبح يعلم ماذا سيفعل تحديدًا.

***

تتحرك زوجة جورج في طريقها إلى منزل المساعد الزنجي لتنظفه كما هو متفق عليه، تذهب وحيدة من دون إليزابيث التي أبرمت معها اتفاقا بذلك، كانت معها في الصباح ثم أخبرتها أنها ستذهب للأب جونز لتحاول معه مرة أخرى كي يوافق على شفائها، كانت زوجة جورج من داخلها تشعر أنها تفعل عملاً حسنًا وخيراً لا يقدر

عليه سوى أصحاب النفوس القوية، ولا تعلم أن إليزابيث في الأصل ممثلة لا تعاني من العجز، كانت تحمل أدوات التنظيف التي ستستخدمها كلها مما دفعها للسير بطريقة غير مستوية تسبب ألمًا في فقرات الظهر السفلية، تحركت حتى وصلت إلى هناك، دلفت إلى المنزل وهي تُردد بصوتٍ منخفض بعض الأناشيد التي تخص الأب جونز والتي تمجده وتعظم مكانته، كانت ترددها من قلبها وهي تحفظها تمامًا، كانت السعادة تغمرها حتى النخاع، دلفت إلى المنزل وشرعت في تنظيفه بانشراح صدر وابتهاج شديد ظهر على ملامحها وعلى حركاتها التي راحت تتهادى فيها وجسدها اللين يتراقص مع تلك الأنغام التي تصدرها بفمها، كانت تلتف بجسدها لتلتقط قطعة قماش ثم تقفز إلى المنضدة تمحو آثار التراب والغبار عن سطحها الذي حفرت عليه بأصابعها سلفًا "مدينة الأب جونز" ووضعت بجانبه قلبا رُسم بسرعة فكان نصفه الأيمن أكبر من الأيسر ولكنه نَمَ عما كانت تقصده في طفولة وبراءة، سحبت المقاعد من مكانها وراحت تنظفها وتضعها على جُنُبٍ لتنظف أسفلها، كانت المنضدة قصيرة دفعتها للجلوس على ركبتها لتزيل الغبار الذي يلتصق بالأرض، اندمجت أكثر وراحت تتراقص بنصف جسدها السفلي وراحت نوبات الرقص تتزايد حتى شعرت بمن يقف خلفها في المكان، طاقة غريبة استشعرت بها فراحت تنظر خلفها بسرعة فإذا بها تلتفت خلفها لتجد مساعد الأب جونز الزنجي يقف خلفها بالقرب من المنضدة، هبت واقفة وهي ترتعد من شدة الخوف، توقفت عن تلك النغمات التي تصنعها بفمها وعن اهتزاز جسدها، وأدت كل الأفعال المراهقة التي لا يُسمح بها داخل المدينة، هي لم تشعر بالخوف كونه يشاهدها ويشاهد جسدها الذي يتراقص أكثر من خوفها وهو يشاهدها تفعل ما ينهى القانون عنه، راحت تتابع عملها وعيناها تتأرجحان بينه وبين المنضدة التي عادت تنظفها مرة أخرى من شدة الارتباك الذي شملها، لا يزال هو يتسمر في مكانه ينظر إليها ولا يشيح بنظره بعيدًا مما دفعها لتتحدث معه.

- أعتذر يا سيدي، لم أشعر بوجودك هنا.

- ولم تعتذري؟، أنا الذي يجب أن أعتذر لأنني عُدت إلى هنا، ولكني لا أعلم أن في منزلي أحد.

- اليوم موعد تنظيف منزلك.

تظاهر أنه قد سها عن ذلك وأنه لم يعد يتذكر شيئا بحجة الضغوط وكثرة المشاكل التي يواجهونها هنا في المدينة.

- أنا أكرر اعتذاري يا سيدي.

- لازلت لا أفهم لم الاعتذار!!

- لأنني ارتكبت أفعالا منهيا عنها هنا في المدينة، القوانين تخبرنا ذلك.

- أي أفعال!!

تظاهر بالجهل ليدفعها لتقص عليه ما كانت تفعله بصوتها ليشحن غريزته.

- ما كنت أفعله لحظة أن دلفت لهنا.

- أنا لم أنتبه، ماذا كنتِ تفعلين.

- كنت أغني وأرقص، أليس هذا ممنوعًا.

- نعم ممنوع ومنهي عنه تمامًا في قانون المدينة ولكن ليس في منزل من يسن هذه القوانين.

- ماذا تعني؟!!

- أعني أنك هنا في منزلي ويحق لكِ فعل أي شيء ولن يعترض عليكِ أحد.

- حتى القانون؟

- أنا الأب الشرعي للقانون ويحق لي التصرف في أبنائي كما شئت.

هزت رأسها في تفهم ولم تجبه، أردف مساعد الأب جونز.

- لقد نسيت بعض الأوراق المهمة وأتيت لأخذها معي إلى العمل.

- أين هي وسوف أحضرها إليكِ.

- في غرفة نومي، داخل الكومود الملاصق لسريري، ملف توجد به مجموعة من الأوراق، هل لكِ أن تحضريه لي سريعًا حتى لا أتأخر.

- حالاً يا سيدي.

همت في طوعٍ ودلفت إلى الداخل، ابتلع المساعد ريقه ودلف خلفها، دخلت إلى الغرفة وراحت تبحث على سطح الكومود، هناك عدد من المفكرات الفارغة ولكن لم يكن من بينها أي ملف يحتوي أوراقا، ربما في الضلفة الموجودة هناك بالأسفل، انحنت وصنع جسدها زاوية قائمة وهي تبحث عنه، احتاج منها البحث أن تنحني أكثر لتبحث عنه حتى شعرت بوجوده مرة أخرى، نظرت من بين ساقيها بتلك الوضعية التي هي عليها فوجدته يقف خلفها ينظر إليها نظرات تملأها الشهوة حتى أن لُعابه بدأ يسيل على فمِه، انتفضت والتفتت له بكامل جسدها في حدة.

- أنا لم أجد ما تريد.

كانت عيناه معلقة على جسدها وكان يتحدث إليها ببطء من يعاني من الهذيان.

- أنها في الكومود كما أخبرتك.

- لا يوجد شيء هنا.

قالت كلمتها الأخيرة وتحركت سريعًا تحاول الخروج من الغرفة فتحرك المساعد ووقف أمامها يعترض طريقها.

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟!!

- لقد انتهيت من التنظيف.

- لا لم تنتهِ، المنزل لازال متسخًا بشدة.

- سأعود في وقتٍ لاحق.

قالت جملتها الأخيرة وهي تهم بالانصراف فاستوقفها.

- هل تعترضين على كلام مساعد الأب جونز؟!!!

- لا ولكني بدأت أرتاب في الأمر.

- أي أمر!!

- أمرك وأمر الورق، أنا رأيتك تنظر بعينك على جسدي بنظرات غير بريئة.

ضحك مساعد الأب جونز بهستيريا ثم نظر إليها.

- هل أنتِ تعتقدين أنني لم أعلم أن هناك من سينظف منزلي اليوم، هل تعتقدين أنني عُدت إلى هنا من أجل مجموعة من الأوراق؟

- أنا لا أفهم مقصدك!!

- أنا أريد أن أراودك عن نفسك فقلد فُتنت بكِ ولم أعد أستطيع عليكِ صبرًا.

ساد صمت مُطبق في المكان وزوجة جورج ترمقه بثبات دون أن تتحدث إليه، فقط رجعت خطوتين إلى الخلف ولم تتحدث، في الوقت الذي ظل مساعد الأب جونز ينظر إليها وعلى محياه تلك الابتسامة المستفزة.

- هذه خطيئة والأب جونز لن يقبل بذلك.

- الأب جونز سيقبل بأي شيء أفعله، لن يجرؤ على الاعتراض على أفعالي.

- كيف؟!!!

- هذه أمور لن تفهميها ولكني سوف أكشف لكِ جزء منها حتى لا تتسرعي في اتخاذ أي قرار يعود عليكِ بالسوء، الحكم له قواعد مثله كمثل أي لعبة أخرى ولكن الفرق بينهما أن قواعد الحكم هو ألا يكون لكِ قواعد.

زوجة جورج تنظر إليه ولا تجد ما تقوله فأردف بهدوء.

- الحاكم الناجح هو من يستطيع أن يطوع كل شيء حوله لصالحه، ولا يخسر بطانته التي لولاها لما وُجد في مكانه، هو بحاجة إلى الأمن والاستقرار والمال، أنا أُعد من تلك البطانة التي لن يستغني عنها الأب جونز.

- أنا لا أفهم شيئا.

- نحن من ندفع ثمن جهل المحكومين وقلة تعليمهم، سوف أخبرك بصورةٍ أوضح، إذا خرجتِ الآن وأخبرتِ الجميع بأنني حاولت اغتصابك فلن تجدي أُذنا واحدة تصغي إليكِ، لن يصدقك أحد لأن الأب جونز لن يسمح بسقوطي لأنه يحتاجني بشدة كما يحتاج الناس إلى الطعام، سوف تجدين وسائل الأعلام الخاصة بنا تتحدث عن كونك كاذبة وتريدين هدم مدينتنا وسيعمل الأب جونز على ألا يصدق أحد كلمة واحدة من كلامك ثم تجدين نفسك بعدها متهمة بتهمة ربما لم تسمعي بها،أو تجدي هناك فضيحة لكِ وستكون بالطبع مدبرة لنتخلص منك كما نتخلص من معارضينا.

زوجة جورج في حالة ذهول لا تصدق ما يُقال أمامها وتتناوله أذنها.

- أنا لا أعلم لم الصدمة، هذا حال كل المدن التي يحكمها حكم ديكتاتوري، لكن لا طائل لكِ ولي من الاستماع إلى تلك الأمور، أنا الآن أريد أن أشبع منكِ وأريدك أن تظلي بعقلك حتى لا تندرجي بنفسك وبأسرتك إلى المأدبة أو ربما ما هو أسوأ لأنني كما أخبرتك أنا من يسن القانون.

أنهى كلامه وهَمَ يضع يده على كتفها فرجعت إلى الخلف أكثر وتفادت يده التي كاد أن يضعها عليها.

- سوف أخبرك للمرة الأخيرة، إن لم تفعلي ما آمرك به لتُسجنن ولتكوني عبرة للجميع، سوف نجعل المجتمع كله يشير إليكِ بالبنان ويتهمك كل التهم الممكنة حتى تُسجني وتعودي إلى عقلك لأنني لن أطردك من المدينة ما دمت حيًا.

تجمدت الزوجة مكانها وظلت تنظر إليه بدهشة شديدة، فقد كانت آثار تلك الكلمات سيئة جدًا عليها، بدت ملامحها كأنها سُحلت على طريق الألم وتعلقت قدماها تحت سقف الرعب، ظل المساعد يزيد من كلمات التخويف والرعب حتى يجبرها على فعل ما لم ترده، يزيد من كلماته القاسية حتى وجدها تقف أمامه متيبسة كالحجر، اقترب منها وراح يفك أزرار قميصه بهدوء وعيناه تلتقيان بعينيها

اللتين ترتجفان من هول ما يحدث، الصدمة كانت فوق مستوى استيعابها، وعقلها يأبى تصديق ما يحدث.

- هل سنقضي اليوم بطوله ننظر إلى بعضنا البعض!!

- يا سيدي ما تقوله وتفعله لا يليق بالساسة.

- نحن الساسة نفعل ما نحب لأننا فوق القانون.

انتهى من فك أزرار قميصه، اقترب منها فراح الخوف يستفحل أكثر وراحت أنفاسها تتوالى دون هوادة، اقترب منها أكثر فارتفع صوتها فأشار إليها أن تصمت وأن تستسلم له ولأفعاله، مد يده وراح يزيل ملابسها بهدوء وهي ترتعش وتبكي وتنكمش على نفسها، كان يتحدث إليها ويذكرها بأنها إذا لم تستجب له فسوف ينفذ كل التهديدات التي هددها بها، كان يجد في ذلك لذة مبالغ فيها، كان يستعد ليشبع من كل زاوية في جسدها، ظهر كتفها أمامه فراح ينظر لهبنهم كطفل جائع يجلس على مائدة الطعام الذي يشتهيه، فجأة اتسعت عيناها وتوقف جسدها عن الارتعاش، كانت تنظر إلى أعلى وقد تصلب جسدها، لاحظ المساعد ذلك فانتبه إلى أنه توجد أنفاس ساخنة خلفه، التفت للخلف فأسرع جورج وراح يغرز قطعة الزجاج التي كانت بحوزته في رقبته، غرزها من الحافة المُدببة التي راحت تغوص وتنفجر الدماء على أثارها ويسقط هو قتيلاً على الأرض وسط نظرات الذهول التي ظهرت على وجه زوجته!!

- 17 -

الأب جونز يجلس على كرسيه الوثير داخل مكتبه، أمامه ورقة وفي يده قلم، يصنع بعض الخطوط العشوائية التي تدل على أن باله مشغول بشدة، يفكر فيما عليه فعله في الأيام القادمة، استمع إلى صوت رنين هاتف التليفون لكنه كان الهاتف الداخلي وليس الخارجي، إذن واحد من رجال الأمن يتصل به ليسأله عن شيء، بهدوء رفع سماعة الهاتف واستفسر عن ماذا هناك فأخبره رئيس الأمن أن إليزابيث تريد أن تدخل إليه، انعقد حاجبه وظهرت على وجهه علامة استفهام كبيرة، فتح الدرج وراح ينظر داخله، استخلص ساعة يد يعلم من خلالها التوقيت!! إنها الساعة الوحيدة الموجودة في مدينة الأب جونز، تعجب من الموعد الباكر لكنه لم يرفض مقابلتها، أمرهم أن يُدخلوها، ما هي إلا ثواني معدودة حتى استمع إلى صوت طرق على الباب فأمرها بالدخول، فُتح الباب وبدأت تدخل وهي تدفع بيديها عجلات الكرسي المتحرك حتى وصلت بها أمام مكتب الأب جونز الذي كان ينظر إليها ويريد أن يفهم ماذا هناك!!

- لا شيء، جئت إليك حتى يراني الجميع وأنا أدخل إلى مكتبك لأنني أخبرت تلك السيدة التي تعمل معي بأنني سوف آتي إليك.

- لماذا؟؟

- لأنك أمرتنا أن نصغ إلى كلام مساعدك دون الرجوع إليك وهذا الأمر أنا لازلت أعترض عليه.

ابتسم الأب جونز بهدوء شديد.

- هل سيجبرها على فعل الرذيلة.

- هذا لا يشغل بالي، هي لن تستطيع أن تبوح بشيء وإن باحت فلن تستطيع النجاة من خيوطنا، هناك ألف طريقة للتخلص منها وإبراز كذبها حتى ولو كانت صادقة، ما يشغل بالي حقًا، إلى متى ستجعله يتصرف بتلك الطريقة، إنه يرتع في المدينة ويفعل بها ما يشاء دون الرجوع إلى أحد، إلى متى ستتركه هكذا!!

- حتى تنتهي الصفقة، إنه هو من أبرمها معهم لأنه على علاقة وطيدة بهم.

- لكنه يتعامل مع الجميع على أنه هو مالك المكان وصاحبه.

- أعلم، وهذا ما يولد الكره له عند الناس لذلك أنا أتركه يفعل ما يشاء حتى إذا قطعت رأسه هلل الجميع ورقص، الحكم يا إليزابيث لا يمكن أن يتم من دون مساعدات مالية وأمنية وإعلامية، ونحن في حاجة إلى المال لذلك أنا في حاجة إليه، لكن ما إن ينتهي دوره حتى أقضِ عليه تمامًا وأجعله ذكرى سيئة يحمد الجميع الرب لأنهم تخلصوا منها.

- لكنه يدرك كيف نتعامل مع من نريد أن نتخلص منه، سيراوغنا.

- لن نعطيه الفرصة ليفعل ذلك، هو يكسب كره الجميع يومًا بعد يوم، في الوقت نفسه لن يتمكن وقتها من الدفاع عن نفسه، سوف يُتهم بأبشع اتهام من الممكن أن يُتهم به أحد في مدينة الأب جونز سوف، يتهم بالخيانة والعمالة وسوف أصطحب مجموعة تعترف على نفسها بأنها كانت وسيطا بينه وبين الحكومة الأمريكية، أُناس سوف أصطفيهم على علم مقابل أموال كثيرة ومطامع، منها أن يحتل مكانته، وبعضها يصير مساعدًا لي مكانه، وبعد ذلك سوف أقصيهم جميعًا وأقطع دابرهم.

- لماذا؟!!

- لأنهم الطعم وأنا لا أهتم بالطعم بقدر ما أهتم بالصيد يا إليزابيث.

- هل أنت واثق من فعل ذلك؟!!

- نعم، أنا لدي حسابات لكل شيء وأي شيء.

- أتمنى أن تنتهي على خير.

- ستنتهي على خير، الناس هنا لا تثق بأحد إلا أنا وهم اعتادوا على صوتي وعلى نصائحي، لذلك كنت أصر على أن أتحدث معهم في مكبرات الصوت ليل نهار ولا يتحدث أحد سواي معهم لأن مكبرات الصوت هي الراديو، بوق الإعلام الذي أمتلكه، أمَّا التلفاز فهو جلسات العلاج الوهمية والخطابات التي أغسل بها عقولهم، لا تخافي يا إليزابيث أنا أعي جيدًا ما أفعل بل إنني خططت له جيدًا ودرست علم النفس والتاريخ قبل البدء في أي شيء، الإعلام هو السلاح الأقوى على الإطلاق،إنه السحر، نعم سحر واقع وليس خيال، إذا أردت أن تعرف حقيقة قوم فانظر إلى ما يعرضه إعلامهم، وإذا أردت أن تتحكم في قوم فسيطر على إعلامهم، ولكي يكون الإعلام فعالا فيجب أن تكون في مواجهته عقول فارغة، خاوية من التفكير والتعليم، لذلك جعلت من التعليم أداة تخدم مصالحي، ألوح به وبأهميته وفي الوقت نفسه أدس السم فيه ليظل الجميع جهلاء، فعلت نفس الشيء في الفن لأنحدر بالذوق العام، ولا أجعل للتذوق الرفيع مكانًا هنا، أجعل الفن خاويا وسطحيا ليهدم كل شيء ليظل هنا موطن الجهل، إن الاستبداد ينمو ويترعرع ويعيش ويقفز على الحكم بسبب الجهل، الديكتاتورية قائمة على غلق نوافذ المعرفة، لكني لم أغلقها، أنا فقط وضعت السم بها.

إليزابيث تنظر إليه بدهشة شديدة، فأردف الأب جونز.

- ولكن في المقابل دفعت ثمن ذلك الجهل.

- كيف؟!!

- لم يعد هناك من أتحدث إليه أو أتعامل معه فاتجهت لأكتب مذكراتي لأنفس عن نفسي، العقول هنا أصبحت فارغة تمامًا وأنا بحاجة لأتحدث مع أحد، فلم أجد سوى الورقة والقلم.

- بسبب هذه المذكرات أصبح الجو كئيبا ومقبضا لدرجة كبيرة.

- لا ليس بسببها، هناك خيانة حدثت بداخلنا، أنا أرتاب في أحد مساعدي.

- كيف؟؟

- لأن المذكرات هنا في خزنتي لم تخرج منها، ولا يستطيع أحد الدخول إلى هنا أو يجرؤ سوى المساعدين.

- هل علمت من؟!!

- لا ولكن ما يجعلني هادئا إلى حد ما هو أني واثق أنها لم تكن بصحبة أحد من أفراد المجتمع.

- إذن، لماذا حالة الطوارئ؟!!

- يجب أن يعلم هؤلاء أن أي شيء خطأ يحدث داخل المدينة سيدفع الجميع ثمنه، حتى إذا رأى أحد جاره أو زميله أو حتى ابنه يفعل الخطأ إمَّا نهاه أو أبلغ عنه، علاوة على أن الجميع سيفكر ألف مرة قبل أن يفعل الخطأ.

- ولكن هذا جعل الجو العام هنا خانقا، وهناك حالة من الاحتقان تتزايد وتؤثر على المدينة وأفرادها.

- ستكون هناك مبادرات علاجية قريبًا حتى لا يغيب عن وعي الناس الجانب المشرق لمدينة الأب جونز، لكننا سنفعلها بحبكة درامية سوف أفكر في صياغتها وإخراجها بشكلٍ مختلف، علاوة على أنني أفكر جديًا في شيء جديد.

- وما هو؟؟؟

- أريد أن يحدث عمل إرهابي هنا في المدينة.

- عمل إرهابي؟!!

- نعم، ثم نبحث عن الجاني،والذي سيكون على علاقة بالقوات الخاصة الأمريكية وسيعترف بذلك أمام الجميع، حتى يكرهوا العالم الخارجي أكثر ونرسخ فكرة الكفر

المرتبط بالخروج من المدينة والخيانة في التعامل مع أي أحد في العالم الخارجي، يجب أن أستغل كل ما يحدث حولي لأضمن حكمي وسلطاني، لولا التفرقة العنصرية التي تأكل أمريكا أكلاً لما كنت أنا بنيت هذا المجد وهذه المدينة.

فجأة وبدون سابق إنذار استمعوا جميعًا إلى صوت صراخ عالٍ، صراخ يحدث للمرة الأولى في مدينة جونز فانتفض الأب وركض تجاه النافذة، سهت إليزابيث عن أنها امرأة عاجزة وتركت الكرسي المتحرك وهمت تركض معه تجاه النافذة، ظلّا ينظران من خلالها إلى الخارج، إنه صوت صراخ امرأة يأتي من بعيد، لا يدركان مصدره لكنهما على علم بذلك، لفت انتباه الأب جونز أن رجال الحرس وبعض من رواد المدينة يركضون بقوة تجاه مصدر الصوت، دفع إليزابيث للداخل حتى لا يرمقها أحد وينكشف أمرها ثم هم بالنزول ليتعرف على مصدر ذلك الصوت!!

***

جورج يقف أمام زوجته التي في حالة ذهول تام، تضع يديها الاثنتين على خديها، عيناها قد اتسعتا عن آخرهما وتتأرجحان بين النظر إلى جورج زوجها وجثة مساعد الأب جونز المُلقاة على الأرض، انعطفت للوراء وهي غارقة في غمرة الذهول والشرود، لا تصدق ما حدث ولا تصدق أن زوجها بات متورطًا في جريمة قتل جديدة بعد تلك الجريمة التي ظلّوا يعانون من آثارها حتى تمكنوا من الهروب من الولايات المتحدة الأمريكية، تتخيل سلسلة الأحداث التي ستعيد نفسها مرة أخرى إذا أرادوا النجاة، خرج جورج عن صمته وطلب منها ألّا تخاف فهو قد خطط للأمر جيدًا، وهذا الفعل لم يكن وليد الصدفة وإنما كان أمر مخططا له، زوجته لا تجيبه، فقط تنظر إليه بعينيها اللتين اتسعتا عن آخرهما وملامحها التي تجمدت من هول الموقف، اقترب منها جورج أكثر في محاولة ليُبدد هذا الشعور الذي يعتريها ووضع يده على كتفها بهدوء.

- لا نمتلك الكثير من الوقت لكن عليكِ أن تدركي ذلك، ما حدث الآن ليس وليد الصدفة كما أخبرتك.

- هل كنت تخطط لقتله.

- نعم ولأكثر من ذلك مادام يريد أن يلحق بكِ الأذى، وأي شخص على وجه الأرض يريد أن يمسك بسوء ستكون هذه نهايته.

ارتعشت ملامحها وهي تحاول منع الدموع من الانزلاق على وجنتيها لكنها فشلت فانفجرت الدموع وتساقطت رغمًا عنها، لم تجد ما تفعله سوى أن تُلقي بنفسها في صدرِه فاحتضنها وظل يقبل رأسها والدموع تنهمر منها رغمًا عنها، تركها لثوانٍ معدودة ثم أبعدها وهو يخبرها بأنهما لا يملكان الوقت لذلك، أخبرها بأن عليهما أن يلملما شتات أعصابهما حتى يكملا خطته.

- عن أي خطة تتحدث؟نحن الآن لدينا جثة لأحد الساسة في مدينة جونز!!

- سوف نتخلص منها لا تخشي ذلك.

- جورج، نحن مهددون بالطرد من هنا وربما القتل.

- عليكِ أن تعلمي شيئا هامًا، إن كل ما تراه عيناكِ هنا ليس صحيحا، مدينة الأب جونز ليست هي جنة عدن التي تظهر لنا، هنا ليس المكان المناسب للعيش، هنا الجحيم.

- كيف؟!!

- هذا شيء يطول شرحه لكن اختصارا لذلك دعيني أخبرك بأن الأب جونز ليس هو القس الملائكي الذي يدعي صلته الوطيدة بالرب ويسعى لعمل مجتمع مختلف الأعراق، الأب جونز يعيش داخل حفلة تنكرية يرتدي فيها أقنعة التقوى والمحبة والتضحية لكنه في الحقيقة شيطان يستتر خلف تلك الأقنعة وعباءة الملائكة، لقد

وجدت بالصدفة مذكراته التي يعترف فيها بذلك، تلك المذكرات التي قلبت كيان المدينة، وكانت كل هذه الضجة من أجل ذلك.

زوجته لا تجيبه، فقط تتخشب أمامه دون حِراك.

- لقد سمعت تحاورك مع ذلك المساعد وأظن أنكِ تأكدتِ من أنه شخص غير نظيف وغير شريف.

أومأت برأسها دون كلام.

- الأب جونز لا يقل عنه في القذارة والنذالة، علاوة على أنه اعترف لكِ أنه لن يقترب منه، لأنه بكل بساطة يحتاجه، هنا لا يوجد شيء صحيح، هنا لا يوجد شيء جيد على الإطلاق.

دس يده في بنطاله وأخرج مذكرات الأب جونز فقط، لم يأت بمذكرات صديقه ديفيد، أشهرها في وجهها والرعب يتملك منها، طلب منها أن تقرأ، وأتى لها بتلك الصفحة التي ذُكر فيها أنه سيقوم بعمل صفقة غير شرعية من أجل المال، لو كانت للصدمة هيئة لما ابتعدت عن هيئة زوجته الآن.

- علمتِ الآن لماذا كان يصيبه الجنون ليجدها؟

- هل أنت من سرقها؟!!

- لا، أنا وجدتها، من سرقها هو صديق طفولتي ديفيد.

- ديفيد؟!!

- نعم، لقد حدث بيننا لقاء في أول يوم لنا هنا وحاول إقناعي كما أنا أحاول إقناعك الآن، لكنه هو لم يكن بحوزته المذكرات، علاوة على أن الأمر بالنسبة له كان أصعب، أنا زوجك وأنتِ تثقين بي ثقة عمياء وتعلمين أنني لن أحدث لكِ ضررًا، في اليوم التالي اتهموه بالاعتداء الجنسي على الفتاة.

- هو ذلك الشخص الذي أخبرنا الأب جونز أنه قُتل؟!!!

- نعم هو ديفيد، وهو في الأصل كان يعاني من عجز جنسي كامل وغير قادر على الاغتصاب.

- !!!!!

- نعم هو أخبرني بذلك.

- ولماذا؟؟؟

- لأنه كشف الستار عن جزء كانوا يودون أن يظل مختفيًا فقاموا باتهامه للتخلص منه كما أخبرك ذلك المساعد أنه سيفعل معكِ إن لم تطيعي أوامره، هذا المكان جحيم، جحيم حقيقي، فيه ما لا أذن سمعت ولا عين رأت.

الذهول تمكن من الزوجة بالكامل وهي تحت تأثير تلك الحالة، لماذا لم يطلب الرحيل مادام على علم بذلك؟

- وهل خيل إليك أنني أتمسك بهذا المكان بعد كل القصص التي قصصتها عليكِ، أنا كنت أبحث ليل نهار عن مخرج ومنفذ لنا من هنا ولم أجد سوى تلك الطريقة التي كتبها صديقي ديفيد.

- وهل وصلت لشيء؟!!

- يجب أن أصل إلى مكتب الأب جونز، وهناك سوف أقوم بإبلاغ مكتب التحقيقات الفيدرالي.

- كيف؟!!هل سهيت عن أنك قاتل ضابط شرطة.

- لا لم أسهُ عن ذلك، ولكن يسوف أتحدث معهم على أنني محتجز هنا وهناك كثير من الزنوج وأصحاب البشرة البيضاء، لن أذكر اسمي حتى لا يتعرف علي أحد!!

- حاول أن نترك نحن المكان!!

- لن نستطيع، الحراسة مُشددة والأمن في كل مكان، الأفضل أن يأتي إلينا من نود الهروب لإبلاغهم.

- كيف ستصل إلى مكتب الأب جونز؟!!

- هذا يترتب عليكِ.

- لا أفهم.

- دعيني أشرح لكِ.

***

جورج خرج بهدوء من المنزل عبر النافذة كما دخل منها، خرج دون أن يشعر به الحراس المتمركزين عند باب المنزل والذي وكز أحدهم الآخر حينما شرع جورج في تكسير جزء من الدولاب وجزء من الكومود وبعض الزجاج، وكز زميله مداعبًا إياه كأنه يُخبره أن الوضع بالداخل قد استفحل ونال المساعد الزنجي ما أراد كُرهًا من المرأة التي لن تجرؤ وتتحدث، طلب جورج من زوجته أن تشرع في تنفيذ خطته التي ألقاها عليها، وهي أن تقف في المنزل وتبدأ في العد بمجرد خروجه من الغرفة، العد من الرقم واحد وحتى التسعين بعد المائة الأولى، هذه الأرقام قد توصل إليها جورج في صباح هذا اليوم وهو يركض من منزل الرجل الزنجي إلى مكتب الأب جونز وقد زاد عليها الصعود إلى المكتب، وتحسبا لحدوث أي ظرف، جعل جورج سرعة الركض أثناء حساب الأرقام تقل عن سرعة الركض الآن حتى يضمن أن يصل إلى مُبتغاه قبل الوقت المُحدد، كان يعد على أصابعه ليعلم أين موقعه تحديدًا قبل بدء خطته، وصل إلى هناك قبل الموعد المُخطط له، بهدوء دون أن يشعر رجال الحرس المنتشرين عند مبنى الأب جونز بدأ يتسلل، السور الذي سيعبرُه ليس بالكبير، لن يحتاج المجهود الهائل، صعد وألقى بنفسه في محيط المنزل دون أن يشعر به أحد، يفعل كل شيء وفمه لم يتوقف لحظة عن العد ليُدرك أين موقعه، هناك صوت وقع أقدام، إنه أحد

الرجال يقترب، عليه أن يختبئ، ألقى بنفسه في مجموعة من الحشائش المنتشرة في حرم المبنى ولم يتوقف فمه عن العد حتى لا يفقد موقعه، انتظر الحارس حتى مر أمامه وهو يتهادى في مشيته البطيئة ثم انطلق إلى حيث النافذة التي كان قد حددها كمكان للاقتحام، الخطوة التالية هي الصعود عبر الماسورة، يجب أن يُسرع لأن بعض الدقائق قد ضاعت في اللاشيء، شرع في الصعود بسرعة كبيرة، الجهد الزائد الذي بذله جعله يشعر بشد في عضلة فخذه الخلفية، شعور مميت دفعه للتوقف وهو في منتصف المسافة بين الأرض والنافذة، تشنجت ساقه وشعر بذلك الألم المميت، جز على أسنانه بقوة حتى لا يخرج أي تأوه أو صوت يلفت انتباه من بالداخل، لم يتوقف عن متابعة العد ليُدرك ما سيحدث وهو يقاوم ذلك الشعور المميت والألم المبالغ فيه، استمر في الصعود حتى وجد زوجته تصرخ، تصرخ بأعلى صوت ممكن، تشعر من بعيد أنها تُسلخ حية، شد ذلك الصراخ انتباه الجميع في مدينة جونز فهذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا!!بسرعة بدأ الجميع يركض تجاه الصوت، والحراس الموجودون في مبنى الأب جونز كذلك بالكامل، في الوقت الذي وصل فيه جورج إلى النافذة تزامنًا مع وصول الأب جونز إليها ليلقي نظرة هو وإليزابيث على مصدر الصوت، جورج يشعر بألم شديد في ساقِه لكن كان عليه أن يتحمل وإلا فسد الأمر كله، الأب جونز لا يزال هناك في النافذة هو وإليزابيث يبحثان عن مصدر الصوت فانكمش جورج على نفسه أكثر وتحمل الألم ولم يصدر أي صوت حتى لا ينكشف أمره، ظل ينتظر حتى استمع إلى صوت الباب وهو يغلق فنظر إلى أعلى فلم يجد الأب جونز أو إليزابيث فصعد على النافذة ودلف إلى الداخل كان المكتب خاويا تمامًا فبدأ يتجول فيه بصحبة تلك العرجة الواضحة في حركته، تحرك حتى وصل إلى الهاتف، رفع السماعة وقام بالاتصال بالرقم الخاص بمكتب التحقيقات الفيدرالية وأخذ يروي الأهوال والأحداث وقد أضاف عليها ما يجعل فرقة من القوات الخاصة تقتحم المكان الآن!!، أخبرهم أنه لا يستطيع أن يتحدث كثيرًا لأنه تسلل في خفة

دون أن يشعر به أحد ولو رآه أحد لقُتل، أنهى المكالمة فسقطت عيناه على الخزينة الحديدية التي توصل إلى رقمها السري، حركه شغفه إليها، كان يريد أن يعرف ما تحتويه، جلس القرفصاء وحاول معها، وضع الأرقام التي كان قد وجدها فاكتشف أن الأب جونز قد قام بتغيرها!!

***

وصل الأب جونز بصحبة إليزابيث التي خرجت على الكرسي المتحرك إلى التجمع الذي يحيط بزوجة جورج التي كان بها عدد من الجروح في مختلف جسدها، جروح صنعها جورج قبل أن يُغادر ليحبك خطته، وجدها الأب جونز تصرخ بشدة وهي تجلس على ركبتيها على الأرض، تبكي بشدة وتحتضن شيئا ما لا يظهر منه شيء، التف حولها أعداد كبيرة من المدينة، فقد أراد جورج أن يحدث ذلك أمام كافة الناس فطلب منها ألا تُظهر المذكرات ولا تتحدث مع أحد إلا بعد أن يجتمع أكبر عدد من الناس، والناس سوف تتجمع على صراخها، لذلك طلب منها أن تُخرج كل نوبات القلق والتوتر التي تشعر بها في الصراخ، سألها الأب جونز عما حدث فلم تُجبه وظلت تصرخ حتى أن عروق رقبتها كانت تنفر بشدة، كان صراخا عاليا وشديدا يتناسب مع حجم ما تشعر به من توتر، خرج أحد الحراس الذين كانوا يقفون أمام منزل الرجل الزنجي وأخبره أنه دلف إلى داخل منزله ليأت ببعض الأشياء التي لا يعلمون عنها شيئًا وفجأة وجدوا الباب يفتح وهي تخرج وتركض وتصرخ، ركض أحدهم خلفها ودلف الآخر إلى الداخل ليجده مقتولاً!!نظرت الزوجة بخبث شديد فوجدت أن العدد قد وصل إلى أقصاه فبدأت تقص على الجميع ما حدث بنفس نبرة الصوت الجهورية، تخبرهم أنها كانت تنظف الغرفة وقد وجدت المذكرات التي سُرقت من الأب جونز وفجأة دخل عليها المساعد الزنجي وكان في حالة توتر شديدة سألها هل وجدت شيئا فأجابته بأنها وجدت المذكرات التي سرقت فحاول أن يأخذها منها

ولكنها أبت فدفعها وهم عليها ليأخذها فراوغته فانهال عليها بالضرب وكاد يقتلها لولا أنها بادرته بالفعل ذاته، رفعت المذكرات إلى أعلى وهي تتحدث فاتسعت عينا الأب جونز وتوترتا، همت إليزابيث واقتربت منها بالكرسي المتحرك وراحت تحتضنها بعدما أخذت منها المذكرات وأعطتها إلى أحد الحراس الذي قام بتوصيلها إلى الأب جونز الذي أخذها ووضعها سريعًا في ملابسه حتى لا يظهر أي شيء منها، ظلت إليزابيث تحتضنها بحجة أنها تحاول أن تُخفف عنها،لإلهاء الجميع عن أمر المذكرات، لحظات ووصل جورج فركض تجاهها واحتضنها وهو يسأل الجميع عما حدث، كان يقبل رأسها ويخبرها أنه أصيب في قدمه بشد عضلي وهو يركض حينما علم بأن زوجته هي من تصرخ!!

- 18 -

أصبح الأب جونز في موقف لا يستطيع فيه أن يتخذ أي ردة فعل، ما خطط له جورج جعل زوجته تظهر بدور البطولة أمام الجميع، فلم يجد الأب جونز سوى أن يُعلن للجميع أن هذا المساعد الخائن قد نال جزاءه، هو كان يخطط للخلاص منه لكنه كان لا يزال في حاجة إليه حتى لا يفسد الصفقة، علاوة على أن هذه ليست هي الطريقة التي يريدها حتى لا ينبُت عند الناس جزء من الثقة بالنفس تجعلهم يتصرفون في أي شيء يجدونه غير مناسب لهم، ما فعلته زوجة جورج سيزرع الجرأة في الجميع وتجعلهم يتجاسرون على كل ما هو غير صحيح وهذا ما يكرهه أي نظام مستبد، ما حدث جعل الأب جونز يعيش حالة من الصراع الداخلي والتوجس، يشعر بالخوف في الوقت الذي لن يستطيع فيه ترهيب أحد من مجتمعه لأنه تلقى هاتفًا رسميًا من الكونغرس الأمريكي يُبلغه فيه بأن هناك أقوال قد وردت إليهم من ذوي العائلات التي تعيش في مدينة جونز أنه يحتجزهم هناك ويمنعهم من السفر، أي أنهم تحت الإقامة الجبرية والأسر، أخبروه بأن بعضهم يشكو عدم رؤية أقاربه منذُ سنتين، لم يخبروه بتلك المكالمة التي تلقوها من داخل المدينة لشخص يطلب النجاة ويخبرهم أنه محتجز هو وعائلته وأنه تسلل على خيفة واستحياء حتى استطاع الإبلاغ عما يحدث خشية أن يقتلهم أو يفعل بهم ما لا تُحمد عقباه، أخبروه بصفة رسمية بأنه تقرر عمل زيارة من الكونغرس بقيادة "ليو رايان"، وهو سياسي من الحزب الديمقراطي ويشغل منصب ممثل عن ولاية كاليفورنيا في الكونغرس ومعه

عدد من الصحفيين والمصورين، زيارة الهدف منها رؤية مدينة جونز وكشف الستار عنها ليُدرك الجميع هل بالفعل ما يُشاع عنها صحيح أم أن المكالمة التي وردت إليهم مجرد افتراء!!زيارة مفاجئة لم يتوقعها الأب جونز، وقد جاءته في وقتٍ حرج فزادته رهقًا وصعبت عليه الأمور أكثر وجعلته يتخلى عن ردة فعله تجاه الزوجة حتى لا تحدث أية بلبله.

عُقد الكثير والكثير من الاجتماعات منذُ أن تلقى الأب جونز ذلك الخطاب الرسمي، حتى أنه كان في بعض الأحيان يدخل إلى مكتبه في الصباح بصحبة مساعديه ولا يخرج حتى موعد النوم، كانوا يجلسون طويلاً يفكرون في الحل الأمثل حتى خرج بعضهم وأخبر الأب جونز أنه يرى أن الحل الأمثل هو رفض هذه الدعوة من الأساس والتعامل مع المجتمع بالعنف والقسوة وسياسة الحديد والنار، الترهيب هو الحل الأمثل، لكن لم ترق هذه الفكرة للأب جونز الذي رأى في رفض الدعوة إثباتا حقيقيا لكل ما يُشاع عنهم، وأنهم بهذا الإثبات سيضعون المدينة تحت المجهر وستكون بؤرة تفكير لدى الحكومة الأمريكية، رأى أنه يجب تخطي هذه الموجة وليس الوقوف أمامها حتى لا تُطيح بكل ما شيدوه، رأى آخرون أن الحل هو عمل إرهابي وتخريبي داخل المدينة ويكون عمل مفتعل ليثبتوا للجميع الخطر الواقع عليهم والذي سينال منهم إذا ابتعدوا عن مظلة الأب جونز الذي يضمن لهم سلامتهم، لكن رفض الأب جونز هذا الحل علمًا بأنه كان يفكر فيه من مدة قصيرة ولكن وجهة نظره أن الآن البيئة غير مناسبة وكذلك الأجواء لعمل مثل هذا التصرف، أخبرهم أنه يريد حلا آخر للتعامل مع الموقف، حل الصمت على الجميع وأخذوا يفكرون في الأمر على نحوٍ جاد حتى توصل الأب جونز نفسه إلى حل رأي فيه أنه الأمثل، أخبرهم بأن الناس حول العالم يؤمنون بالخرافات والأساطير ويتقبلون ما يتكرر أمامهم بشكل مستمر على أنه حقيقة، أخبرهم بأن هناك عدد من الدراسات تؤكد بأن تكرار الكذب على مسامع الناس بشكلٍ دوري يجعلهم

يصدقونه وهذا ما دفع الأب جونز من الأساس لوضع مكبرات صوت في كل مكان حتى في منازلهم ليجعل منها بوقًا إعلاميًا يذيع ويردد من خلاله ما أراد حول قسوة العالم الخارجي وما يخطط له وأن مدينة جونز هي الخيار الأمثل والأسلم، أخبرهم أنه استطاع دمج الكفر بترك المدينة أو عدم الاستماع إلى أوامره ليصيروا شيئًا واحدًا عن طريق تلك الطريقة الساحرة، طلب أحدهم منه التفسير أكثر لما يقصده.

- في تلك الفترة البسيطة التي حكمت فيها المدينة توصلت إلى أن التركيز على كراهية أفراد المجتمع للعالم الخارجي هو ما قد أتى بثماره، خاصةً أنهم جميعًا قد جاءوا من مجتمعات رفضتهم وعاملتهم بشكلٍ سيء، الآن قد توصلت إلى شيء هام،وهو أنهم جميعًا باتوا يمقتون كل ما هو بعيد عن مدينة جونز وهذا ما أود الاستمرار فيه، سألقى باللوم أكثر على العالم الذي جعلتهم يكرهونه وسأردد على مسامعهم ذلك ليل نهار وبأكثر من وسيلة إعلامية حتى موعد الزيارة، سأشعر كل شخص منهم أنه ذو أهمية كبيرة وأن صوته البسيط في الاعتراض على تلك اللجنة ربما يكون هو طوق النجاة، سوف أجعلهم يتهمون كل فرد ينوي فعل أي شيء خبيث بأنه خائن حتى أسلب من الجميع الإرادة لفعل ذلك، سوف أُشعر كل معترض بأنه وحيد ولن يستطيع أن يفعل أي شيء سوى أن يجني كره أفراد المجتمع حتى تمر العاصفة ثم لن يكون لأحد منهم صوت بعد ذلك، سوف أكسر شوكتهم لكنني الآن في مرحلة تُشبه الانتخابات وأنا في حاجة إلى صوت كل شخص أو حتى مشاركته دون الالتفات لصوتِه.

راقت تلك الكلمات لمساعدي الأب جونز وشعروا أنها خطة تتناسب مع الهدف الذي شيدوا المجتمع على أساسه ويضمن لهم الحكم بنسبة كبيرة، وجدوا في ذلك الطريق النجاة فوافقوا على الفور وبدئوا في تنفيذ تلك الخطة.

***

لم يتبق سوى أيام قليلة على زيارة الوفد القادم من الكونغرس وقد توصل الأب جونز ومساعدوه إلى السيناريو الأفضل، والذي يختلف عن كافة ما قد تناوله من قبل فأذن في الناس أن يأتوا بعد انتهاء يوم العمل الطويل إلى قاعة الاجتماعات وكان ينوي أن يُخبرهم بموعد الزيارة، كانت الأجواء في مدينة جونز منذُ مقتل المساعد الزنجي قد أصبحت خانقة وكئيبة بعدما كانت حياة تملأها الحيوية والحب، فكان عليهم أخذ ذلك في الاعتبار أثناء وضع السيناريو الذي هم على شفا تنفيذه، كان الجميع يتحركون تجاه القاعة وقد حلت عليهم غمامة لم تأت من قبل، كان الجميع يتحركون كأنهم يحملون أثقالاً من شدة الاكتئاب، يجلسون في صمتٍ ويتبادلون النظرات، كل منهم لديه العديد من الأسئلة ولكن لا يجرؤ أحد على التحدث، جورج يجلس بجوار زوجته التي تمكن منها الخوف بعدما قص عليها جورج كل ما قرأ وكل ما سمع، المفاجأة المدوية بالنسبة لها كانت هي إليزابيث التي أخبرها زوجها أنه وجدها تتحرك وتمشي من دون الكرسي المتحرك، تسبب ذلك لها بحدوث حالة من عدم التقبل والكره المبالغ فيه حتى أنها كانت تنوي الانقضاض عليها وقتلها بعدما نزعت منها الخوف وهي تشاهد مساعد الأب جونز يُقتل أمامها، لكن حذرها جورج من أي فعل أحمق قد يُكلفهم الكثير، أخبرها أنه قام بإبلاغ مكتب التحقيقات الفيدرالية وأنه يثق تمامًا بأنهم سيأتون، فقط هي مسألة صبر ليس أكثر، كانت هي ترتاب في ذلك الأمر لكن جورج كان يؤكد لها أنه سيحدث قريبًا وكان يراهن على أن الأب جونز سيعلن ذلك لكن بطريقة مختلفة كعادته، لم يمر سوى ثوانٍ معدودة حتى ظهر الأب جونز ومساعدوه، ارتصوا جميعًا على المنصة ووضع مكان المساعد الزنجي حطام كرسي ليشعر الناس بأنهم قد استغنوا عنه وكسروا مكانته لأنه خائن، لعبة دبلوماسية ابتدعها الأب جونز، وقف الأب جونز وفي يده الكتاب المقدس الذي لا يفارقه وأمسك بالميكرفون وبدأ يتحدث للجميع.

- أبنائي، أطفالي الذين أحبهم كثيرًا ولا أستطيع أن أبتعد عنهم يومًا واحدًا، يجب أن تعلموا أن جنتكم قد قامت وتأسست على مبدأ لم يتطرق إليه العالم الموحش الذي جئتم جميعًا منه، إن جنتكم قد ابتعدت في سياستها عن كل ما هو سيء وغير مفيد وأخذت من كل شيء ما هو حسن ومُجدي، نحن هنا لن نعتمد على نظام اقتصادي سيء يقوم على الملكية الخاصة كتلك الأنظمة الرأسمالية التي تعتمد عليها الولايات المتحدة الأمريكية والتي لا تهدف إلا للربح فقط، حتى ولو على جثمان بعض الناس وحياتهم، لغتهم الوحيدة هي المال، نحن لا نربح منكم أي شيء سوى ابتسامتكم، نحن لا نريد سوى سعادتكم، هذا هو المكسب الحقيقي، لم نجعل جنتنا قائمة على فكر اشتراكي بأن يعمل الفرد على قدر طاقته وأن يأخذ على حسب جهده، نحن لم نفعل ذلك، نحن نجعل كل فرد يعمل على قدر طاقته وأن يأخذ على قدر احتياجه، لكننا ابتعدنا في هذا المبدأ عن الشيوعية حتى لا نصبح مجتمعا ديكتاتوريا، نحن هنا اتبعنا نظاما مختلفا غير مُفعل في العالم سوى هنا في جنتنا، لا يعملون به في العالم الخارجي القائم على المصلحة وامتصاص دماء الشعوب، نحن هنا نقوم على نظام له قلب يشعر بكم، الوضع في الخارج أصبح سوداويًا وسيئا إلى أبعد مدى، وقد استمعتم بأنفسكم إلى بعض شهود العيان، أنتم هنا تعيشون في أمان، في سلام، في رخاء، لن نصبح مثل أمريكا وكل بلدان العالم الخارجي، لن نتركهم يهدمون جنتنا، هنا نحن نعيش تحت مظلة مدينة الأب جونز، أبوكم الذي يحبكم والذي لن يترك أحد يلحق بكم أي أذى، حتى ولو كان مساعد من المساعدين الخاصين بي، لن أترك أحدا يعبث معكم أبدًا.

انتهى الأب جونز من كلامِه فراح بعض المدسوسين ينهضون ويصفقون بحرارة على ما قيل فراح ذلك الجليد الذي قد بدأ يحول بينهم يذوب، بل إن كل من كان يرتاب في ذلك المكان عدّل فكرته، نظر جورج إلى زوجته التي كان يتضح عليها الأمر وطلب منها بعينيه أن تستمع جيدًا لأن الأب جونز الآن يمهد الطريق للإعلان عما

سيقلب كيان المدينة، لم ينته جورج من النظر إليها حتى خرجت سيدة تجلس على كرسي متحرك، خرجت عن صمتها وراحت تتحدث مع الأب جونز بغضبٍ عارم، تخبره بأنها طلبت منه عدة مرات أن يطلب شفاءها من الرب وهو يسوف ذلك، كانت طريقتها هجومية وبها كم هائل من العجرفة دفعته للاستياء منها، خاصةً أن هذا الحديث يحدث أمام الناس أجمعين، طلب منها أن تصمت لكنها أبت وظلّت ترفع في نبرة صوتها وتتهكم عليه وعلى أفعاله وتتهمه بالنصب مما دفع الجميع للنظر إليها وهم لا يصدقون ما تتناوله آذانهم، احتقن وجه الأب جونز ونهرها فلم تستمع إليه فطلب منها أن تأتي إلى المنصة، تحركت بالكرسي المتحرك أمام نظرات الجميع حتى أدركت المنصة، هناك كان الأب جونز قد احتد بصره وشعر بالإحراج الشديد فبدت عليه أماراته، عيناه تنظران لها شزرًا.

- أنا كنت أنوي ألا أتحدث معك بخصوص هذا الأمر لكن ما فعلتِه للتو لا يوجد به أي احترام أو تقدير، لذا إليكِ ما كنت لا أنوي الحديث عنه، الرب رفض شفاءك.

تعالت الآهات وتعاطف معها الجميع، انكمشت ملامحها وراحت تبكي من شدة وقع الجملة عليها حتى أن بعض الحاضرين بدأوا يتعاطفون معها، أردف الأب جونز حديثه.

- لكن الرب رحيم، ليس ظالمًا، الرب يمد يد المساعدة لكن من طريق آخر، طريق ستشعرين في نهايته بالسعادة الأبدية.

- وما هو؟!!

قالتها وعيناها تمتلآن بالدموع فمد يده بداخل جيب السترة التي كان يرتديها وأخرج زجاجة صغيرة أشهرها في وجه الجميع.

- عن طريق هذه.

اعتلت علامات الاستفهام كل وجوه الحاضرين فما كان منه إلا أن أخبرهم

جميعًا أنه سم، سم قاتل، عليها أن تتجرعه وستذهب إلى الجنة، هنا توقف الزمن وتوقف كل شيء، تجمد الجميع بالنظر إليها والبعض الآخر كان ينظر لزجاجة السم، الجميع يترقب ردة الفعل المنتظرة فما كان منها إلا أنها أصابتها حالة من الذهول ففتحت ثغرها وأصابتها البلاهة الشديدة، تعالت دقات قلبها حتى أنها أصبحت مسموعة، أردف الأب جونز أنه إذا كانت تريد أن تأخذ برأيه الشخصي فلتتجرعه ولتصعد إلى الرب ليتولى أمرها وليمُن عليها بحياة أخرى دون ألم، ظلّت المرأة تتأرجح بوعيها بين الأمرين الموافقة والرفض وسط نظرات الجميع الذين أصيبوا بالصمت التام وعدم المشاركة لأنهم لم يجدوا ما يقولون، توترت الأجواء وتصاعدت الأحداث الموجسة للقلوب، لم يصمت الأب جونز في هذه الأثناء بل زاد من صب بعض الجمل والعبارات في أذنها وأذن الجميع، عبارات كانت تحثها على شيء واحد فقط هو الثقة فيه وفي قراره وفي الرب قبل أي شيء، لم تجد تلك السيدة العجوز أي مفر سوى أن تقترب أكثر من المنصة وتأخذ من الأب جونز الزجاجة وسط نظرات الجميع التي يتجسد بها الذهول، فتحت الزجاجة ونظرت إليها ثم إلى الجميع، كانوا يفتحون ثغورهم ويرمقونها بثبات حتى أن بعضهم راح يحذرها من فعل ذلك بل ويمنعها، حاولوا رشق بعض الكلمات التي تقلل من حماسها وتعيدها إلى رشدها لكي يمنعوها من أن تقتل نفسها، نظرت إلى الأب جونز فوجدته يبتسم لها ويهز لها رأسه بهدوء كأنه يسمح لها بفعل ذلك، ارتفع صوتها في الجميع.

- أنا لا أعلم أي مصير ينتظرني، لكني واثقة تمامًا من أن الأب جونز لا يريد لي ضرًا ولا أذى لذلك سوف أسير خلف كلامه وأنا واثقة فيه.

ابتسم الأب جونز ابتسامة خفيفة على أثر كلامها، كان يشعر بسعادة تغمره حتى النخاع، نظرت إلى الزجاجة ثم تجرعت ما كان فيها وسط صراخ بعض الحاضرين، أغمضت عينيها ونظرت إلى السماء، فردت يديها عن آخرها فسألها الأب جونز ماذا تفعل؟؟!!

- أستعد للموت.

قالتها وهي على نفس الشاكلة فابتسم الأب جونز ثم أخبرها أنه كان مجرد امتحان للولاء وأنها قد نجحت فيه، فقط لأنها تثق به وبقراراته، أخبرها بأن الرب قد غفر لها وسامحها بل إنها لن يصيبها أي أذى من السم، صاح الجميع فأردف بأن الرب قد أذن لها بالشفاء فلا كرسي مُتحرك بعد اليوم فازداد الجميع في الصياح ثم أمرها أن تقف ففعلت ذلك بسهولة ويسر وسط تصفيق حاد من الجميع، وصل الأب جونز إلى ما يريد من السيناريو الذي كان يرسخ للجميع فكرة الولاء، الولاء والطاعة العمياء، استغل ذلك وأخذ يخبرهم بأن العالم في الخارج يريد الإطاحة بهذا المجتمع الناجح وأنهم يريدون أن يعيدوهم مرة أخرى إلى العبودية، زرع السم الذي أرادهم أن يتجرعوه داخل العسل حتى يصل إلى ما أراد، أخبرهم عن الزيارة المرتقبة التي ستأتي من الولايات المتحدة الأمريكية وأن عليهم أن يظهروا أمامهم بالمظهر الجيد وألّا يشكُ منهم أحد، لأن أشد الأشياء التي سيجدها هنا لا تساوي شيئا في مصائب الخارج، هنا جاء دور مجموعة قليلة من الحاضرين قد تم الاتفاق معهم بالتنديد بهذه الزيارة، أخذوا يهتفون أن تحيا مدينة الأب جونز وأن يحيا الأب جونز فبدأ البعض بالانسجام معهم وأخذ العدد يتزايد ثم بدأ أحد المأجورين بسبب الزيارة ومن سيأتي إلى هنا لكن تدخل الأب جونز وطلب منهم أن يتعاملوا معهم بالحسنة وألّا يظهروا أي ضيق تجاههم حتى يكونوا بمثابة دعاية جيدة للمكان.

***

حقق الأب جونز من خلال ذلك اللقاء ما أراد، استطاع أن يجذب ثقة أفراد المجتمع مرة أخرى عن طريق ذلك السيناريو المرسوم بعناية فائقة، لكنه كان لا يريد أن يترك لهم أي مجال للنسيان أو التفكير في أي ثغرة تبعدهم عن ذلك الهدف

الأوحد فكان عليه أن يلجأ إلى تلك الحيلة التي ذكرها من قبل "تكرار الكذبة حتى تصبح حقيقة" فقام بالتحدث إليهم ليل نهار في بوق الإعلام الوحيد حتى حفظ الناس ما يريد بطريقة غير مباشرة، كان يتحدث إليهم بنبرة صوت هادئة تنُمُّ على أنه لا يريد سوى مصلحتهم والخير لهم، كان لا يطلب منهم سوى أن يظهروا الرضا والسعادة أمام تلك الزيارة وأن يتحاشوا الأحاديث الجانبية معهم، وإذا طلب منهم أحد عمل حديث صحفي يرفض ويخبره أنه لا يريد ذلك حتى لا يجلب الضرر له ولجنة عدن، مرت الأحداث على تلك الشاكلة حتى يوم السابع عشر من نوفمبر لعام 1987حيث موعد وصول اللجنة بقيادة عضو الكونغرس ليو رايان، وصلوا إلى المدينة فوجدوا الجميع في انتظارهم، استقبلوهم استقبالا حافلا بالورود والابتسامات التي تتسع من الأذن إلى الأذن، حملوا اللافتات التي تحمل عبارات الترحيب بعضها بصفة عامة وأخرى بصفة خاصة، كُتب عليها اسم عضو الكونغرس الذي كانت على وجهه علامات دهشة شديدة لما وجد من استقبال وسعادة من الناس، هو كان يتوقع عكس ذلك بسبب التقرير الذي وصل إليه والمكالمة المُسجلة التي استمعوا إليها، جورج كان يقف وسط هؤلاء غير سعيد حتى ابتسامته كانت ضئيلة وشحيحة فتدرك أنها غير حقيقية حتى وإن كنت لا تمتلك أي خبرة، كان يقف وسط أسرته ينوي تنفيذ خطة ما قد أعدلها، سيذهب إلى هناك ويتحدث إلى عضو الكونغرس، لكنه لاحظ شيئا ما جعله يقلع عن تلك الفكرة ويعدل عنها، وجد أن هناك واحد من الحرس يراقبه منذُ أن انتهوا من تناول الإفطار، كان يتحرك معه كظله أينما ذهب، كان جورج يريد أن يثبت ذلك لنفسه فكان كل فترة يتحرك بعيدًا عن أسرته ويتخفى وسط بعض الناس ثم ينظر حوله فيجد ذلك الحارس يتواجد بالقرب منه، يتظاهر بعدم الانتباه له لكن جورج يعي ذلك جيدًا، أدرك أيضًا أن زوجته هناك من يلازمها فوصل إليه أن الأب جونز بدأ يرتاب في أمرهم بعدما حدث لمساعده وأنه بكل تأكيد سوف يتخلص منهم بعد مرور هذه الزيارة التي تعتبر بالنسبة له طوق

نجاة وفرصة أخيرة، وبالرغم من ذلك عدل عن خطته وانتظر ظهور زاوية أخرى يمكن من خلالها تنفيذ ما أراد حتى إذا لم تأت بثمارها لا يجني مساوئها.

ليو رايان في حالة من الدهشة الشديدة وهو يجد حوله ما يحدث من استقبال وردود أفعال، لكنه كان يدرك أن ذلك عُرف دبلوماسي في كل اللقاءات الرسمية، خاصةً أن إدارة مدينة جونز على علم بموعد الزيارة، بدا الناس جميعهم متأنقين أمامهم مما دفعه لطلب التجول بنفسه داخل المكان، كان ذلك الطلب متوقع وليس مفاجئ بالنسبة لإدارة مدينة جونز فوافق الأب جونز وسمح لهم بالتجول الحر فراح الصحفيين يلتقطون الصور هنا وهناك لأشخاص تبتسم وتُشير بأصابعها بعلامة النصر، أخذ يتحرك داخل الممرات التي تتوسط المنازل حتى يجد شيئا غريبا أو مخالفا فلم يجد، كان الصحفيون يحاولون عمل تحقيق صحفي على الجانب الآخر فكانوا يتحدثون إلى بعض أفراد المجتمع ويسألونهم عن مدينة جونز فيحصدون الإجابات الرائعة التي تُشعرهم بأنهم يعيشون حقًا في الجنة ولا طائل لهم بالخروج منها، كانوا يتحدثون عن الأب جونز بأنه أبوهم ومخلصهم وهو أفضل شيء حدث لهم طوال حياتهم، في هذا التوقيت كان ليو يطلب الدخول إلى منزل عشوائي فسُمِح له، دلف إلى منزل امرأة عجوز زنجية، كان منزل منمق ومرتب، سألها عن المكان فأخبرته أنه رائع حقًا، سألها عن الأب جونز فأخبرته أنه الأب الإله لها.

ظل اليوم بأكمله يتنقل ويتجول داخل المكان ولا يحصد إلا هذه الإجابات التي جعلته يتأكد أن كل شيء هنا يسير على نحو جيد، إجابات وضعت جورج في موقفٍ سيء وجعلته يفكر جيدًا فيما ينوي فعله لأنه سيكون الرأي الوحيد المنفرد داخل المدينة وهذا ما يريده الأب جونز، جورج كان على علم بأن هؤلاء القوم لا يشعرون بالسعادة والرضا الذين يتكلمون عنها، هم أحوج الناس إلى الخروج من هذه المدينة الديكتاتورية التي لا تختلف عن العالم الذي كانوا يعيشون فيه، هم

جميعًا جاءوا إلى هنا على أمل أن تكون هذه المدينة هي أمل المهشمين والمقهورين الذين يحلمون في يوم من الأيام أن يشعروا بأنهم أصحاب حق وأصحاب وطن حقيقي، جميعًا يخشون ردة فعل الأب جونز فيُعرض كل منهم عن أن يكون هو المُضحى بنفسه، جعلوا جميعًا من الخوف مستشارًا لهم فصدهم عن السبيل ولبثوا في العذاب المُهين، كان جورج يقنع نفسه بأنه إذا تحرك أحد وبادر بكشف الستار أمام اللجنة سيغرس في نفوسهم القوة والقدرة على التعبير وإظهار الحقائق فقرر أن يكون هو ذلك المُضحى الذي سيلقي بالحجر في المياه الراكدة، لكنه كان يبحث عن الآلية لتنفيذ ذلك.

مر اليوم وقد حل المساء على الجميع، أقام الأب جونز عشاء على شرف اللجنة التي استطاع خداعها بترغيب وترهيب أفراد المُجتمع، حُشر الجميع في القاعة المُخصصة للاجتماعات، جلس رايان على المنصة بجوار الأب جونز ومساعديه وانتشر الصحفيون بين الناس في القاعة، تبرع جزء منهم وأخذ يلتقط الصور والفيديو ليوثق الحدث، جلس جورج بجوار زوجته وأطفاله، يتجول بعينيه في المكان فاكتشف أن ذلك الحارس لا يزال يلتصق به وكذلك زوجته، جورج أعد خطة بديلة لتكون شرارة الانطلاقة، وقف الأب جونز بصحبة كتابة المقدس وراح يخطب في الجميع، يتحدث إليهم بصوته الرائع وكلامه الجذاب، ينتقي كلماته ليثني على اللجنة ومن قبلها على مدينته التي أعدها، طلب من أعضاء اللجنة ألا يأخذوا جنتهم على نحو سطحي وأن يتعمقوا في الفكرة الأساسية التي على أساسها تم تأسيس كل شيء، كان يرجوهم أن يعطوا لعقولهم المساحة الكافية لفهم الأمر ثم طلب من رايان أن يُلقي كلمة على الحاضرين، وقف رايان وأخذ الميكرفون وشرع يتحدث إليهم.

- من خلال الأحاديث التي أجريتها هنا طوال اليوم مع بعض الأشخاص الذين يعيشون هنا في مدينة الأب جونز أو في جنة عدن كما ذكروا، فقد اتفق الجميع على

شيء واحد وهو أن هذا المكان أيًا كان مسماه هو أفضل شيء حدث لهم في حياتهم وأنهم هنا يعيشون في الجنة التي وعدهم بها الرب في كتابِه المقدس.

صاح الجميع وهلل وابتسم الأب جونز ابتسامة تنُمُ على أنه يشعر بالتوتر الشديد والقلق، بدأ ذلك الإحساس يتزحزح بعض الشيء، وقف أبن جورج فجأة ووضع يده على أسفل بطنه وطلب من أبيه الذهاب إلى دورة المياه فأمر أخته بالذهاب معه كي يقضي حاجته، كان ابنه يشعر بألم شديد في معدته ويقفز على الأرض بقدمِه، أخذته أخته وشرعت بالذهاب إلى هناك، همت زوجة جورج بالذهاب معهم فوضع يده على فخذها وضغط عليها بأن لا تتحرك وهو لا ينظر إليها، نظرت إليه فأمرها أن تنظر أمامها وألا تلفت الانتباه فهم متبعون، هدأت والتزمت الصمت وتأكدت أن جورج قد أعد شيء ما مع أولاده وهم شرعوا في تنفيذه، تحرك ابنه بسرعة وابنته تحاول أن تجاريه حتى وصلا إلى المنزل، كان جورج قد توصل إلى حل يعتبر هو الأسلم، كتب ورقة ووضع فيها المعلومات التي يريد أن يوصلها إلى اللجنة وطلب من ابنه أن يصطنع الذهاب إلى الحمام ولتأخذه أخته وتذهب به إلى المنزل، وهناك وضع الورقة في مكانٍ آمن حتى إذا جاءت المنزل أخذتها وأعطتها لأحد الصحفيين الجالسين بين الناس في قاعة الاجتماعات، خطط جورج لذلك بحيث لا يدرك الحارس الذي يراقبه ما ينوي فعله حتى إذا لم ينجح الأمر لا يجلب لهم المزيد من السوء، أخذت ابنته الرسالة وعادت إلى التجمع الذي يوجد في القاعة، ولكن هذه المرة قررت أن تتحرك من المنتصف، تحركت بعينيها في كل مكان حتى وقع الاختيار على صحفي كان يبدو عليه من الوهلة الأولى أنه ذو شأن عظيم، عقدت العزم على الذهاب إليه، اخترقت القاعة وراحت تسلُك بين الناس حتى إذا اقتربت منه تظاهرت بالسقوط على الأرض فهَمَ يساعدها، أمسك يدها فوجدها تضع في يده ورقة، شعر بها ونظر إليها وعيناه التقت بعينيها فأخبرتهما بصمت أنها تحتاج للمساعدة ثم ابتعدت عنه دون أن تنطق بكلمة

واحدة، ظل الصحفي ينظر إليها وهي لم تلتفت له، ظل يتابعها بعينيه حتى وصلت إلى مقعدها وجلست دون أن تلتفت إليه، عاد الصحفي إلى مقعده وجلس، هَمَ يفتح الورقة ليقرأها فوجد بداخلها:

(النجاة!!هنا مدينة الجحيم، لا تتركونا هنا وتنصرفوا، نحن غير مسموح لنا بالرحيل، لا تخبر أحدا من أنا، وأرجو منك المساعدة).

الفصل الأخير

أسر الصحفي ما حدث في صدرِه ولم يبده لأحد، فضل أن يمر اليوم كما هو حتى يفكر في كيفية التعامل مع الموقف على أحسن وجه، ارتقب حتى انتهى الحفل وذهبوا جميعًا إلى المنازل التي أعدها لهم الأب جونز ليقضوا فيها الليلة، كان رايان يشعر بالسعادة والرضا عن الزيارة وشعر أن ما تم الإبلاغ عنه مجرد إشاعة مغرضة، الهدف منها هدم ذلك المجتمع السعيد على الرغم من بعض الأفعال التي كانت تثير التساؤلات لكنه غض البصر عنها أمام ما وجده من تعاون وحب داخل ذلك المجتمع المثالي ، أصر ذلك الصحفي الذي أخذ الورقة من ابنة جورج أن يقيم ليلته في المنزل الذي يقيم فيه رايان ليعرض عليه الأمر ليفكروا فيه سويًا وليتفقوا على الحل الأمثل له ، وما إن استتب الوضع حتى صب في أذنه كل ما حدث، أخبره بأمر الورقة ثم عرضها عليه ليقضوا جميعهم الليلة بلا نوم، فقط يفكرون في هذا الأمر الذي جعلهم يُعيدون التفكير ويتعمقون إلى ما يتوارى خلف الستار حتى اتفقوا جميعًا بأن الأب جونز لا يفعل ما يبرزه أمامهم منذُ أن وصلوا إلى هنا، ما وجدوه داخل الورقة لا ينُمُ سوى على أن الأب جونز ما هو إلا ديكتاتور قمع حرية كافة أفراد المجتمع ففعلوا ما أراد أمامهم حتى يبتعدوا عن بطشه وطغيانه، تبادلوا أطراف الحديث حتى قرر رايان مواجهة الأب جونز في الصباح بالأمر ومساعدة كل من يرغب في الرحيل مهما كلفه الأمر.

على جانب أخر قضى جورج الليلة مُسهدًا يفكر في المصير الذي ينتظره في الصباح!!كان يود ألا يظهر أحد من عائلته في ذلك المشهد لكنه كان لا يمتلك أي حل آخر ولا خطة أفضل من تلك التي شرع في تنفيذها، اقتربت منه زوجته وهي تحمل ما قد ينوء بحمله الرجال لكنها أخذت تخفف عنه ما هو فيه، تُهدئ من روعه وتخبره بأن الرب الإله لن يتخلى عنهم كما لم يتخل عنهم من قبل، اعتدل جورج، نظر إليها وعيناه بها من الحزن ما لم يتسع لحزنٍ آخر، أخبرها بأنه كان ينوي الحديث معها في أمرٍ هام وقد جاء الوقت المناسب الآن , كان الأمر مباغتًا فانتبهت له وقلبها كاد أن يخرج من بين ضلوعها من فرط القلق .

- الأمر لن يمر بسلام .

- ماذا تقصد !!!

- الورقة التي أرسلناها إلى رايان عن طريق الصحفي لن تكون طوق النجاة لنا .

- كيف !!!

- الأب جونز لن يترك أحد يغادر المكان أنا على يقين بذلك , لن يجعل الأمر يمر مرور الكرام، سوف يفتعل أي شيء يجبرنا به على الانتظار وعدم المغادرة.

- لماذا؟؟!!

- حتى لا ينشر أحد منا ما يحدث هنا .

- رايان عضو الكونغرس لن يستطيع الأب جونز منعه .

- الأب جونز لديه من الذكاء ما يجعله يتحايل على الوضع , سوف يجعل الأسر ترفض المغادرة .

- كيف !!

- لا أعلم تحديدًا ولكن أعتقد أنه لن يسمح لعائلة بالكامل بالانصراف، سيصر

على انصراف جزء منها والإبقاء على الجزء الآخر حتى يجعلهم هم من يرفضون الرحيل، سيتمسك بالأطفال مثلا هنا أو يأمر بأن يذهبوا معه ويبقى الأبوين هنا .

اتسعت عينا الزوجة وظلت تنظر إليه بدهشة فأردف.

- لو حدث أمر كهذا أريدك ألّا تلتفتي لشيء، فقط تأخذي الأطفال وتتحركي بلا نقاش.

- عن أي شيء تتحدث!!لن نتركك هنا.

زفر جورج.

- هذا ما تحدثت معكِ من أجله، أنا لن أستطيع أن أعود إلى أمريكا، أنا متهم بجريمة قتل، لن تنجون وأنتم معي، وجودي معكم سيشكل خطرا دائما وسنضطر للهرب أو الاستسلام لحكم الإعدام، أنتم لن تتعرضوا للمحاكمة ولن تكونوا وسيلة ضغط لي.

- وهنا هل ستحيا حياة كريمة؟!!

- لا، ولكن هنا الوضع هش وسيصبح هشا أكثر عندما تصلوا إلى أمريكا وتقوموا بقص ما حدث على الجميع، وإن حاول أحد التشكيك أعط له هذه.

أخرج جورج المفكرة التي كان صديقه ديفيد قد كتبها عن كل ما رآه في مدينة الأب جونز.

- ما هذا؟!!

- إنها مذكرات صديقي ديفيد التي حدثتك عنها من قبل، أعطها إليهم ولن يتركوا هذا الديكتاتور يحيا كما هو، إنه يفعل ما يفعله لأنه يغشي أبصار العالم ويخدعهم عن طريق السعادة البالغة التي يفرضها بالإجبار علينا، بعد ظهور تلك المذكرات سينكشف الأمر وسيأخذ مسارًا مختلفًا عما سبق، الديكتاتور يكره أي بوق إعلامي

غير ذلك الذي يذكر محاسنه، وهذا سيكون السبيل الذي نسعى إليه، وحينما ننتهي من هذا الديكتاتور بهذه الطريقة سنحاول أن نستعطف الشرطة بالعفو مقابل هذه المذكرات وما قدمناه للتخلص منه.

- إذن فلنذهب سويًا ونقدمها ونطلب العفو.

- لقد أخبرتك أن الأب جونز لن يتركنا نمضي هكذا، سيفعل أي شيء يجعلنا نحن من نفضل البقاء حتى لا يرفض أمام اللجنة، كل ما عليكِ فعله هو ما أطلبه منك، أنا لم أخطط لشيء سيء حتى الآن فقط ثقي بي، ثقي بي من فضلك.

- ولكن هذا الأمر بمثابة تضحية كبيرة!!

- مهما غلا ثمنها فالتضحية في سبيل العائلة تهون، علاوة على أنني من وضعتكم في هذا الموقف من الأساس.

- جورج لن استطيع أن أتركك .

- سوف أعود , لن أموت هنا , أعدك بذلك .

- وما ضمانة ذلك الحديث !!!

- الضمانة الوحيدة هي تلك الكلمات التي أخبرتني بها زوجتي صالحة , الرب الإله لن يتخلى عنا كما لم يتخل عنا من قبل .

لم تتمالك نفسها , فاضت عيناها بالدموع فارتمت في أحضانه تبكي كالطفلة التي وجدت أبويها بعدما ضلت طريقهم لأيام , أحتضنها جورج كما لم يحتضنها من قبل , طبع قبلة على جبينها وحاول أن يهدئ من ذلك التوتر الذي يضرب كيانها بكل قسوة .

ظلا يتبادلان الحديث حتى أشرق صباح اليوم التالي، وهو اليوم المُقرر فيه انصراف اللجنة وعودتها إلى حيث أتت، تجمع كل أفرادها وكان الأب جونز قد طالب الجميع

بالحضور لتوديعهم بناءً على طلب رايان الذي كان يود مواجهة الأب جونز أمام الجميع، فطلب طلبًا خبيثًا لم يستطيع الأب جونز قراءته على الرغم من ذكاءه الشديد , طلب رايان توديع جميع أفراد المجتمع حتى يُحشروا ويقوم هو بإلقاء القنبلة التي بحوزته، هكذا كان يخطط رايان للأمر , انتظر حتى حُشر الناس جميعًا ثم قدم له الورقة وطلب منه تفسيرا لها، كان الأمر مفاجئًا وغير مرتب له مما أعطى مجال كبير للارتباك والفوضى , بيد مرتعشة أمسك الأب جونز بها وظل يتجول فيها بعينيه مرارًا وتكرارًا وقد بدت عليه بعض آثار ما قد بدأ يشعر به، شحب وجهه قليلاً وتغيرت ملامحه على الرغم من أنه حاول منع حدوث ذلك، الغضب يتسلل إليه حتى أنه بات لا يستطيع حجبه وبدا أمام الجميع أنه سيفقد صوابه في أي لحظة كأنه على شفير الهاوية.

- أريد تفسيرا منطقيًا منك على هذا أيها الأب!!

ظل ينظر إلي تلك السطور القليلة طويلاً , هو لا يقرأها ولا يعطي لها ذرة واحدة من تفكيره , هو يحاول استعاد توازنه , أغمض عيناه لثوانٍ ثم ابتلع ريقه ليصدر ذلك الصوت المسموع قبل أن يشرع في إجابته بهدوء زائف .

- إن هذا الأمر مفتعل!!أنت من كتبت هذه العبارة، أنت تريد أن تقضي على مجتمعنا الهادئ.

- ماذا تقول؟!!أنا لم أكتب شيئا، هذه الورقة مررها أحد أفراد المجتمع إلى صحفي من اللجنة ويرجونا بألّا نفصح عن أسمه حتى لا يطوله عذابك، يبدو أنك ترهبهم وتُهددهم، نحن لن نفصح عنه خشيةً أن يصيبه مكروه، لكن في الوقت نفسه بعد هذه التهمة التي وجهتها لي قد تأكدنا بأن كل ما ظهر أمامنا أمس كانت خدعة، سيناريو كُتب بحرفية وتم تنفيذه تحت التهديد والترهيب.

- أنا لا أُرهب أحدا، أنتم من تريدون أن تقضوا على المجتمع الناجح , أنتم تتربصون بنا , تريدوا لنا الهزيمة والخراب .

ارتفع الصوت بالحد الذي بدأ معه الحديث يتحول إلى الشجار بالألسنة.

- لا هذا غير صحيح ، الحقيقة أن هذا المجتمع يحمل ما لم تظهره أنت بالأمس.

- أنت كاذب .

- لا أنت الكاذب .

أحتد النقاش وارتفع الصوت وبدأ الذعر يتسلل للجميع .

نظر الأب جونز إلى الجميع وطلب ممن فعل ذلك بأن يتقدم و يعترف ولا يخش أحدا، طلب منه أن يخرج و يعترف بذلك وأنه لن يتعرض لأي مضايقات ولن يتم طرده من المدينة , كان ودودًا وحليمًا معهم لأبعد درجة فنظر الجميع إلى بعضهم البعض وبدئوا يتجولون بأعينهم بحثًا عمن سيقر على نفسه فلم يتجرأ أحد ويخرج ليرفع يده، نظر الصحفي بعينيه وبحث عن الفتاة فلم يجدها وسط الحاضرين من الأساس !! ، هو لن يعترف عليها ولكنه كان يريد أن يجدها ولكنها لم تكن هناك .

- أرأيت بعينك، لم يخرج أحد ليعترف بذلك، أنت من افتعل هذا، أنا متأكد.

- يبدو أنك ترهب الناس وهم يخشون ردة فعلك وقسوتك معهم بعدما نمضي، أنت تجبرهم على ذلك، أنا لن أترك هذا المكان وهناك شخص واحد يتعرض للأذى .

- لا يوجد أحد هنا يتعرض للأذى .

- يجب أن أتأكد بنفسي , لن اعتمد على أي كلام تخبرني به .

احتد وجه الأب جونز وظهرت عليه علامات الضيق والضجر أكثر من أي وقت مضى .

- اذهب من حيث أتيت ولا تعد إلى هنا، اتركنا نحيا في سلام ولا تأت إلينا، نحن ابتعدنا عنكم وعن عالمكم المليء بالاضطهاد والعنصرية، اتركونا وارحلوا.

- لن نذهب وهناك أُناس عالقون هنا.

- أخبرتك بأن لا يوجد شيء كهذا .

- وأنا أخبرتك بأنني يجب أن أتأكد بنفسي .

نظر إلى الجميع وبدأ يتحدث إليهم يخبرهم أنه لن يترك أحدا هنا يريد الرحيل ويتركه، وأن كل من يريد ذلك فعليه التوجه إلى منزله ليجمع أغراضه ويذهب إلى السيارات التي ستنقلهم إلى مدرج الطائرات الموجود في "بورت كايتوما" استعدادًا للرحيل!!!

انتاب الأب جونز حالة من الذهول والذعر والمفاجئة وكل ما يجعل القلب ينبض بأقصى قوة , ظل ينظر حوله في دهشة شديدة لا يصدق أن زمام الأمور قد بدأت تفلت من يده، هب واقفًا ثم وبخ رايان على فعله هذا وأخبره أنه ليس لديه الحق بالتحدث إلى أحد من سكان مدينته وأنه لو أراد شيئا فيجب أن يتحدث معه هو ولا يتحدث مع أحد مباشرةً، لم يأخذ رايان هذا بمحمل الجد بل إنه تعامل مع كلام الأب جونز على أنه اللاشيء، أعاد على الجميع ما قد سبق وأخبرهم به وطلب منهم ألا يخافوا ولا يحزنوا وأن هذه هي فرصتهم الوحيدة للنجاة وإن لم يتحلوا بالشجاعة الآن فلن تُتاح هذه الفرصة لهم مرة أخرى، تعالت الهمهمات بينهم وأسروا جميعهم النجوى، هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا، شعر الأب جونز بموجة من التوتر وزمام الأمور تفلت من يديه شيئًا فشيء، احتد وجهه ورمق رايان بطرف عينه بغلٍ وضيق ثم ترك الجميع وانصرف، رايان كان يشعر بأن السلطة التي يمتلكها والمركز الذي يعتليه ستحميه من أي شيء فوقف يتحدث إلى الجميع للمرة الثالثة ويُخبرهم أنه لن يترك أحدا هنا يريد أن يرحل، يتحدث إلى الجميع لتحريك المياه الراكدة، خرج عليه أحد الحاضرين والذي كان من أتباع الأب جونز الذين يدسهم وسط الحشود لإفساد أي مقاومة ووئد أي فكرة مضادة لإرادته , بدأ يزعق بشدة في وجهه ويتهمه هو ومن معه بأنهم عملاء قد جاءوا من العالم الخارجي الذي أخبرهم به الأب جونز ليقضوا على جنتهم التي ينعمون بها، احتد على رايان الذي ظل ينظر

إليه ويبتسم ويخبره أنه لا يريد ذلك، لم يتوقف الاعتراض عند هذا الحد بل بدأ آخرون الانضمام إليه يتهمون إياه بالخيانة والعمالة، لم يتركوا المجال لكلامِه كي يؤثر علي الجميع، هذه كانت أوامر الأب جونز لحراسِه ولأتباعه الذين يدينون له بالولاء، أخبرهم بأن هؤلاء الذين ينتمون للعالم الخارجي قادرين على سحرهم بالكلام فلا يتركوا لهم المجال، زرع الأب جونز عددا من المأجورين الذين يفعلون ذلك ليشعروا هؤلاء المخدوعين بأنهم ليسوا الوحيدين فيصبح التأثير فعالا، احتد كل الذين يدينون للأب جونز بالولاء وظلّوا يلقون التهم غير الحقيقية على رايان الذي يريد مساعدتهم فبدأ يحتد هو الآخر ويأمرهم بأن يصمتوا، في هذه الأجواء بدأ جورج يتلفت حوله، فهو لا يجد زوجته ولا أطفاله، ظل يتجول بين الجميع وهذا الحارس لا يتركه ويراقبه، عيناه معه أينما ذهب فهذه أوامر الأب جونز الذي كان ينوي شيئا سيئا لجورج وزوجته بعد انقضاء الأمر، خرج أحد التابعين للأب جونز وفي يده خنجر صغير، حاول الاعتداء به على رايان الذي تفادى الضربة الأولى لكنه لم يستطع تفادي الثانية التي أصابت كتفه بجرحٍ ليس بالعميق ولكن نزف على أثره الدماء التي صبغت قميصه الأبيض باللون الأحمر الغامق، تدخل بعض الصحفيين وكذلك رجال الحرس الذين كانوا على علم بما سيحدث لكنهم أرادوا أن يقذفوا في قلب رايان الرعب لينصرف، فتركوا هذا الشخص المتفق على فعله بإرهابه ثم تدخلوا ليتظاهروا أمام الجميع بمنعه، صرخ في وجه رايان يطالبه بالرحيل عن جنتهم التي أعدها لهم الأب الإله جيم جونز!!صرخ وهو ينعته ويتهمه بالكفر وبالتخريب، يصفه بأنه عميل جاء من أجل هدم هذه الجنة!!

***

زوجة جورج كانت تكمن في صدرها خطة بديلة لكنها لم تفصح عنها حتى لا يفسدها عليها زوجها، تعمدت أن تقف بعيدًا عن التجمع الذي يضم الكثير من

الناس حينما دعاهم الأب جونز لتوديع اللجنة قبل أن تنصرف بناءً على طلبهم، تعمدت التأخير لتبق على حافة الدائرة من الخارج ولا يشعر بها أحد، انتظرت ظهور الفرصة المناسبة لتشرع في تنفيذ ما خططت له، وحينما ارتفع الحوار واشتد بين رايان والأب جونز بدأ ينتبه الجميع إليهم وصب الحرس والموالين تركيزهم مع الموقف، فرصة ذهبية سمحت لها بالانسحاب بصحبة أبنائها إلى حيث السيارات التي قد أعدها الأب جونز إلى اللجنة ليذهبوا بها إلى المطار، حينما ارتفع الصوت تحرك الجميع تجاه النقاش وظلّت السيارات بلا حراسة، بهدوء اقتربت من السيارة بصحبة أبنائها بتلك الوضعية التي انحنى فيها جسدها وكانت تتحسس الحركة وتتلفت بعينيها في كل مكان، بهدوء فتحت حقيبة السيارة وأدخلت أبناءها، طلبت منهما أن يختبئا في أسفل الحقيبة ووضعت عليهما ما يُخفيهما عن الأنظار، أعطت لابنتها المذكرات التي كان قد أعطاها لها جورج وطلبت منها تسليمها إلى أعضاء اللجنة بعد أن تركب معهم الطائرة، أوصتها بألا تظهر وأن تخرج من السيارة فور ما يصلون إلى المطار حتى لا يعود بها السائق إلى هنا وتُعاقب بالخيانة، أومأت لها ابنتها والخوف يتمكن منها، احتضنت أخاها قبل أن تلقي عليهم الأم نظرة أخيرة وتغلق الحقيبة، وعادت إلى القاعة بسرعة البرق في الوقت الذي كان فيه أحد التابعين للأب جونز قد أصابه بخنجر في كتفه وظلّ يزعق فيه ويطلب منه الرحيل، أصاب الخوف والذعر كل أفراد اللجنة وبدأوا يشعرون بأنهم مُهددون بالخطر الحقيقي وأن عليهم الرحيل، الدماء تنهمر من كتف رايان وهو يرجع إلى الوراء ويخرج إلى خارج القاعة وسط جميع أعضاء اللجنة والصحفيين الذين هم أحدهم بتصوير ما حدث، التقط صورة تلو الأخرى، وآخر راح يلتقط الفيديو مما دفع أحد الحراس ليأخذ من الأول الكاميرا ويضربها بكل قوته في الأرض، ارتفع الأدرينالين في دماء شخص آخر من الحراس فهم يأخذ الكاميرا وراح يدهسها بأقدامِه على الأرض حتى تحولت إلى فتات صغير متناثر، صاح أحد الصحفيين وطلب من رايان أن يتركوا المكان على الفور.

- هذا المجتمع مجرم لا يمكن أن نترك الناس.

- ماذا تنتظر؟!!تنتظر أن تلق حتفك هنا؟!!هيا ننطلق ولنرى بعد ذلك كيف يمكننا مساعدتهم.

تحرك الجميع تجاه السيارات، رايان ينظر إلى وجوه الناس الذين ظلّوا ينظرون إليهم بخوفٍ شديد، بعضهم قد أصابه الرعب والبعض الآخر تصلب مكانه ولم يتحرك، فقط ظلّ يشاهد المشهد كأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا لا يتوقع أحداثه، دلف أعضاء اللجنة في السيارات ثم بدأت تتحرك إلى خارج المدينة في طريقها إلى مدينة بورت كايتوما، رايان يضع يده على الجرح الذي كان ينزف دون توقف وظل يشاهد المدينة من خلف زجاج السيارة، وما أن اقتربوا من البوابة حتى ضرب أحدهم الزجاج بيده ففزع رايان والسيارة تبتعد، أشار إليه ذلك الذي خبط بيده على الباب بإشارة بذيئة لم يردها له رايان بل ظلّ ينظر إليه والسيارة تبتعد، أحد الصحفيين كان يبحث في كل مكان عن حقيبة للإسعافات فلم يجدها، طلب من السائق التابع لمدينة جونز أن يعطيه الحقيبة ولكنه تجاهل ذلك، نظر إليه عبر مرآة السيارة الداخلية وأخبره أن يغلق فمه، فهو لن يفعل سوى أن يوصلهم إلى مدرج الطائرات، زفرت ابنه جورج وهي تستمع إلى ذلك الحديث وتحتضن أخاها الخائف لأنهم يضعون الحقيبة عليهما ليختفيا عن الأنظار!!

***

كانت الإجابة صادمة لجورج حينما سأل عن مكان الأطفال، راحت دقات قلبه تتسارع والخوف يستفحل بداخلِه، ينظر إلى زوجته بعينيه اللتين تتسعان عن آخرهما من هول ما حدث، لا يصدق أنها قد أمنت عليهما بأن يغادرا في تلك السيارة!!

- كيف استطعت أن تشعري بالأمان وأنتِ تتركينهما فرادى يذهبان بصحبة تلك اللجنة!!

- أنا أردت ألّا أتركك هنا وحيدًا، ولكن قد أتت الخطة بثمارها، لم يغادر أحد مع اللجنة والأجواء هنا أصبحت جنونية يقودها التوتر ولا نعلم ما سيحدث، لن يستطيع أحد إيذاء اللجنة، أنا مطمئنة على أنهما سيكونان بخير.

- كيف؟!!

- لا أعلم ولكنه قلب الأم سيظل قلب الأم.

بمجرد أن انتهت من كلامها وجدوا جميعًا الأب جونز يتحدث إليهم عبر مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان في المدينة، يتحدث إليهم بصوتٍ هادئ ويطلب منهم الهدوء والابتعاد عن العصبية والتوتر الذي بدأ يجتاح المكان.

- أبنائي، أبناء جنة عدن، لا داعي للقلق ولا داعي للذعر، نحن الآن في أمانٍ تام، لقد انقشع عنا هؤلاء الذين جاءوا من أجل هدم حلمنا الذي بدأ منذُ سنوات، هؤلاء ما هم إلا بمثابة الحية التي غوت حواء وطلبت منها أن تأكل من الشجرة فطردهم الرب من الجنة، نحن لن ندعهم يطردوننا من جنتنا التي وهبها الرب لنا، نحن مُدينين بالشكر للمواطنين الشرفاء الذين دافعوا عنا حتى لا يتمكن هؤلاء منا، لكن علينا أيضًا أن نتطهر، نتطهر من كل شيء يجلب لنا السوء ثم نقطع دابر هؤلاء الخائنين المشكوك في انتمائهم إلى جنتنا، هؤلاء الذين دفعتهم ميولهم وانتماءاتهم غير المعروفة إلى فعل أشياء تتعارض مع نظام المدينة الجميلة، أفضل مدن العالم، علينا أن نحد من تحركات هؤلاء ونحجم أفعالهم باعتقالهم في سجوننا حتى لا يتأذى منهم باقي أعضاء المجتمع، إن كل ما علينا هو القضاء على كافة أعداء المجتمع.

الأب جونز كان يرتاب في أمر جورج وزوجته وشعر أنهم يمثلان عليه خطرًا كبيرًا منذُ أن طلب منه الرحيل بحجة لم يقتنع هو بها ثم تلته زوجته بمقتل مساعده، كل هذه الأفعال جعلت الشك ينمو في قلبه فأمر باعتقالهما وباعتقال بعض الذين لم يصدر منهم شيء، فقط من أجل قطع الألسنة وقمع الرغبات وإرهاب كل من تسول

له نفسه بالاعتراض، بمجرد أن انتهى فوجئ الناس بعدد من الحراس يلقون القبض على مجموعة من الناس بما فيهم جورج وزوجته بموجب حالة الطوارئ التي أعلنها الأب جونز للتخلص من هؤلاء وإرهاب الجميع!!

اقتادوا جورج وزوجته إلى المأدبة، وضعوهم جميعًا في سيارة ولم ينتبه أحد إلى أن أبناءهما ليسوا هنا، ذهبوا بالسيارات إلى مقر المأدبة بعدما غطوا أعينهم ليمنعوهم من رؤية أي شيء، تحركت السيارات إلى هناك، لن يتم التحفظ عليهم في مكانٍ عادي مع هؤلاء المجرمين أو اللصوص، سوف يتم سجنهم في سجن داخل سجن حتى يكونوا بعيدًا عن كل شيء، لأنهم يمثلون للأب جونز الخطر الأكبر، تم توزيعهم على زنازين صغيرة لا تحتوي على شبابيك أو إنارة، فُتحت الزنزانة وألقوا بها جورج وأُغلقت، المكان بالداخل مظلم، مظلم للغاية حتى أنك لا تستطيع أن ترى كفك من شدة الظلام، لم يجد جورج ما يفعله سوى أن يطرق على الباب، يطرق بكل ما أوتي من قوة، فأتاه صوت من الظلام الدامس يطلب منه أن يهدأ ولا يستنفد ما لديه من قوة وأن يأتي ويجلس لأن ما يفعله الآن لن يجني منه أي شيء على الإطلاق، التفت جورج حوله لكن الظلام الشديد لم يمكنه من رؤية أي شيء، فقط يستمع إلى صوت يأتي من اللاشيء!!

- من أنت؟!!!

- لا يهم، هنا ستنسى كل شيء حتى اسمك، لا تشغل بالك بالأسماء.

- ماذا يعني هذا؟!!

- أنا لم أسمع اسمي منذُ شهور، منذُ أن ألقوا القبض علي وألقوا بي إلى هنا، لم ينادني أحد باسمي حتى حينما يفتح الباب ويضعوا الغذاء لي أو كل ساعات طويلة حينما أخرج للاستحمام أو قضاء حاجتي يستخدمون كناية لاستدعائي، يناديني الجميع بـ كافر.

- كافر؟

- نعم، فقط أوهمهم الأب جونز بأن كل من يأتي إلى هنا فهو كافر.

- لماذا؟!!

- ليحافظ على سلطانه، ليحافظ على ملكه الذي وهبه لنفسه، بقاؤنا هنا في ذلك المكان المظلم يضمن له نفوذه، هؤلاء الذين لا يمتلكون شيئا ويتحكمون في الجميع بالقوة والسخرة، وقودهم الجهل المدقع الذي يجعلون الناس يلهون فيه، لذلك ترى أن في مثل هذه المجتمعات كمجتمعنا التعليم متخلف يسبب الغباء وعدم القدرة على الإبداع حتى لا يُنشأ جيل يستطيع التفكير والتميز، هم يخشون العلم والبحث والفكر، لذلك يقمعونه عن قصد.

- معك حق، أنا قرأت في كتاب صغير كان بصحبة ابني ووجدت أشياء تشيب لها الرأس.

- هذا الكتاب بمثابة قنبلة نووية، لذلك يمنعون تداوله خارج المدرسة وقد يتعرض المعلم للتعذيب والسجن إذا لم يتمم على هذه الكتب حتى لا تصل إلينا ونكشف ما بها من ثغرات فتصعب عليهم مهمتهم الأكبر في تطويع عقل ووعي هؤلاء الأطفال الصغار.

- هذا ما توقعته.

- لذلك أنت هنا، أمثالنا خطر شديد عليهم وعلى أي حاكم ديكتاتوري لذلك يتم التحفظ علينا أو قتلنا إن أمكن.

- أتقصد أنك هنا لأنك...

قاطعه ذلك الرجل بسرعة:

- لأنني بدأت أفهم وأعي حقائق كانت مستترة خلف تلك البذلة البيضاء التي يرتديها الأب جونز.

- ماذا فعلت، هل طلبت الرحيل؟

- لا، لو طلبت الرحيل أو ارتكبت أي خطأ فاضح حتى ولو هتكت عرض امرأة لكنت مسجونا في مكان منير به سرير وبعض النشاطات التي أستغل بها الوقت، لكني فعلت ما هو أسوأ من ذلك.

- وما هو؟!!

- بدأت أنشر الوعي والحقائق حول الأكاذيب الذي يوهم بها الأب جونز أفراد مجتمعه فتم اعتقالي وسجني هنا بتهمة خيانة المجتمع الملائكي واعتبروني مشوبا، الغريب أنه تعمد إذاعة ذلك في بوق الإعلام الداخلي وجعل كل ما يدين له بالولاء يتحدث مع الناس بذلك حتى اقتنعوا واعتبروني حقًا عميل أعمل لحساب العالم الخارجي الذي يوهمهم أنه يريد إقصاءهم.

بدأ جورج يشعر بالقلق والتوتر حيال ذلك وقلبه يرتجف، سأل ذلك الرجل هل سيمضي هنا وقتاطويلا فضحك الرجل طويلاً ثم أجابه.

- هذا شيء مؤكد، إلا أن تعود إلى صوابك.

- وما هو؟!!

- لا أعلم ولكن هو بالتأكيد أن تتظاهر بالعمى والتجاهل لكل ما تراه حتى تأتي لك فرصة للعودة إلى المدينة.

- لماذا يفعل الأب جونز هكذا، إنه يتمتع بحب الناس وليس مضطرا لفعل ذلك.

- من أخبرك أنه يتمتع بحب الناس؟!!

- قد رأيت ذلك في الخارج قبل أن أكتشف حقيقة الأمر.

- هذا ما أراد هو إظهاره يا رفيقي، في المجتمع الذي تجد فيه أفراد الأمن والرجال الذين يأخذون دور البصاصين تعلم أن الحاكم لا يتمتع بحب الناس بل إنه ديكتاتور يخشى من الناس، وهذا ما يحدث مع الأب جونز، هو فقط استطاع أن يستغل فقر الناس وحاجتهم إلى معاملة حسنة بعد كل ما تعرضوا له في أوطانهم، ارتدى عباءة الدفاع عنهم وبدأ يستقطبهم حتى سنحت له الفرصة فاعتلى على رؤوسهم، هؤلاء يعتبرون الناس مجرد فترات في حياتهم وأن لكل فرد يقابلونه دورًا ثم يتم إقصاؤه بطريقة ما بعد تحقيق مرادهم.

- وما الحل؟!!

- لا أعلم، ولكن ما أعلمه جيدًا هو أن هؤلاء إن لم يستطيعوا أن يمتلكوا الشيء كسروه وهذا ما أخشاه.

***

وصلت سيارة كانت تتبع سيارات اللجنة حتى وصولها إلى مدرج الطائرات، دلفت إلى المدينة بسرعة هائلة وكان عليها عدد من الحراس الذين أمرهم الأب جونز بتنفيذ خطته، دخلت السيارة وكان عليها آثار دماء، دخلت إلى المدينة وسط أعين الناس التي اتسعت من هول المنظر والمفاجأة، كان الحراس يمسكون في أيديهم بأسلحة آلية يشهرونها أمام الجميع مما دفع كل أفراد المجتمع للشعور بما هو أسوأ وأعمق من الرعب، فهذه هي المرة الأولى التي يرون فيها أسلحة نارية في مدينة الأب جونز، تحركت السيارة في المدينة حتى وقفت أمام المبنى الذي يحتوي على مكتب الأب جونز، فُتحت الأبواب ودلف منها الجميع وكان من بينهم حارس مُصاب برصاصة في الكتف وكان يساعده زملاؤه في الهبوط من السيارة وهو يتأوه من الألم، يستند بيده على زميله ويده الأخرى يحاول أن يمنع بها الدماء من النزيف، في الوقت الذي ركض فيه آخر ليأت بالإسعافات الأولية، تحرك قائدهم وهَمَ بالصعود إلى مكتب الأب

جونز، صعد إلى مكتبه فكان يجلس هناك على أحر من الجمر وقد أكل القلق منه، نظر إلى الحارس الذي بدا أمامه شاحب اللون وخائفا، فأدرك أن هناك خلل في الخطة وتأكد أن قد حدث شيء غير المتفق عليه!!

***

قبل ذلك بدقائق.

وصلت السيارات التي تستقلها أعضاء اللجنة إلى مدرج الطائرات، فُتحت الأبواب وبدأوا جميعا بالترجل، شعرت ابنة جورج بأنهم قد وصلوا حينما توقفت السيارة واستمعت إلى الأبواب وهي تغلق، بهدوء بدأت تزيح تلك الأشياء التي يختبئان تحتها، تُحركها وتهم بالنهوض، نظرت حولها وهي تستمع إلى وقع الأقدام التي تتابع الخُطى، كان هناك صوت مروحية في الخارج ، إنها تعود للطائرة التي سوف تنقلهم، بهدوء فتحت باب حقيبة السيارة، نظرت من تلك الفرجة التي اتسعت بالقدر الكافي فقط لظهور عينيها فوجدت أن هناك سيارة تأتي من بعيد تنتمي إلى مدينة جونز، فما كان منها إلا أنها أغلقت الحقيبة سريعًا قبل أن تصل السيارة، شعرت أن هناك خطر ما على وشك الحدوث، توقفت السيارة بصحبة ذلك الصوت المزعج الذي صنعته عجلاتها باحتكاكها بالإسفلت، خرج منها بعض الحرس التابعين للمدينة حاملين الأسلحة الآلية، كان هدفهم هو ترويع أعضاء اللجنة وقذف الرعب في قلوبهم قبل أن يتم القبض عليهم حتى لا يعودوا إلى أمريكا بهذه الأخبار التي قد وصلوا إليها، كانت هذه هي خطة الأب جونز وأن يخبر الجميع بأنهم انطلقوا أمام الجميع في طريق العودة لكن حدث ما لم يكن متوقع، فوجئ الحراس بشخص من أمن المدرج الذي يضم عددا بسيطا جدًا من الأمن كونه مدرج فقط وليس مطارا يُخرج مسدسه الناري ويطلق عليهم النار فأصاب أحدهم، اخترقت رصاصته كتفه فصرخ وسقط على الأرض وقد بدأت الدماء تصبغ ملابسه، اضطر زملاؤه لأن يفتحوا النيران على الجميع،

كانت طلقات النيران عشوائية وفي كل الاتجاهات، كانوا يخشون أن يُصاب أو يقتل أحد منهم فأطلقوا العنان للرصاص في كل مكان وأمطروهم جميعًا فلم ينج منهم أحد!! لم ينتظر كابتن الطائرة شيئا حينما استمع إلى صوت الرصاص الذي كان حقًا مرعبًا، انطلق بالطائرة هاربًا، قُتل كل أعضاء اللجنة، حتى عضو الكونغرس ليو ريان، أخبر الحارس الأب جونز بذلك الأمر الذي فُرض عليهم ولم يكن مُخطط له فظل الأب جونز ينظر إليه وقد اعتلى وجهه الاغتمام، أدرك أن الآزفة قد أزفت، ستعلم الحكومة الأمريكية بالأمر وكذلك الكونغرس، ستنقلب الدنيا على رؤوسهم وسينتهي أمرهم لا محالة، نهض الأب جونز وعلى وجهه كل أمارات الضيق والاستشاطة، أغمض عينيه وظل يفكر فيما عليه فعله وسط نظرات الحارس الذي لم يرفع عينيه عنه، فكر الأب جونز حتى اكتشف أنه لا بديل عن تنفيذ تلك الخطة التي كان يجعلها الكارت الأخير للطوارئ، بهدوء ترجل حتى الميكرفون الذي يتحدث منه إلى الجميع والحارس ينظر إليه ولا يدرك ماذا سيفعل، أمسك به وهو يفكر فيما سيفعل، لم يضغط على زر التشغيل الخاص بالميكرفون، ظلّ ممسك به فقط ثم بدأ يتحدث إلى الحارس وهو لا ينظر إليه، أخبره بأن يذهب إلى المخزن ويقوم بإخراج كل السلاح الذي يمتلكونه ويوزعه على الحراس لكي يحوطوا كل سكان المدينة بعدما ينادي فيهم أن يتجمعوا في قاعة الاجتماعات، نظر إليه الحارس بريبة.

- ولكن هذا السلاح يخص الصفقة يا سيدي، بهذه الطريقة سوف نتورط مع المافيا البرازيلية.

- افعل ما آمرك به ولا تناقشني في شيء.

- أمرك أيها الأب.

هَمَ بالانصراف فاستوقفه الأب جونز مرة أخرى.

- اذهب إلى إليزابيث وأخبرها أن تأتي بالدواء لأن الأمر قد قُضى ولا بديل لذلك.

- ما المقصود بالدواء؟!!

- لا تناقش، اذهب ونفذ ما أطلبه منك، أنا لا أطلب منك الفهم.

- أمرك أيها الأب.

انصرف الحارس وراح الأب جونز يتحدث مع الجميع، يطلب منهم أن يحجوا إلى قاعة الاجتماعات سريعًا ولا يتأخر أحد لأن هناك أمر يجب أن يتخذوا فيه قرارًا على نحو السرعة، أغلق الميكرفون ثم هم يُخرج مذكراته وكل الأشياء الهامة التي كان يذكرها ويكتب عنها، وضعها جميعًا في سلة واحدة وأشعل النيران بها، أراد أن يتخلص منها حتى لا تقع في يد أحد فيتعرف على أسرار ما كان يحدث، أخذ الكتاب المقدس الذي لا يفارقه وخرج من المكتب.

في عجالة تجمع كل أفراد المجتمع داخل تلك القاعة وهناك وقف الأب جونز أمامهم يتحدث إليهم عبر مكبرات الصوت بصوتٍ كان جنونيًا وحماسيًا، طالبهم بالهدوء ثم شرع يتحدث إليهم وبجواره وقف هذا الحارس الذي أُصيب في كتفه بعدما وضعوا له الضمادات التي تمنع النزيف، أشار إليه الأب جونز وبدأ الحديث به.

- أرأيتم ماذا فعل بنا أعضاء اللجنة التي أتت بحجة الاطمئنان علينا، إنهم يريدون أن يقصونا، يريدون أن يقضوا علينا، يريدون أن ينهوا حياتنا ويبعدوننا عن جنتنا، لقد أخبرتكم من قبل أن هؤلاء هم الحية التي أغوت حواء من قبل ويريدون إغواءنا مرة أخرى، يتسللون بهدوء مريب من بيننا دون أن نشعر ليؤذونا، هؤلاء لم يريدوا بنا إلا كل ما هو سيء لينته بنا الحال مشردين بلا مأوى أو نعود إلى مجتمعاتهم الظالمة، عبيد، مملوكين لهم، إن رجالي قد وجدوا عددا كبيرا من القوات الخاصة في انتظار اللجنة بعدما أدركوا مكاننا، وعلموا عنا ما كانوا يجهلون، حركهم الغل والحقد والبغضاء، هم الآن يستعدون لغزونا وقتلنا بلا رحمة، سيحرقون المدينة بمن فيها وسيسلخون جلود أطفالكم أمام أعينكم ولن تستطيعوا ردعهم، سينتهي

الأمر بنا كما انتهى بقتلى الحرب العالمية الثانية، لا أمل للنجاة، وعدد الضحايا سيفوق أي عدد كنا نتخيله قبل تلك الزيارة، سنذوق من الألم كل ما هو موجع وشديد.

نظر إليه الحارس وقد بدأت دهشته تعتلي نظراته الشديدة لهذا الكذب الذي يلقيه على مسامعهم في الوقت الذي ارتفع فيه الصراخ والبكاء من كل جانب، نظر الناس حولهم فوجدوا القاعة بالكامل قد تم إحاطتها بالحراس الذين يشهرون الأسلحة الآلية بجدٍ يرعب قلوبهم.

- لقد استأذنت الرب وطلبت منه أن يصعد بنا إلى جنة السماء، جنة عدن الحقيقة التي طُرد منها آدم، لا مكان لتذوق التفاح هناك، لن نأكل من تلك الشجرة التي أكل منها، لن نسمح للحية أن تغوينا كما أغوت حواء من قبل، هناك لن يكون البشر مجرمين كما هم في الدنيا، لن يكون هناك حقد وغل وكراهية.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض وبدا بعضهم لا يصدق ما يحدث أمامه فأمسك بالكتاب المقدس الذي لا يفارقه وهو يتحدث إليهم ورفعه أمام الجميع وطلب منهم الهدوء.

- أبنائي، أرى أن هناك بعض المُشككين فيما أخبركم به، ولكي تطمئن قلوبكم أريد أن أخبركم بشيء، هل يمكن لأحد منكم أن يأخذ الكتاب المقدس الذي يحمينا والذي لم أتركه من يدي لحظة واحدة ويلقي به على الأرض.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض ولم يُجب أحد فأخبرهم الأب جونز بأنه لا أحد يستطيع ولكن هو يستطيع كونه على علاقة وطيدة مع الرب وأنه سمح له بذلك لكي يُطمئن الناس وأنها معجزة إلهية، أمسك بالكتاب وألقاه بعيدًا على الأرض فعم الصمت أرجاء المكان وظل الناس ينظرون إلى بعضهم البعض في دهشة.

- أرأيتم، لم تنزل صاعقة من السماء ولم يصبني أي مكروه، لأن الرب أمرني بذلك، لو كان شخصًا عاديًا لاحترق بفعلته هذه، أنا لست شخصًا عاديًا، أنا ظل الرب على

الأرض، أنا المُختار، كل ما عليكم الآن هو أن تثقوا بي قبل أن يأتِ رجال القوات الخاصة ويقتلوكم ويقتلوا أولادكم، سوف نشرب هذا الدواء الآن.

أثناء تلك المحاكاة كانت إليزابيث قد أتت على الكرسي المُتحرك ومعها عدد من الحراس يحملون عددا من البراميل الزرقاء المملوءة بالنبيذ والتي وضعت عليها كميات كبيرة من السيانيد القاتل وبدأت بتوزيعها على الجميع، كانت تضع منه في أكواب بلاستيكية وتوزعها على الموجودين والأب جونز يستأنف حديثه.

- اشربوا هذا الدواء، إنه سيساعدكم على التخلص من أجسادكم وستظهر روحكم في السماء هناك في جنة عدن، أرجوكم اشربوا الدواء، اشربوه، إنه بسيط وغير مؤلم، اشربوه قبل فوات الأوان، القوات الخاصة على الوصول وأنا لكم من الناصحين.

تحول كلامه إلى خطاب سريع وقوي ومُحفز حتى أن بعض الناس بدأوا بشرب النبيذ الذي يحتوي على السيانيد والمعروف عنه أنه سم قوي لا يستغرق سوى ثواني حتى يُصاب الإنسان بدوار ثم بضيق تنفس يعقبه توقف لعضلة القلب، تجرعوا المشروب، فما هي إلا ثوانٍ حتى سقطوا على الأرض واحدٌ تلو الآخر، أُصيب بعضهم بتشنجات شديدة وبدأت تظهر مادة بيضاء رغوية في فمهم، أردف الأب جونز.

- هيا أسرعوا، أسرعوا، زملاؤكم قد وصلوا إلى الجنة عليكم أن تسرعوا وتلحقوا بهم، أعطوا أطفالكم في البداية حتى إذا جاءت القوات الخاصة لا تبدأ بهم.

هناك في الزنزانة جورج يضرب بيده بكل قوة على الباب وهو يستمع إلى ذلك الخطاب ويعلم أن الأب جونز يشرع في عملية انتحار جماعية بعدما انكشف أمره، يخبط على الباب ويصرخ يحاول أن يُحذر الجميع فأتاه الصوت من خلفه ثانيةً وطلب منه الهدوء.

- نحن هنا بسبب موقف كهذا، نحن هنا لأنه يريد أن يقضي عليهم بجهلهم وقت ما شاء ولا يعرقل أحد سير العملية.

- إنه يقتلهم، يسقيهم هذا الشيء المجهول القاتل ويخبرهم أنه دواء، هذا ليس دواءً.

- هو يقتلهم منذُ أن نزع عنهم العلم والفكر والثقافة ومتابعة كل شيء، ما يحدث الآن هو مجرد نتيجة.

استمعوا سويًا إلى صوت طلقات نيران في الخارج وأبواب تفتح.

- ما هذه الأصوات؟؟

سأله جورج فأجابه.

- إنه الموت ولكن بطريقة تحترم عقولنا، هو لن يستطيع قمعنا بالفكر فيقمعنا بالنيران.

- هل سنموت أيضًا؟

- بالتأكيد كلنا هنا سنموت ولكن تختلف الطريقة، ستصبح الرصاصات التي في أجسادنا دلالة على عدم استسلامنا للجهل ووسام مشرف يثبت لمن يأتي خلفنا أننا كنا نعلم كل شيء ولم نستسلم أو نتحد معه من أجل مصلحة خاصة، ستشهد هذه الطريقة في قتلنا على أننا لم نكن منافقين نتبع المصلحة، هنا لا يموت بالرصاص إلا من كان واعيًا.

شعر جورج بأن هذا الشخص صاحب الصوت قد وقف على أقدامه ثم ترجل إلى أن وصل إلى جانبه، أخبره بأن يستقيم ولا ينحني ويستعد لذلك الموت المُشرف، لم ينته الرجل من كلامه حتى فُتح الباب وانهال الرصاص عليهم.

في القاعة الوضع أصبح كارثيا، الناس يتساقطون واحدا تلو الآخر، شعرت إليزابيث بضيق في التنفس ثم تعالت ضربات قلبها بسرعة، لم تدرك أن السيانيد مادة شديدة السُمية تقتل إذا استنشقتها أو لامست جلدك، شعرت بضيق في التنفس دفعها لتترك الكرسي المتحرك وتركض أمام الجميع، سهت أنها تجسد دور امرأة قعيدة، ركضت

أمام أعين مجموعة من المترددين في تناول الدواء لكنهم رسموا الصليب سريعًا ثم تجرعوا الدواء وسقطوا قتلى بجوارها.

تساقط الجميع واحدٌ تلو الآخر حتى بعض الحراس بدأوا يتجرعون الدواء، لمح الأب جونز واحدًا من مساعديه يتحرك بسيارة خارج المدينة فأمر حراسه بقتله فأطلقوا عليه النيران وأسقطوه قتيلاً.

أصبحت الساحة تحتوي على أكثر من تسعمائة قتيل، أجسادهم ملقاة على الأرض بعشوائية شديدة وهناك بعض الحراس، نظر لهم الأب جونز وطلب منهم أن يقتلوا أنفسهم بالسم حتى يذهبوا إلى الجنة فتناولوا جميعًا ذلك المشروب المُسمم فتساقطوا واحدٌ تلو الآخر حتى لم يتبق سوى الأب جونز يقف وحيدًا في الساحة، يترجل وسط الجثث وينظر إليهم وهو في حالة غير طبيعية.

في مكتبه كان مساعد الأب جونز الذي يعمل في الاستقبال قد وصل إلى هناك، أخذ من الأموال ما استطاع حمله، وضعها في سيارة ولكنه لم يخطئ كما أخطأ الآخر، بحث عن سلاح حمله على ظهره ونزل إلى أسفل وراح يتحسس مكانا بالقرب من الأب جونز.

***

فتحت حقيبة السيارة التي كانت تنقل أعضاء اللجنة وخرجت ابنة جورج تحمل في يدها المذكرات التي أعطتها لها والدتها وفي اليد الأخرى أخيها الذي أمرته أن يغمض عينيه وهم يمرون بين الجثث حتى وصلت قوة من غيانا قد استجابت لشكوى أحد المواطنين القريبين من مدرج الطائرات يبلغ أن هناك صوت لإطلاق النار، توقفت قوة الشرطة أمام الجثث في حالة من الذعر، لم تفعل ابنة جورج سوى أنها مدت يدها بالمذكرات إلى الضابط الذي كان يقف أمامها وهي تبكي وتحجب عين أخيها.

***

تحسس المساعد تلك الزاوية وانتظر حتى وقف الأب جونز ونظر إلى السماء ثم فرد ذراعيه عن آخرهما في وضع النسر المُحلق , كان يتحدث إلى الإله بصمتٍ , كان في حالة غريبة من النشوة في الوقت الذي يشاهده فيه المساعد عبر عدسة السلاح الناري ثم أطلق عليه النار، اخترقت الرصاصة قلبه , اتسعت عيناه بذهول , دار حول نفسه وهو ينظر إليه وهو يركب السيارة وينطلق بها، سقط الأب جونز بجوار الكتاب المقدس الذي كان قد ألقاه، حرك هواء السيارة التي انطلقت بأقصى سرعة أوراقه فتقلبت بسرعة فكُشف الستار عنه، إنه مجرد كتاب يحتوي على صفحات فارغة وليس كتابا مقدسا من الأساس!!

انتهت

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007